ارتياد الآفاق ١٢

خطرة الطيف

رحلات في المغرب والأندلس

1347 - 1362

لسان الدين بن الخطيب

حققها وقدم لها: د. أحمد مختار العبادي

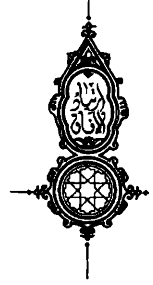

المؤسسة العربية للدراسات والنشر


دار السويدي للنشر والتوزيع

خطرة الطيف

٧

رحلات في المغرب والأندلس



خطرة الطيف – رحلات في المغرب والأندلس (١٣٤٧ ـ ١٣٦٢) / أدب رحلات
لسان الدين بن الخطيب / مؤلّف ، [حرّرها وقدّم لها : أحمد مختار العبّادي]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣



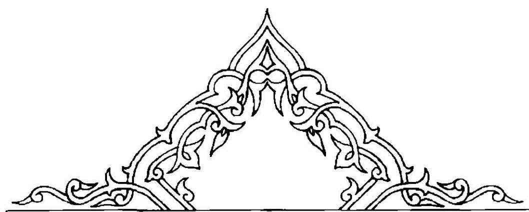
دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠–١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

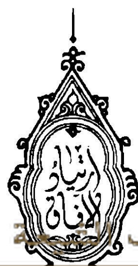
ISBN 09953-441-43-X



خطرة الطيف

رحلات في المغرب والأندلس

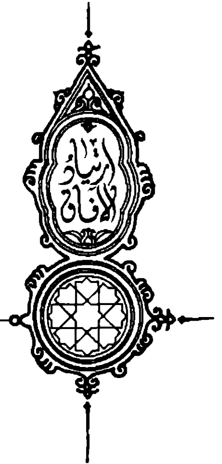
1347 - 1362



لسان الدين بن الخطيب

حققها وقدم لها: د. أحمد مختار العبادي

يشرف على هذه السلسلة :
نوري الجراح



إهداء

إلى ذكرى أستاذي وعمّي

المغفور له عبد الحميد العبادي،

أقدّم هذا الجهد المتواضع.

أيها الراحل الكريم العزيز:

لن أنسى عطفك فقد اختلط بدمي،

ولن أنسى تشجيعك إذ هو رائدي،

كما لن أنسى حديثك الذي نقش في صدري،

يسير معي حيث استقلّت ركائبي..

وينزل إن أنزل ويدفن في قبري.

ابنك أحمد مختار العبادي

"...وأهل هذه البلدة ينسب إليهم نُوكٌ وغَفلة عِلّتُها، إن صدقت الأخبار، سلامة وسذاجة، فتَغمُرُ بملحهم الأسمار، وتتجمل بنوادر حكاياتهم الأخبار. فمنها أن ملك المغرب لما عجب من هذه المئذنة، استأذنوه في نقلها إلى بلده على سبيل الهدية، يجعلونها تحفة قدومه، وطُرفة وفادته..."

من نص الرحلة ص (125)

"...وكان الانصراف عنها من الغد، وماشينا أدواح الزيتون والأشجار، تساوقها جَرِيّات الأنهار، تتخللها أطلال الحلل والديار نَيِّفاً على شطر البريد لا تنال صفح ثراه الشمس ولا ترتاده الحرباء، تتجاوب أصوات الحمام المطوّق فوق غصونه. وقد اقتطعت ذلك الجناب الخصيب أيدي الوحشة، وأخيفت من حلل غابة السابلة، وسكن ربوعه الآهلة البوم، فيالها من مدينة غَزُر ماؤها وصحّ هواؤها، وأينعت أرحاؤها، وضفى عليها من المحاسن رداؤها.".

من نص الرحلة ص (127)



تَهْدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الإستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناسِ، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُستَقطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافض له، ومستعدّ لمقاتلته.

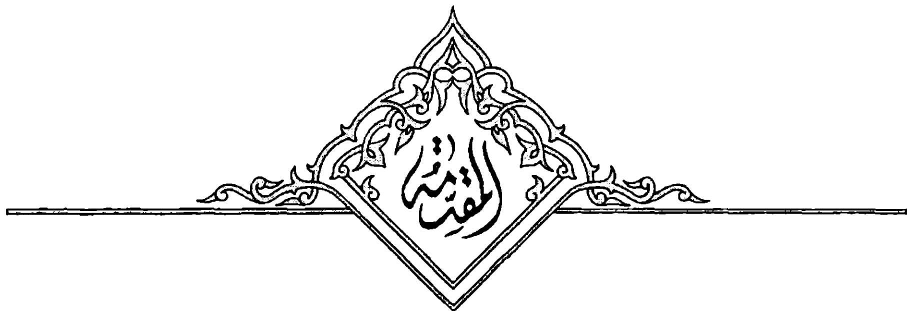
وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السّحري والأيروسيّ والعجائبيّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشّلل الحضاريّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة

الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخرِ وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد خليفة السويدي



يرجع اهتمامي بالمؤرخ الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب إلى سنة 1952م عندما كنت أعد رسالة الدكتوراه في جامعة مدريد بإسبانيا وموضوعها:

مملكة غرناطة في عهد السلطان محمد بن يوسف بن نصر (محمد الخامس الغني بالله) من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

وكان من الطبيعي أن أهتم بشخصية لسان الدين بن الخطيب لأنه كان وزيراً لهذا السلطان محمد الخامس، بل كان وزيراً قبل ذلك لأبيه أبي الحجاج يوسف الأول.

ومن ثمّ عكفت في بادئ الأمر على نشر وتحقيق رسائله التي بين أيدينا والتي تعبر عن مشاهداته أثناء رحلاته التي قام بها في بلاد المغرب والأندلس في عهد هذين العاهلين من ملوك بني نصر أو بني الأحمر.

ثم واصلت بعد ذلك نشر وتحقيق بعض أعمال ابن الخطيب الأخرى مثل:

1 ـ كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب الكبير وصقلية). وذلك بالاشتراك مع المرحوم محمد إبراهيم الكتاني.

(دار الكتاب، الدار البيضاء سنة 1964م)

2 ـ كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (الجزء الثاني) في طبعتين!

(دار الكتاب العربي بالقاهرة، دار النشر المغربية بالدار البيضاء)

هذا إلى جانب بعض المقالات التي تناولت فيها جوانب هامة من شخصية ابن الخطيب مثل:

- لسان الدين بن الخطيب ونزعاته الاقتصادية (مجلة لسان الدين الجزء التاسع والعاشر، سبتمبر ـ أكتوبر، تطوان سنة 1954)

- سياسة ابن الخطيب المغربية، مجلة البينة ـ الرباط ـ 1962

- لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية ـ عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثاني سنة 1985.

ولما كانت الطبعة الأولى لهذا الكتاب «مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس» التي أصدرتها جامعة الإسكندرية في سنة 1958م، قد نفدت منذ مدّة طويلة، فقد رحبتُ شاكراً بعرض الشاعر نوري الجرّاح (المشرف على مشروع ارتياد الآفاق) لإعادة نشر هذا الكتاب بعد تنقيح النسخة المطبوعة.

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا خالصاً لوجهه الكريم

المحقق

أ. د. أحمد مختار العبادي

الإسكندرية مايو/ أيار2002

مقدمة الطبعة الأولى

لسان الدين بن الخطيب (713 ـ 776هـ، 1313 ـ 1374م) وزير ملوك بنى الأحمر بغرناطة، شخصية من أصحاب الثقافة الموسوعيّة المعروفة في ميادين العلم والسياسة. كتب حوله بحوث عديدة، كشفت النقاب عن بعض مواهب هذا العبقري الداهنة. وقد سبق لي أن أسهمت في هذا المضمار بمجهود متواضع[1]، وها أنذا أعاود الكرّة مرّة أخرى محاولاً تناول هذه الشخصية العظيمة من زاوية أخرى، وهي دراسته كرحّالة عظيم، وذلك على ضوء ما قدّمه لنا من أوصاف دقيقة، ومشاهدات صادقة، للبلاد الأندلسيّة والمغربيّة التي زارها بنفسه.

والواقع أن الظروف العلميّة والسياسيّة التي تقلّب فيها ابن الخطيب، أتاحت له الفرصة في الطواف بأنحاء مملكة غرناطة وبلاد المغرب الأقصى.

فمن المعروف أنه في أثناء صباه تلقّى العلم على شيوخ تلك البلاد، وإن كانت هذه الفترة الأولى من حياته يكتنفها الغموض من حيث حركاته وسكناته. غير أن المصادر المعاصرة تشير إلى أسماء شيوخ له من كافّة أنحاء

---

(1) انظر (مختار العبادي: لسان الدين بن الخطيب ونزعاته الاقتصادية ـ مجلة لسان الدين، الجزء التاسع والعاشر، سبتمبر ـ أكتوبر سنة 1954) وقد تفضل أستاذي المستشرق الإسباني الكبير غرسيه غومز، فترجم هذا المقال إلى اللغة الإسبانية في مجلة الأندلس، تحت عنوان: (Los moviles economicos en La vida de Ibn AL JATIB - Andalus 1955 Vol.xx fasc. 1)

المغرب والأندلس، فليس بمستبعد أن يكون ابن الخطيب قد زار هذه البلاد في شبابه سعياً وراء العلم والاتصال بعلماء عصره كما كان يفعل مواطنوه. وكيفما كان الأمر، فالذي يعنينا هنا، أن ابن الخطيب حينما تولّى الوزارة، رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الأول في رحلته التفتيشية بمقاطعات غرناطة الشرقية عام 748هـ، كذلك زار ابن الخطيب بلاد المغرب الأقصى كسفير لسلطان غرناطة في عامي 749 و755هـ[2] ثم التجأ إليها مرّة ثالثة عند ما نفي مع سلطانه المخلوع محمد بن يوسف بن نصر، الغني بالله، عام 760هـ. ولقد استمرّت مدّة النفي ما يقرب من الثلاث سنوات عاد بعدها ابن الخطيب مع سلطانه إلى مقر حكمه مرّة أخرى.

على أن المهم هنا، هو أن ابن الخطيب طوال مدّة النفي هذه، لم يقبع في مدينة فاس عاصمة بني مرين كما فعل سلطانه وبقيّة الحاشية واللاجئون

---

(2) يجدر بنا أن نشير بصدد هذه السفارة الأخيرة، إلى أن سلطان المغرب أبا عنان فارس، دعا ابن الخطيب إلى حفل رياضي ليشاهد الحرب بين الثور والأسد، على ما جرت به عادة الملوك. وقد وصف ابن الخطيب هذه المصارعة في إحاطته ج2، ص6، 7 (طبعة القاهرة 1319هـ) وقد أشار إلى أن هذا الصراع بين الوحشين قد انتهى بانتصار الثور وجرح الأسد. عندئذ خرجت طائفة من الرجال المسلحين أخذوا يناوشون الأسد الجريح إلى أن قتلوه بعد أن أردى بعضهم.
يكن الصراع مع الوحوش قاصرا على المغرب، بل كان منتشراً أيضاً في الأندلس ومن العجيب أن ابن الخطيب في موضع آخر من كتاب الإحاطة (نسخة الاسكوريال لوحة 441) يشير إلى انتشار مصارعة الثيران بين عليّة القوم من أهل غرناطة. وهذا أقدم نص وجدناه عن هذه المصارعة المشهورة الآن في إسبانيا وأمريكا اللاتينية. وكانت الطريقة كما يصفها ابن الخطيب هي أن يطلق الثور (أو البقر الوحشي كما كان يسميه) ثم تطلق عليه كلاب اللان المتوحشة (Bulldogs)، فتأخذ في نهش جسمه وأذنيه متعلقة بها كالأقراط. وهذا العمل التمهيدي كان الغرض منه هو الحد من قوة الوحش وتهذيب حركته، وهو ما يقوم مقامه اليوم عمل رماة السهام Banderilleros وطاعن الرمح Picador وذلك تمهيداً للقاء المصارع. وكان المصارع الغرناطي كما يصفه ابن الخطيب، فارساً مغواراً يصارع الثور وهو ممتطٍ فرسه المدرب ثم يقتله في النهاية برمحه. وهذا النوع من المصارعة لا يزال موجوداً إلى اليوم، ويُسمّى الفارس المصارع باسم رخونيادور Rejoneador نسبة إلى الرمح القصير الذي يستعمله في قتل الثور واسمه رخون Rejon.
وتنبغي الإشارة إلى أن هذا النص العربي القديم لم يرد ذكره في الموسوعة الكبرى التي ألّفها خوسيه ماريا قوسيو عن الثيران. انظر (Jose maria Cossio: Los Toros, 3 Tomos)

السياسيون، بل عكف على زيارة البلاد المغربية لمشاهدة آثارها ولقاء العلماء والصالحين فيها[3] ولقد سجّل ابن الخطيب كل ما رأته عيناه، وسمعته أذناه في جميع هذه الرحلات، فأعطانا بذلك مادّة خصبة يرجع إليها الفضل الأول في كل ما نعرفه عن حضارة الغرب الإسلامي في تلك الفترة.

ومشاهدات ابن الخطيب التي دوّنها، نشر بعضها نشراً جزئياً غير كامل بوساطة بعض المستشرقين، أما البعض الآخر فلم يُنشر بعد وهو الذي يعنينا أمره في هذا الكلام. ولكن نظراً لأن المنشور من هذه الرسائل متفرّق في أماكن متعدّدة كما أنه ليس في متناول يد القرّاء والباحثين لندرته وقدمه، فقد آثرت لتعميم الفائدة وتوحيد الفكرة، إضافته إلى الرسائل الأخرى غير المنشورة، مع إبداء الملاحظات والتعليقات والشروح اللازمة، على ضوء ما استجدّ من أبحاث في الفترة الطويلة التي تلت هذا النشر والتي تُقدَّر بنحو قرن من الزمان.

ولدينا الآن أربع رسائل كتبها ابن الخطيب في هذا المضمار، وهي:

1 ـ خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف.

2 ـ مفاخرات مالقه وسلا.

3 ـ معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار.

4 ـ رحلته التي دوّنها في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

وقد راعيت في ترتيب هذه الرحلات، التسلسل التاريخي والزمني لها بقدر الإمكان.

أما بخصوص الرسالة الأولى وهي المقامة المسمّاة (خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف) فقد أورد خطأ كل من الغزيري وبروكلمان

---

(3) انظر (المقري: نفح الطيب ج5 ص 237 ـ 238، طبعة محي الدين عبد الحميد).

ودرنبورج، أن هذه الرحلة كانت في بلاد المغرب، غير أنه واضح من نص الرسالة أنها كانت رحلة رسميّة قام بها سلطان غرناطة، أمير المسلمين أبو الحجّاج يوسف بن نصر (733 ـ 755هـ، 1333 ـ 1354م) ومعه وزيره ابن الخطيب لتفقُّد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطه.

ولقد نشر هذه الرحلة المستشرق الألماني ماركوس جوزيف مولر في كتابه المعروف باسم نخب من تاريخ المغرب العربي[4].

غير أن مولر اعتمد فقط في هذا النشر على النسخة التي وردت ضمن كتاب (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)[5] لابن الخطيب، ولكننا عثرنا على نسخة أخرى لهذه الرحلة في المخطوط رقم 470 بمكتبة الاسكوريال بإسبانيا. وهذا المخطوط عبارة عن مجموعة من الرسائل المختلفة لعدّة مؤلفين من بينها هذه الرحلة التي تقع في تسع عشرة ورقة من الحجم المتوسط (رقم 51 إلى 69) وكل ورقة تحتوي على خمسة عشر سطراً، وهي مكتوبة بالخط المغربي. ونظراً لوجود بعض الاختلافات بين النسختين، آثرنا نشرها من جديد وذلك بعد المقابلة بين النصّين والتنبيه إلى الفروق بينهما معتمدين في ذلك على نسخة المخطوط رقم 470 كأصل نظراً لأن تاريخها يبدو أقدم من الأخرى وعباراتها أصح وفقراتها أكثر، وإن كان المَقَّري للأسف، لم يشر إليها إطلاقاً بينما أشار إلى نسخة الريحانة في كتابه نفح الطيب[6].

وقد رمزنا لهذه النسخة الأصلية بالحرف (أ) ولنسخة الريحانة بالحرف (ب).

ونص الرحلة يشير إلى خروج الركب السلطاني من العاصمة غرناطة في يوم الأحد 17 محرم عام 748هـ (1347م) تتقدمه الألوية والبنود الحمراء شعار دولة بني الأحمر. ويصل الركب إلى مدينة وادي آش أو وادي إيش Guadix

---

(4) Marcus Muller: Beitrage Zur Geschichte Der Westlichen 1866

(5) مخطوط بمكتبة الاسكوريال رقم 1825، والرحلة تشغل فيه ثمان ورقات من الحجم الكبير (لوحة 220 ـ 227)

(6) المقَّري: نفح الطيب ج9، ص 306

في شمال شرق غرناطه، وهناك يستقبلهم الأهالي استقبالاً رائعاً بملابسهم البيضاء وهو الزيّ التقليدي لأهل الأندلس عموماً منذ أيام الأمويين.

ثم تواصل الرحلة سيرها شرقاً مارّة ببعض المدن والحصون الهامة مثل بسطه Baza وبرشانه Purchena ويشير ابن الخطيب إلى أن هذه البلاد الشرقية كانت تعاني قحطاً شديداً نتيجة لغارات الأعداء وسيول الأمطار التي اجتاحت أراضيها. وقد صور ابن الخطيب هذه الحالة في إطار مستملح طريف، ومثال ذلك وصفه للدجاجة التي أهداها لهم قاضي إحدى هذه المدن فيقول: (.. وتقدّم بها أعوانه يزفُّونها كالعروس فوق الرؤوس... قلت يا قوم، ظفرتم بقرّة العين، فقد ذبح لكم غراب البين..).

ثم يواصل الركب السلطاني سيره إلى أن يبلغ أقصى الحدود الشرقيّة وهي مدينة بيره Vera، (الثغر الأقصى، ومحل الرباط الذي أجر ساكنه لا يحصى). وقد أشار ابن الخطيب إلى قلق سكان هذا الثغر، وترقبهم لغارات الأعداء المفاجئة، كما أشار إلى صعوبة موقع المدينة ووعورة مسالكها وطرقها لدرجة أنهم اضطروا إلى اتخاذ دليل ماهر ليقودهم وسط الجبال والوهاد إلى الطريق الصحيح.

ثم يعود المرتحلون أدراجهم عن طريق آخر مارّين بثغر المرية Almeria وهنا يشير ابن الخطيب إلى استقبال رجال البحرية للسلطان بملابسهم الجميلة وأبواقهم وطبولهم، وإلى استعراض قطع الأسطول الغرناطي في الميناء.

كذلك يشير إلى استقبال رجال الجيش وكيف كانوا يحملون على أعناقهم قسي الفرنج. وفي هذه العبارة الأخيرة دليل واضح على مدى تأثر مملكة غرناطة بالنظم الحربيّة للبلاد المسيحية المجاورة مثل قشتاله وأراجون.

هذا ومن المعروف أن مملكة غرناطه كانت تستورد أسلحة من فرنسا ولا سيّما من مدينة بوردو (برذيل)(7) لاستخدامها إلى جانب أسلحتها الخاصّة التي كانت تصنعها في مدينة المريه بالذّات.

---

(7) راجع (المقّري: نفح الطيب ج1، ص 188).

كذلك يشير ابن الخطيب إلى الجالية المسيحية المقيمة بثغر المريه، وكان أفرادها يشتغلون بالتجارة والاستيراد والتصدير بطبيعة الحال، ومن كلامه نلاحظ أنهم ساهموا في الترحيب بالسلطان بأن نشروا فوقه مظلّة كبيرة من الحرير لتحجب عنه أشعة الشمس.

ثم يتكلّم ابن الخطيب عن صعود السلطان إلى قلعة المدينة لتفقد حصونها الدفاعية، ومشاهدة آثار الأولين الذين ساهموا في تأسيسها ولا سيّما خيران العامري الصقلبي والمعتصم بن صمادح وهما من ملوك الطوائف الذين حكموا هذه المنطقة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)[8].

ثم بعد ذلك يغادر السلطان وصحبه مدينة المريه مارّين ببعض المدن الهامّة مثل بجانه Pechina ومرشانه Marchena وفنيانه Finana وينتهي بهم المطاف مرّة أخرى إلى مدينة وادي آش ومنها إلى العاصمة غرناطه، مقر الحكم والسلطان.

وينبغي أن نشير في هذا الصدد إلى عبارات أوردها ابن الخطيب في سياق النص تشير كلّها إلى خروج النساء في جماعات كبيرة واختلاطهن بالرجال للمشاركة في استقبال السلطان، فمن ذلك مثلاً قوله: (.. واختلط النساء بالرجال، والتقى أرباب الحجا بربّات الحجال، فلم تفرّق بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين حمر البنود وحمر الخدود).

ويبدو من هذا النص وأمثاله، أن نساء غرناطه كنَّ أكثر تحرراً من نساء العالم الإسلامي في ذلك الوقت. ولعلَّ هذا ناتج من تأثير الجوار بالبلاد المسيحية المحيطة بهذه المملكة الصغيرة من كل جانب. وهناك شواهد أخرى كثيرة تؤيد هذا الكلام إلا أنها مع الأسف الشديد وردت فقط في المصادر

(8) انظر Antonio Prieto y Vives: Los Reyes De Taifas (Madrid 1926) انظر كذلك (مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية، مدريد 1903).

المسيحيّة وحدها[9]. وهذا يجعلنا رغم قلّة المصادر العربية، لا نستطيع إبداء حكم صريح في هذا الموضوع.

والرسالة الثانية التي ألّفها ابن الخطيب في هذا الموضوع أيضاً، رسالته المعروفة باسم (مفاخرات مالقه وسلا) وهي كما يتضح من العنوان، مفاضلة بين المدينة الأندلسية وأختها المغربية في مختلف النواحي الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية... الخ.

ومن العجيب أننا نلاحظ أن ابن الخطيب رغم حبّه لبلاد المغرب ولمدينة سلا بالذات التي لجأ إليها في أوقات محنته، إلا أن شعوره الوطني جعله يتغاضى عن كل هذه الاعتبارات ويتحيَّز إلى المدينة الغرناطية مالقه، فيجعلها المفضَّلة على طول الخط. وقد يرجع هذا الشعور إلى روح المنافسة التقليدية القديمة التي كانت سائدة بين الأندلسيين والمغاربة والتي تظهر أيضاً بوضوح في رسالة الشقندي قبل قرن من الزمان[10].

نشر رسالة ابن الخطيب العالم الألماني مولر السالف الذكر في نفس كتابه المذكور[11]. ثم جاء المستشرق الهولندي دوزي Dozy، فاختصر هذه الرسالة في المجلة الألمانية (ZDMG (XXpÛ616 كما استغل ألفاظها في معجمه المعروف Supplement aux Dictionnaires Arabes وجاء المستشرق الإسباني سيمونيت Simonet فاستعان بهذه الرسالة أيضاً في مقالاته التي كتبها تحت عنوان) Malga Sarracenicaأو مالقه العربية) التي نشرها في المجلة الغرناطية

---

(9) انظر على سبيل المثال Perez de hita: Guerras Civiles de Granada. I, P. LXXVI (Prologo) & Lafuente Alcantara: Historia de Granada III, p. 166 -167 & Fernandez y Gonzalez: Mudejares de Castilla P. 229 1 & Menendez Pidal: Poesia Juglaresca y Juglares (Coleccion Austral, n. 300)

(10) راجع نص رسالة الشقندي في فضل الأندلس في (المقري: نفح الطيب ج 4 ص 177 وما بعدها) راجع كذلك الترجمة الإسبانية لهذه الرسالة تحت عنوان (Al- Saqundi, Elogio del Islam espanol (Risala fi fadl al Andalus) traduccion espanola por Emilio Garcia Gomez (Madrid 1934)

(11) انظر (M. G. Muller: Op. Cit. pp. 1, 13).

(La Estrella de Occidenteنجمة الغرب) في أغسطس 1880. ولقد استفاد من هذه الأبحاث المؤرخ المالقي Robles Guillenجلين روبلس، عندما كتب كتابه المعروف بمالقه المسلمة Malaga Musulmana.

وأخيراً جاء أستاذنا العالم الإسباني المعروف غرسيه غومز E. Garcia Gomez فترجم رسالة ابن الخطيب إلى اللغة الإسبانية وعلّق عليها بمعلومات قيّمة[12] أفدت منها في معظم ما أوردته من حواشي وتعليقات على هذه الرسالة.

أما الرسالة الثالثة التي كتبها ابن الخطيب عن مشاهداته، فهي مقاماته المعروفة باسم (معيار الاختبار في ذكر أحوال المعاهد والديار). وهي عبارة عن وصف لأهم مدن المغرب الأقصى، مع وصف 34 مدينة من مملكة غرناطه، ويتخلل هذا وذاك ذكر محاسن وعيوب كل مدينة.

وقد نشر الجزء الخاص ببلاد غرناطه، المستشرق الإسباني فرنسسكو سيمونيت F Simonet في آخر كتابه المعروف باسم de Granade, (Madrid 1860) Descripcion del Reino أي وصف مملكة غرناطه، أما الجزء الخاص بمدن المغرب فقد نشره جوزيف مولر في كتابه السابق الذكر، مع إضافة تصويبات لأخطاء وقع فيها سيمونيت في الجزء الذي نشره[13]. هذا ولم يحدّد كل من الناشرين تاريخ تأليف هذا الكتاب، بينما يروي ابن الخطيب في كتاب آخر له، أن تدوين معيار الاختبار كان في أثناء المدّة التي قضاها في المنفى بمدينة سلا (760 ـ 763هـ)[14].

الرحلة الأخيرة التي سجّلها ابن الخطيب لم تنشر بعد، وكانت في ربوع المغرب الأقصى في عهد دولة بني مرين. وذلك، كما أشرنا من قبل، عندما عزل سلطان غرناطه محمد الغني بالله بواسطة أخيه إسماعيل في عام

---

(12) انظر E. Garcia Gomez: El Parangon Entre Malaga y Sale, Al Andalus II, 1934 ,fasc. I)).

(13) انظر (M. J. Muller: Op. cit. pp. 47- 98)

(14) انظر (ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب لوحة 67)

760هـ، واضطر إلى الفرار إلى المغرب صحبة وزيره ابن الخطيب وبعض أفراد حاشيته ومماليكه. وقد دوّن ابن الخطيب هذه الرحلة في كتابه المعروف باسم: (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب)[15]

هذا الكتاب يعتبر من مؤلفات ابن الخطيب الجليلة، وقد نصَّ على ذلك هو نفسه في متن هذا الكتاب[16]، وفي بعض مؤلفاته الأخرى[17]، كما أشار بذلك أيضاً بعض المؤرخين القدامى والمحدثين ممن سيأتي ذكرهم فيما بعد إن شاء الله. على أن ابن الخطيب لم يحدّد التاريخ الذي دوَّن فيه كتابه هذا، وقد ورد في كتاب الإحاطة للمؤلف نفسه، عبارة (في آخر لوحة 500)[18] لا أشكُّ أنها من وضع الناسخ، يقول فيها: (... من كتاب نفاضة الجراب لابن الخطيب المذكور رحمه الله، الذي ألَّفه بالعدوة (أي عدوة المغرب) بعد صرفه عن الأندلس واستقراره بالعدوة بآخرة من عمره وقرب وفاته، ولذلك سمَّاه نفاضة الجراب). وواضح من هذه العبارة أن ناسخ الإحاطة يريد أن يقول إن تأليف نفاضة الجراب حدث ببلاد المغرب في الفترة التي بين 773 ـ 776هـ وهي الفترة الأخيرة من حياة ابن الخطيب التي انتهت بمقتله هناك. غير أن شواهد الأمور تدل دلالة قاطعة على أن تأليف هذا الكتاب كان في فترة أخرى متقدمة قضاها ابن الخطيب بالمغرب أيضاً حينما نُفي مع سلطانه المخلوع محمد الغني بالله، وهي الفترة التي بين 760 إلى 763هـ. والأدلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بالآتي:

(أولاً) جميع حوادث هذا الكتاب سواء أكانت تاريخيّة أو أدبيّة أو اجتماعيّة لا تتعدّى نطاق بلاد المغرب في هذه المدّة بالذّات، أو بعبارة

---

(15) مخطوط بالاسكوريال رقم 1755

(16) نفاضة الجراب لوحة 159

(17) الإحاطة ج1، ص237 ـ 239، ج2، ص216 (طبعة القاهرة 1319هـ)، الإحاطة نسخة الاسكوريال لوحات 346، 433، 500، انظر كذلك (اللمحة البدرية في الدولة النصرية ص91).

(18) نسخة الاسكوريال رقم 1673

أخرى، هذا الكتاب يعدُّ بمثابة مذكّرات شخصيَّة للمؤلّف عن المدة التي قضاها منفياً بدولة بني مرين قبل عودته ثانية إلى غرناطه لتسلّم مهام منصبه من جديد.

(ثانياً) ابن الخطيب في كتابه المعروف باسم (اللمحة البدرية في الدولة النصرية) يشير إلى أنه بدأ تدوين هذا الكتاب في منفاه بالمغرب وانتهى منه في أول عام 765هـ، ثم ينصح القارئ بالرجوع إلى كتابه (نفاضة الجراب) للاستزادة من التفاصيل والأخبار[19] وهذا يدل على أن تأليف النفاضه كان قبل عام 765هـ أي خلال الفترة التي أشرنا إليها آنفاً.

هذا عن تاريخ تأليف الكتاب أما عن عدد أجزائه، فابن الخطيب يشير في آخر النسخة التي لدينا، أن الكتاب يقع في ثلاثة أسفار[20] ولكنه يعود فيناقض نفسه في كتاب الإحاطة فيقول: (ونفاضة الجراب في أربعة أسفار جليلة)[21] ولقد أيّد هذا العدد الأخير من جاء بعده من المؤرخين سواء أكانوا قدامى أو محدثين نذكر منهم المقّري في كتابيه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب[22]، وأزهار الرياض في أخبار عياض[23]، كذلك نذكر المستشرق الهولندي دوزي في كتابه عن بنى عباد ملوك إشبيلية[24] وكذلك العالم الإسباني بونس بويجس Pons Boigues في المعجم الذي أفرده للمؤرخين والجغرافيين العرب في إسبانيا[25].

وكيفما كان الأمر في عدد أجزاء هذا الكتاب، فالمهم هنا أن ما وصلنا منه هو جزء واحد فقط وهو الجزء الثاني باعتراف المؤلّف نفسه في آخر

---

(19) انظر (ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص 91، 113، 119)

(20) نفاضة الجراب لوحة 159

(21) الإحاطة في أخبار غرناطة لوحة 433 (نسخة الاسكوريال)

(22) الجزء التاسع ص304

(23) الجزء الأول ص 189

(24) انظر R. Dozy: Loci de Abbadidis. Tome (III.p.167)

(25) راجع Francisco Pons Boigues: Ensayo Bio. Bibliografico sobre Los Historiadores Y Geografos Arabigo. Espanoles p 343)

كتابه إذ يقول: (انتهى، ويليه الجزء الثالث).

والجزء الذي وصلنا نسخة وحيدة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم 1755 وتقع في 159 ورقة من الحجم الكبير، كل ورقة تحتوي على تسعة عشر سطراً مكتوبة بخط مغربي لا يقرأ بسهولة.

وكان الراهب اللبناني الغزيري قد سبق أن أشار في فهرسه المكتوب باللاتينية عن الكتب العربية بالاسكوريال، إلى وجود الجزء الثالث من نفاضة الجراب تحت رقم 1811[26].

ولقد تبعه في هذا الرأي العالم الإسباني بونس بويجس[27] والمستشرق الألماني بروكلمان[28] ثم جاء المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في الجزء الخاص الذي أفرده لكتب التاريخ فقط بالاسكوريال مكملاً في ذلك فهرسة درنبرج Derenbourg فقال: إن نسخة نفاضة الجراب التي تحمل رقم 1811 غير موجودة إطلاقاً، وإن النسخة الموجودة من هذا الكتاب هي التي تحمل رقم 1755 فقط[29]. ثم جاء الراهب الإسباني ملتشور انطونيا Melchor Antuna الذي كان مديراً لمكتبة الاسكوريال ثم قتله الشيوعيون في الحرب الأهلية الإسبانية منذ عشرين سنة، فاستبعد فكرة الغزيري بخصوص الجزء الثالث وقال بأنه من المحتمل جدّاً أن يكون هذا الجزء نسخة مكرّرة للجزء الثاني الموجود حالياً بالمكتبة، خصوصاً وأن وصف الغزيري للنسختين كان واحداً تقريباً[30].

ثم يأتي المدير الحالي لمكتبة الاسكوريال وهو الأب موراتا P.N. Murata فيتكلّم عن هذه النسخة المفقودة التي تحمل رقم 1811، وينفي وجودها نفياً باتاً ويقول إن هذا الرقم لم يوجد بمكتبة الاسكوريال في يوم من الأيام بناء على

---

(26) انظر: Bibliotheca Arabico hispana Escurialensis II. Matriti 1760 - 1770. Casiri

(27) راجع (F. Pons Boigues: OP. cit P 343

(28) انظر (Brock: Gesch der Arab Lit II p 262)

(29) راجع (Levi Provencal: Les Manuscrits Arabes de I Escurial. p 261).

(30) انظر (P.Melchor Antuna; El poligrafo granadion Ibn al jatib. en la Real Biblioteca del Escorial Imprenta del Real Monasterio 1926) و p. 30.31

الجرد الشامل الذي قام به لمختلف السجلات والمخطوطات[31].

وأخيراً وليس آخِراً نذهب إلى دائرة المعارف الإسلامية، فنجد أنها لم تشر إلى كتاب نفاضة الجراب إطلاقاً وذلك في المقال الذي أفرده المستشرق زيبولد Seybold عن ابن الخطيب[32].

ويبدو أن اختفاء هذا الكتاب قد حدث في الفترة التي تلت وفاة ابن الخطيب مباشرة. ولعلّ النكبة التي حلَّت بهذا المؤرخ الكبير، لم تكتفِ بقتله ومصادرة أملاكه، بل امتدَّت أيضاً إلى مؤلَّفاته مّما دعا بعض الناس إلى إخفائها. ويدلُنا على ذلك ما رواه أحد المؤرخين المعاصرين لابن الخطيب وهو الأمير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر[33] يقول:

(ونفاضة الجراب في أربعة اسفار، وهو من أحسن تآليفه، ولم أزل أكثر البحث في هذا التاريخ عنها فلم أقف على عين ولا أثر إلا عدّة أوراق متفرّقة. وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها[34].

وكيفما كان الأمر فالذي ألاحظه جيداً أن المؤرخين المتأخرين أمثال

---

(31) هذه العبارة موجودة بخط يده باللغة الإسبانية على هامش مقال انطونيا السالف الذكر وفي العدد المحفوظ بالمكتب نفسها

(32) انظر (Enc. Islam. Art. Ibn al.Khatib)

(33) هذا الأمير من سلالة بني الأحمر ملوك غرناطه. خدم في بلاط بني مرين بمراكش وتُوفي بفاس سنة 807هـ وقيل في سنة 810هـ كتب مؤلفات عديدة نذكر منها: 1 ـ نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان. 2 ـ البقية والمدرك من شعر ابن زمرك. 3 ـ روضة النسرين في ملوك بني مرين. أما عن الكتاب الأول فلا يزال مخطوطاً وتوجد منه نسخه بدار الكتب المصرية تحت رقم 1863 ـ أدب. أما عن الكتاب الثاني، فلا أعلم عنه سوى ما رواه عنه المقّري في أزهار الرياض ج2 ص 11 ـ 12، أما عن الكتاب الثالث فقد نشره .G. Marcais Gh Bouali: Rawdat En Nissin Paris 1917 ثم عثر ليفي بروفنسال على نسخ أخرى من هذا الكتاب الأخير. انظر Levi Provencal: Deux nouvcau manuscrits de Rawdat an Nisrin d Ibn al Ahmar journal; Asiatique Oct - Dec 1923
نشر كتاب روضة النسرين أخيراً عبد الوهاب بن منصور (الرباط، المطبعة الملكية 1962).

(34) المقّري: أزهار الرياض (ج1، ص 189)

المقَّري وابن القاضي والسلاوي قد استفادوا من هذا الكتاب ونقلوا منه بعض أجزائه مع الإشارة إلى ذلك صراحة. وبمقابلة هذه الأجزاء المنقولة على نسخة نفاضة الجراب التي لدينا، لاحظنا أن جزءاً كبيراً منها منقول منها حرفياً[35]، أما الجزء الآخر فغير موجود أصلاً مما يدل على أن هذا النقل قد جاء من بعض أجزاء الكتاب الأخرى التي تعدُّ الآن في حكم المفقودة[36].

هذا ونلاحظ كذلك أن معظم ما نقله المؤرّخون المتأخرون من نفاضة الجراب التي لدينا كان مقصوراً على بعض القصائد الشعرية والرسائل الأدبيّة. أما النصوص التاريخية فلا زالت جديدة وفي حاجة إلى نشر ودراسة ومن ضمن هذه النصوص التاريخية القيّمة، وصف الرحلة التي قام بها المؤلّف في بعض نواحي المغرب الأقصى خلال فترة منفاه كما سبق أن أشرنا.

---

(35) الواقع أن ما نقله هؤلاء المؤرخون من نسخة نفاضة الجراب التي لدينا، كثير جداً خصوصاً ما ورد منها في كتاب نفح الطيب للمقَّري، بحيث يضيق المقام هنا عن حصرها. ولهذا آثرت أن أشير إلى ذلك في حينه عند نشر النص ذاته.

(36) أورد المقَّري في نفحه (ج8، ص316 ـ 319) وصفاً قيماً لمدينة مكناسة الزيتون مشيراً إلى أنه من كتاب نفاضة الجراب. غير أننا بعد مراجعة هذا النص على النسخة التي لدينا لم نجده مدرجاً فيها. وفي موضع آخر من نفح الطيب (ج7، ص271) تكلّم المقَّري عن قاضي مدينة مكناسة أبو محمد عبد الخالق بن سعيد بن محمد، وقال إن ابن الخطيب ذكره في نفاضة الجراب، وقال إنه لقيه بمكناسة الزيتون عام 761هـ. ولكنّني بعد المراجعة أيضاً لم أجد ذكراً لاسم هذا القاضي في النسخة التي معي. كذلك كان الحال بالنسبة لابن القاضي في كتاب جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام بمدينة فاس حيث أورد في ص 78 ترجمة وشعراً للعالم المكناس أحمد بن محمد ابن إبراهيم الأوسي كما أورد في ص111 ترجمة للفقيه الحسن بن عثمان التجاني وذلك نقلاً عن نفاضة الجراب، ولكنّني بعد البحث أيضاً لم أجد هذه الترجمات وإلى جانب ذلك فهناك شعر كثير نظمه ابن الخطيب بمدينة فاس في ذلك الوقت وأورده المقَّري في نفح الطيب نقلاً عن نفاضة الجراب ولكنّني لم أجد له ذكراً في النسخة التي لدينا. انظر (نفح الطيب ج8، ص 178، ج10، ص160 ـ 161).

كل ما تقدم يتضح لي أن المقري نقل الكلام السابق الذكر من الجزء الأول (المفقود) من نفاضة الجراب حيث يصف ابن الخطيب بداية رحلته من العاصمة فاس ثم يتجه جنوبا إلى مدينة مكناسه عام 761هـ حيث يتصل بعلمائهما، ثم يواصل رحلته جنوباً إلى أن يصل إلى جبل هنتاته في إقليم أطلس وهو بداية الجزء الثاني الذي وصل إلينا.

وإني أقتصر الآن على نشر هذا النص فقط حرصاً على وحدة الموضوع، راجياً أن أتمكن في المستقبل من نشر بقيّة النصوص على شكل دراسات تاريخية مستقلة، إن شاء الله.

أما بخصوص هذه الرحلة، فتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن الخطيب كان يعتبر الكتاب كلّه رحلة بل إنه كان يسميه في بعض الأحيان كتاب الرحلة[37] والواقع أن إطلاق كلمة رحلة على جميع أجزاء الكتاب فيه شيء من المبالغة والتعميم لأن الكتاب، كما هو واضح من عنوانه (نفاضة الجراب)، عبارة عن خليط عجيب من النثر والشعر والتاريخ. أما وصف الرحلة في حدّ ذاته فيقع في الواحد وعشرين ورقة الأولى من هذا المخطوط.

ويُلاحظ من بداية هذا الوصف أن الرحلة ناقصة غير كاملة. إذ إنه يبدأ، وبدون مقدّمات، بالصعود إلى جبل هنتاته، وهو جبل ناء بمنطقة جبال أطلس. فلا شكّ أن بداية هذه الرحلة تقع في الجزء الأوّل المفقود من هذا الكتاب.

ومهما يكن من شيء، فالنص الذي لدينا يبدأ كما قلنا بصعود ابن الخطيب إلى جبل هنتاته نسبة إلى قبيلة هنتاته (بكسر الهاء أو فتحها) التي كانت تسكنه، وهي فرع من قبائل مصموده الضاربة في غرب إقليم أطلس[38].

وفي هذا الجبل يصف ابن الخطيب المكان الذي تُوفي فيه السلطان المريني أبو الحسن علي، بعد أن ثار عليه ابنه أبو عنان فارس. كذلك يصف معيشة شيوخ قبيلة هنتاته وأنواع المآكل والمشارب التي قدّموها له، وهو وصفٌ على جانب كبير من الأهمية.

---

(37) ابن الخطيب: الإحاطة لوحة 346 (نسخة الاسكوريال)

(38) انظر (J. Leon Africano: Descripcion de Africa p. 10, Tetuan 1952)

(39) انظر: E Garcia Gomez. EL supuesto Sepulcro de Mu tamid de Sevilla en Agmat: AL Andalus)XVIII.1953)

ويواصل ابن الخطيب رحلته إلى مدينة أغمات، وهنا يتكلّم عن محاسن هذه المدينة وسذاجةِ أهلها وعن شخصياتها وآثارها. ومن بين ما ذكره عن مسجدها ومئذنته المخروطية الشكل وهو نصّ عظيمُ الأهميةِ من الناحية المعمارية الأثرية. وقد زار ابن الخطيب في هذه المدينة قبر[39] الملك الشاعر المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وأحد ملوك الطوائف الذي نفاه المرابطون إلى هذا المكان بعد أن استولوا على الأندلس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وقد مدحه الخطيب بقصيدة جميلة نشرها وترجمها المؤرخ الهولندي المعروف دوزي ضمن النصوص التي قدَّمها عن أسرة بني عباد[40].

بعد ذلك يعود ابن الخطيب إلى مدينة سلا مارّاً في طريقه بمدن مختلفة مثل دكاله وأزمور وآسفي ومراكش. فأخذ يصف هذه المدن وما فيها من مساجد ومدارس ومكتبات وجبّانات، كما أشار إلى من اتصل به من علمائها وشيوخها. وأخيراً ينتهي به المطاف إلى مدينة سلا Sale على ساحل المحيط الأطلنطي بأقصى المغرب. وهناك استقرَّ ابن الخطيب في ضاحيتها المعروفة باسم شاله Chella حيث الجبَّانة الملكية لبني مرين[41].

يقول المقَّري في هذا الصدد: (وفي شاله سلا رابط ابن الخطيب بجوار أضرحة ملوك بنى مرين سائلاً لهم من المولى عزَّ وجلَّ الرحمة والغفران)[42].

ولقد عاد عليه هذا العمل بخير جسيم، إذ تفضَّل السلطان المريني أبو سالم فأمر بأن يصرف له من مجبي مدينة سلا مرتَّب شهري له ولولده مبلغ خمسمائة دينار، وأن يُعفى من كل مغرم أو ضريبة، وأن يرفع الاعتراض فيما يجلب له من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه فيما يستفيد خدامه من عنب وقطن وفاكهة وخضر. . الخ[43].

---

(40) انظر (R. Dozy Loci de Abbadidis T. II. PP 222 - 223)

(41) (Henri Basset et Levi Provencal: Ghella: Une necropole merenide p 157 Paris 1922)

(42) المقري: نفح الطيب (ج8، ص 322)

(43) المقري: نفح الطيب (ج8، ص 117 ـ 118)

وهكذا تنتهي رحلة ابن الخطيب، ونلاحظ أن أسلوبه الكتابي فيها، وفي كتاب نفاضة الجراب بصفة عامّة، يختلف عن أسلوب رحلاته الأخرى، بمعنى أنه لم يتّخذ طابع فن المقامات المعروف بالسجع والتقفية، بل كان كلاماً مُرسلاً جزلاً في غالب الأحيان[44] غير أن أسلوب ابن الخطيب، سواء في هذا أو ذاك، نراه بصفة عامّة بادي التكلّف، مليئاً بالصنعة اللفظية والمحسنات البديعيّة التي كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

هذا وقبل أن نختم الكلام في هذا الموضوع، ينبغي أن نشير إلى أن ابن الخطيب كان يزمع القيام برحلة إلى بلاد المشرق لتأدية فريضة الحج والاتصال بالأوساط العلميّة فيها. غير أن أعباء منصبه ـ كما يقول هو ـ قد حالت دون تحقيق مآربه. إلا أن ابن الخطيب قد نفَّس عن هذه الرغبة المكبوتة بأن أرسل ابنه أبا الحسن علي إلى المشرق ليأخذ العلم على علماء عصره هناك، كما أرسل كتبه[45] وأمواله[46] إلى القاهرة ليستفيد بها طلبة العلم هناك.

وبعد فمثل هذه الروح النشطة، والحيويّة المتدفقة، ثم هذه الدقّة في الملاحظة التي امتازت بها جميع أوصافه ومشاهداته، تدلّ جميعاً على أن ابن الخطيب رحّالة من الطراز الأول.

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أوجّه خالص شكري إلى صديقي الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني، إذ تفضّل بمراجعة بعض نصوص هذا الكتاب مبدياً من الملاحظات والنصائح ما دلّ على غزارة علمه وسموّ أخلاقه.

أحمد مختار العبادي

الإسكندرية يناير 1958

---

(44) المقري: نفح الطيب (ج8، ص 316)

(45) ومثال ذلك كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة وكتاب روضة التعريف بالحب الشريف. والأول لازالت توجد منه نسخة برواق المغاربة بالأزهر والثاني موجود بالمكتبة الظاهرية بدمشق راجع كذلك (المقّري: نفح الطيب ج10، ص 164 ـ 165)

(46) انظر (المقري: نفح الطيب ج9، ص311)

مسار الرحلة

الرسالة الأولى

خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف

* الخروج من غرناطة (Granada) يوم الأحد 17 محرم 748هـ 1347م

* مدينة وادي آش (Guadix) في شمال شرق غرناطة

* بسطة :	Baza
* برشانة :	Purchena
* بَيْرَه :	Vera
* ثغر المرية :	Almeria
* بجانة :	Pechina
* مرشانة :	Merchena
* فنيانة :	Finiana
* وادي آش :	Guadix
* غرناطة :	Granada

الرسالة الثانية

مفاخرات مالقة وسلا — **El Parangon entre Malaga y Sale**

* مفاضلة بين المدينتين.

الرسالة الثالثة

الاختبار في أحوال المعاهد والديار

* وصف مدن المغرب الأقصى و34 مدينة في مملكة غرناطة

الرسالة الرابعة

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب

* جبل هنتاته	Hintata mountain
* مدينة أغمات	Agmet
* دكالة	Dokakla
* أزمّور	Azammur
* آسفي	Safi
* مراكش	Marruecos
* سلا	Sale

الرسالة الأولى

خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه
خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف
للكاتب والأديب الناظم الناثر ذي الوزارتين
أبي عبد الله بن الخطيب
تغمّده الله برحمته بمنّه وكرمه(47)(48)

(لوحة 51) نحمد الله حمد معترف بحقه، ونشكره على عوائد فضله ورفقه، الذي جعل لنا الأرض ذلولا نمشي في مناكبها، ونأكل من رزقه،

---

(47) تتفق نسخة المخطوط رقم 470 التي رمزنا لها بحرف (أ) مع نسخة الريحانة (ب) في عباراتها ومعانيها وروحها مما لا يثير شكاً في أن المؤلف واحد وهو ابن الخطيب كما نصّت على ذلك كلتا الرسالتين. على أننا نلاحظ اختلافاً بين النسختين في بعض الألفاظ والعبارات، كما نلاحظ أن نسخة (أ) رغم كونها مجهولة الناسخ تحتوي على فقرات أكثر من نسخة (ب) ولهذا اتخذناها أصلاً للنشر وإن كانت هي الأخرى لم تسلم من الألفاظ المحرّفة. هذا وقد بيّنا في الحواشي ما ورد في النسختين من فروقات وأخطاء

(48) هذا العنوان كما ورد في (ا) وهو أكمل وأوفى من (ب) حيث اقتصر على الصيغة التالية: (ومن ذلك المقامة المسماة بخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف) هذا وينبغي أن نشير أن كلاً من حاجي خليفة وبونس بويجس لم يشيرا إلى هذه الرسالة أصلاً، كما لم يشر إليها ابن الخطيب نفسه ضمن مجموعة مؤلّفاته التي نصّ عليها في كتابيه الإحاطة، ونفاضة الجراب.

ونصلي على سيدنا ومولانا محمد خيرته من خلقه، ونستوهب للمقام المولوي اليوسفي النصري سعداً يتلألأ نور أفقه، ونصراً يتلى بغرب المعمور وشرقه. (ونقول)[49].

وقائلة صف لي فديتك رحلةً   عنيت بها يا شقّة القلب من بعد

فقلت خذيها من لسان بلاغة   كما نُظّمَ الياقوتُ والدُّر في عقد

لما وقع العزم الذي وفّقه[50] الله على مصالح هذه الجزيرة، والقصد المعرب عن كريم العقيدة وفضل السريرة، على تفقد بلادها وأقطارها، وتمهيد أوطانها، وتيسير أوطارها، رأى من قلّده الله أمورها، ووكل إلى حمايته ثغورها، مولانا وعصمة ديننا ودنيانا أمير المسلمين وظلّ الله على العالمين أبو الحجّاج[51] بن مولانا أمير المسلمين وكبير الملوك العادلين[52] الصالحين أبي الوليد[53] إسماعيل بن[54] مولانا الهمام الأعلى، الذي تروى مفاخره وتتلى، أبي سعيد[55] حفظ الله منه على الأيام بحر الندى، وبدر المنتدى، وسابق الفخر البعيد المدى[56] وشمله برواق عصمته كلّما راح واغتدى، أن يباشرها بنفسه، ويجعل آفاقها مطالع شمسه، نظراً للإسلام وقياماً بحقّه، وعملاً على ما يقرّبه ممّن استخلفه على خلقه، في وجهة خالفها الغمام المنسجم[57]، وقصبة[58] قضى لها بالسعد من لا ينجم[59]، فكان البروز إليها[60] يوم

(49) زيادة عن (ب)
(50) في (ب) وقفه والمتن أصح
(51) سقط هذا الاسم في (أ)
(52) في (ب) المجاهدين.
(53) (أبي) ساقطة في (أ).
(54) في (ب) (ابن).
(55) في (أ)، سعيد بن نصر.
(56) ساقطة في (أ).
(57) في (ب) المثجم.
(58) كذا في (ا)، (ب) وقد كتبها مولر (ونصبه).
(59) كذا في (ا)، (ب) وكتبها مولر ينحجم.
(60) لها في (ا)

الأحد سابع عشر (شهر)[61] المحرم فاتح عام ثمانية وأربعين وسبعمائة.

خرجنا وصفحة الأفق بالغيم منتقبة[62] وأدمع السحب لوداعنا منسكبة نتبع من الراية الحمراء دليلاً هادياً، (وتغترف من وجهتنا الجهادية سناء بادياً)[63] ونثق بوعد الله سبحانه في قوله ولا يقطعون وادياً. وسلكنا جادّة الماء المفروش نسرّح اللحاظ بين تلك العروش، ونبتذل[64] ما نحلته عروش الربيع من تلك الفروش، ومن له بالحضرة حرسها الله شوق حثيث، وهوى قديم وحديث، يكثر الالتفات، ويتذكّر لما فات ويبوح بشجنه، وينشد مشيراً إلى سكنه.

يوم أزمعتُ عنك[65] طي البعاد وعدتني عن (الوداع)[66] العوادي
قال صحبي وقد أطلت التفاتي أي شيء تركت قلتُ فؤادي

وربما غلبته لواعج أشواقه، وشبّت زافراته عن أطواقه، فعبَّر عن وجدِهِ، وخاطب (الحضرة)[67] معرباً عن حسن عهده:

ألا عم صباحاً أيها الربع واسلم ودم في جوار الله غير مذمم
ولا عدمت أرجاؤك النور إنها مطالع أقماري وآفاق أنجم[68]
إذا نسى الناسُ العهود وأغفلوا فعهدك في قلبي وذكرك في فم[69]
وإني وإن أزمعت عنك لطية وقوضت رحلي عنك دون تلوّم
فقلبي لك البيت العتيق مقامه وشوقي إحرامي ودمعي زمزم

ثم استقلّت بنا الحمول، وكان بوادي فردس[70] النزول، منزل خصيب

(61) زياده عن (ا).
(62) في (ب)متنقبه.
(63) هذه العبارة لم ترد في (ب).
(64) وردت في النسختين ونبتدل وصحّتها كما في المتن.
(65) كذا في (ب) وفي الأصل طوع.
(66) كذا في الأصل وفي (ب) البعاد.
(67) في (ا) المعاهد.
(68) في (ب) انجمى.
(69) في (ب) في.
(70) Rio Fardes، وقد وردت في (ب) (فرذس) والمتن أصح

ومحل له (من)[71] الحسن نصيب. ولما ابتسمَ ثغر الصباح، وبشَّرت بمقدمة نسمات الرياح، الغينا[72] عمل السرّاج إلى الاسراج، وشرعنا في السير الدائب، وصرفنا إلى وادي آش[73] صروف الركائب. واجتزنا بوادي حَمّتها[74]، وقد متع النهار، وتأرجت الأزهار، فشاهدنا به معالم الأعلام، وحيّينا دار حمدة بالسلام، وتذاكرنا عمارة نواديها، وتناشدنا قولها في واديها:

أباح الشوق أسراري بوادي ... له في الحسن آثار بوادي
فمن وادٍ يطوف بكل روض ... ومن روضٍ يطوف بكل وادي
ومن بين الظباء مهاة رمل ... سبت قلبي وقد ملكت فؤادي
لها لحظ ترقّده لأمر ... وذاك الأمر يمنعني رقادي
كأن البدر مات له شقيق ... فمن حزن تسربل بالحداد[75]

واستقبلنا البلدة حرسها الله في تبريز سلب الأعياد احتفالها، وغصبها حسنها، وجمالها نادي بأهل المدينة، موعدكم يوم الزينة، فسمحت الحجال برباتها، والقلوب بحبّاتها، والمقاصر بحورها، والمنازل ببدورها. فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب وتدافع البدور بالصدور بيضاء كأسراب الحمائم،

ملتفعات بروضهن تلفع الأزهار بالكمائم[76]، حتى (إذا)[77] قضى القوم من سلامهم على إمامهم فرضاً، واستوفينا[78] أعيانهم تمييزاً وعرضاً،

---

(71) في (ا) عن

(72) كذا في (ا، ب) وقد قرأها مولر القينا

(73) مدينة وادي آش أو وادي إيش واسمها القديم Acci وتعرف اليوم باسم Guadix وتقع هذه المدينة على نهر فردس على مسافة 53 ك.م شمال شرق غرناطه. راجع (الحميري: الروض المعطار ص192 ـ 193، نشر ليفي بروفنسال 1937) انظر كذلك P.189 Seybold,Enc Isl. II.

(74) Rio Alhama

(75) هذا البيت زيادة عن (ب)

(76) وردت هذه العبارة في (ب) : متنقبات تنقب الأزهار بالكمايم.

(77) الزيادة عن (ب)

(78) في (1)، واستوفى.

خيَّمنا ببعض (رباها[79] المطلة)[80]، وسرحنا العيون في تلك العمالة المغلة، والزروع المستغلة، فحباها الله من بلدة (أنيقة)[81] الساحة، (رحبة المساحة)[82]، نهرها مطرد، وطائرها غرد، تبكي السحاب فيضحك نورُها ويدندن النسيم فترقص[83] حورها.

بلد أعارته الحمامة طوقها ... وكساه حسن جناحه الطاووس[84]

فكأنما الأنهار فيه مدامة ... وكأن ساحات الديار كؤوس

معقلها بادي الجهامة[85]، تلوح عليه سمة الشهامة، نفقت سوق النفاق دهراً، وخطبها الملوك فلم ترض إلا النفوس مهراً، طالما تعرفت وتنكرت، وحجتها نعم الأيالة النصرية فأنكرت، ومسّها طائف من الشيطان ثم تذكرت، فالحمد لله الذي أن[86] هداها بعد أن تبت يداها، فجفَّ من فتنتها ما نبع، وانقادت إلى الحق والحق أحق أن يتبع، وتنافس أهلها في البر الكفيل، والقرى الجميل[87] فبتنا نثني على مكارمهم الوافية، وفواضلهم (الكافية)[88] ولم نحفل بقول (ابن)[89] أبي العافيه: (54)

إذا ما مررت بوادي الأشا ... فقل رب من لدغة سلم

وكيف السلامة في منزل ... فيه[90] عصبة من بنى أرقم

ولّما فاض نهر الصباح على البطاح ونادى منادي الصلاة على الفلاح،

---

(79) كذا في (ب) وقد وردت في (1) : ربما المطلت.
(80) كذا في (ب) وقد وردت في (1) : ربما المطلت.
(81) كذا في (ب) وفي (أ) أنيقيه.
(82) الزيادة عن (ب).
(83) في (ب) فيرقص.
(84) في (ب) : وكساه ريش جناحه الطاووس.
(85) كذا في النسختين وقرأها مولر الجمامة.
(86) في (ب) : الذي هداها.
(87) كذا في الأصل وفي (ب) الحفيل وهي أحسن
(88) الزيادة عن (ب)
(89) الزيادة عن (ب)
(90) في (ب): به، وهي أصح لاستقامة الوزن معها.

قدمنا الرواحل[91] لارتياد منزل، وقمنا[92] عن اتباع آثارها بمعزل نظراً للمدينة في مهمات الأمور. وكان اللحاق بغور[93]، من بعض تلك الثغور، أتيناها والنفوس مستبشرة، والقباب لأهلها منتظرة، فحمدنا الله على كمال العافية، وقلنا في غرض تجنيس القافية:

ولما اجتلينا من نجوم قبابنا   سنا كل خفاق الرواق بغور
زرينا على شهب السماء بشهبها   متى شئت يازهر الشواقب غور[94]

أطلتنا بها ليلة شاتية، والحفتنا أنواء الأرض مراثية[95] فلمّا شاب مفرق الليل، وشمَّرت[96] والآفاق من بزّتها العبَّاسيَّة[97] فضول الذيل، بكرنا نغتنم أيام التشريق، وندوس بأرجلنا حيَّات الطريق. وجزنا في كنف اليمن والقبول بحصن الببول[98]، حسنة الدولة (اليوسفية)[99]، وإحدى اللطائف[100] الخفية، تكفل الرفاق بمأمنها، وفضح سرية العدو في مكمنها من أبيض كالغارة[101] ضمن الفوز في تلك المفازة[102] فحيَّيناه بأيمن طير وتمثلنا عنده[103] بقول زهير:

وسكنتها حتى اذا هبّت الصبا   بنعمان لم تهتز في الأيك أغصان
ولم تك[104] فيها مقلة تعرف الكرى   فإن[105] زارها طيف مضى وهو غضبان

---

(91) كذا في (ا) وفي (ب) قمنا للرواحل
(92) في (ب) وأقمنا
(93) Gor
(94) في (ب) غورى.
(95) في (ب): وألحقتنا أنواء الأرض مؤاتيه
(96) كذا في (ا، ب) وقرأها مولر وشهرت
(97) يقصد السواد شعار العباسيين
(98) Baul
(99) كذا في (ب) بينما وردت في (ا) التاسفيه والمتن أصح
(100) في (ا) الطائف
(101) في (ا) كالفاره
(102) في (ب) المغاره
(103) في (ا) عندها
(104) في (ب) يك
(105) في (ب) فلو

وكان ملقى الحران منابت الزعفران بسطة[106] حرسها الله، وما بسطة محل خصيب، وبلدة لها من اسمها نصيب، بحر الطعام، وينبوع العيون المتعدّدة بتعدّد أيام العام. ومعدن ما زيّن للناس حبّه من الحرث والأنعام. يالها من عقيلة، صفحتها صقيلة، وخريدة، محاسنها فريدة، وعشيقة (نزعاتها)[107] رشيقة، لبست حلي[108] الديباج الموشى، مفضّضة بلجين الضحى، مذهّبة بنضار العشا[109]، وسفرت عن المنظر البهي، وتبسّمت عن الشنب الشهي وتباهت بحصونها مباهاة الشجرة الشمّاء بغصونها، فوقع النفير وتسابق إلى لقائنا الجم الغفير، مَثُل الفرسان صفاً، وانتشر الرَّجل جناحاً ملتفاً[110]، واختلط الوالدان بالولائد، والتمائم بالقلائد في حفل سلب النهى[111] وجمع البدر والسهى، والضراغم والمها، وألّف بين القاني والفاقع، وسدَّ بالمحاجر كوى البراقع، فلا أقسم بهذا البلد وحسن منظره الذي يشفي من الكمد لو نظر الشاعر إلى نوره المتألق لآثرها بقوله في صفة بلاد جلّق:

بـلاد بهـا الحـصـبـاءُ درٌ وتُـرْبُهـا　　　عـبـيرُ وأنـفـاسُ الـريـاح شـمـولُ
تـسلـسل منـهـا ماؤهـا وهـو مطـلـقٌ　　　وصـحّ نـسـيـمُ الـروضِ وهـو عـليلُ

رمت إلى غرض الفخر بالسهم المصيب، وأخذت من أقسام الفضل بأوفى نصيب، وكفاها بمسجد الجنّة دليلاً على البركة، وبباب المسك عنواناً على الطيب يغمر من القرى موج كموج البحر. إلا أن الرياح لاعبتنا ملاعبة الصراع، وكدّرت القرى بالقراع، فلقينا من الريح ما يلقاه قلب المتيّم من التبريح، وكلّما شكت إليها المضارب شكوى الجريح، تركتها بين المائل والطريح.

---

(106) بسطة وهي مدينة Basti القديمة وتعرف اليوم باسم Baza وتقع في شمال شرق غرناطه بنحو 123 ك.م ويروي صاحب الروض المعطار ص45 أن هذه المدينة كانت مشهوره بمنتجاتها الزراعية ولا سيما الزيتون، وبمنسوجاتها الحريرية وينسب إليها الوطاء البسطي من الديباج الذي لا يعلم له نظير

(107) كذا في (ب) وفي (ا) نزعتها

(108) في (ب) حلة

(109) العسي في (ا)

(110) في (ا) متلفا

(111) في (ا) النها.

ولمّا توسط الواقع، والتقمت[112] أنجم الغرب[113] المواقع، صدقتنا[114] الريح الكرّة، وجادتنا الغمائم[115] كل عين ثرّة[116]، حتى جهلت الأوقات، واستراب الثقات، فتستر الفجر بنقابه، وانحجز[117] السرحان في غابه، وكان أداء الواجب بعد خروج الحاجب، وارتحلنا[118] وقد أذن الله للسماء فأصحت، وللغيوم فتنحت[119]، وللريح فلانت بعد ما ألحت، وساعد التيسير، وكان على طريق قنالش[120] المسير، كبرى بناتها وشبيهتها في جداولها وجنّاتها، ما شئت من أدواح توشّحت بالنُّور وتتوجت وغدران زرع هبَّت عليها الصبا فتموَّجت، سفر بها الشقيق الأرجواني عن خدود الغواني، فأجلنا العيون في رياض، وتذكّرنا قول القاضي عياض:

انظر إلى الزرع وخاماته يحكـ ... ـي وقد ماس أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة ... شقائق النعمان فيها جراح

مثل أهلها فسلموا، ومن عدم النزول بهم تألّموا. وأتينا فحص الأنصار فتجدَّدت له ملابس المجادة، وتذكر عهود من حل به عند الفتح الأول من السادة، ولمّا خفقت به راية سعد بن عبادة[121] ولم تزل الركائب تفلي الفلاة فرى الأديم، وأهلة السنابك صيَّرها السير كالعرجون القديم، حتى ألحفتنا شجرات المصنبر بشذاها المعنبر[122] وراقتنا بحسن ذلك المنظر سوارٍ مصفوفة،

---

(112) في (ا) والتقحت

(113) في (ب) العرب

(114) في (ب) صدقت

(115) في (ب) الغمام

(116) ثره أي الماء الغزير وردت في (ا) طره وفي (ب) تره ولعلّ صحتها كما في المتن

(117) في (ب) وانحجر

(118) وقد ارتحلنا زيادة في (ا)

(119) في (ب) فشحت

(120) وهي الآن Canales انظر (Simonet: op. cit. p. 134)

(121) سعد بن عبادة رئيس قبيلة الخزرج وزعيم الأنصار بالمدينة المنورة على عهد الرسول (صلعم) وصاحب سقيفة بني ساعده التي تمت فيها بيعة أبي بكر الصديق بالخلافة. وينتمي إليه بنو الأحمر ملوك غرناطه.

(122) في (ب) العنبر

وأعلام خضر ملفوفة، ونخل يانعة البسوق، وعذاري كشفت[123] حللها[124] الخضر عن السوق، كأنها شمَّرت الأذيال[125] لتعبر الوادي، على عادة نساء البوادي، ينساب بينها الزلال المروَّق، ويغنّي فوقها الحمام المطوَّق، فتهيج الجوي وتجدد عهود الهوى[126]، صبّحتنا بها أصوات تلك القماري، وأذكرتنا قول ابن حصن الحِجَاري:

وما راعني إلا ابن ورقاء هاتف ... على فنن بين الجزيرة والنهر
أدار على الياقوت أجفان لؤلؤ ... وصاغ على المرجان طوقاً من التبر
حديد شبا المنقار داج كأنه ... شبا قلم من فضة مد في حبري[127]
توسد من عود[128] الأراك ... ومال على طي الجناح مع الفجر[129]
ولما رأى دمعي مراقاً أرابه ... بكائي فاستولى على الغصن النضر
وحث[130] جناحيه وصفّق طائراً ... فطار بقلبي حيث طار ولا أدري
(مفستق طوق الأزودي كلكل ... موشى الطلى إحدى القوادم والظهر)[131]

ونزلنا بظاهر حصن شيرون[132]، وقد ترعرع شباب اليوم، وطالبنا غريم الظهيرة بمنكسر فرض النوم، حصن أشم، ومناخ لا يذم. نزلنا الهضبة بإزائه، وغمرنا من برّه ما عجزنا عن جزائه، وعثرنا بين المضارب، ببعض العقارب، سود الرؤوس، متوّجة بأذنابها في شكل الطاووس، فتلقينا ذلك بسعة الصدر وقلنا العقرب من منازل البدر. ورحلنا بمثل تلك

---

(123) في (ا) كسفت
(124) في (ا) حلاها
(125) في (ا) الأديال
(126) في (ب) النوى
(127) في (ب) تبر
(128) في (ب) فوق.
(129) في (ب) الصدر.
(130) في (ا) وحتى
(131) هذا البيت لم يرد في (ب)، وكلكل لعللها مكلل.
(132) Seron

الصورة، نلتحف ظلال وادي المنصورة(133)، سمر الأندية، وسلطان الأودية. يالها من أرائك مهدّلة السجوف(134)، وجنّات دانية القطوف، ينساب بينها للعذب الزلال، أرقم سريع الانسلال(135)، وصارم(136) يغمد في جفون الظلال، يتلاعب بين أيدينا شمالاً ويميناً، فطوراً عصباه ثعباناً، وآونة تنعطف(137) صولجاناً، وتارة تستدير أفلاكاً، وربّما نَسجتْ منه أيدي الرياح شباكاً(138)، وأم حسن فيه ذات لسن، تبعث بنغماتها لواعج الشجون(139)، وتقيم دين ابنها(140) في الخلاعة والمجون. وسرنا ودر الحصى بساط الأرجل ركابنا، ودنانير أبي الطيب تنثر فوق أثوابنا، ترقب نجوم القلاع والحصون، من خلل سحاب الغصون. والنساء(141) إلى مشاهدة التبزير قد حَفَّت، وبشاطئ الوادي قد صفَّت، قد أبرزن(142) الثنايا (ببروق الثنايا)(143)، وسددن سهام المنايا، عن حواجب كالحنايا، يشغلن (58) الفتى(144) عن شؤونه، ويسلبن الروض لين . . .مونه، هذا(145) خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه.

وطالعنا بُرْشَانة(146) حرسها الله، فحيَّتنا ببواكر الورد، ونضت عنّا برود

---

(133) وادي المنصوره: Guadalmanzor ، Rio de Almanzor ويسميه العرب أيضاً وادي بيره لأنه يصب مياهه في البحر المتوسط عند بلدة بيره Vera انظر (Simonet: Descripcion del reino de Granada p. 111)

(134) السحوف في (ا)

(135) الاشلال في (ا)

(136) وسارم في (ا)

(137) تتعطف في (ب)

(138) شياكا في (ب)

(139) الشؤون في (ب)

(140) ولدها في (ب)

(141) النسوان في (ب)

(142) احرن في (ب)

(143) الزيادة عن (ب)

(144) العتا في (ب)

(145) ساقطة في (ا)

(146) برشانة Purchena، حصن هام في ولاية المرية ويقع على نهر المنصورة السالف الذكر. هذا وينبغي الإشارة إلى وجود مكان آخر بهذا الاسم في ولاية جَيّان راجع (الروض المعطار ص 52 حاشيه1)

البرد، وشملتنا بالهواء المعتدل، وأظلتنا برواقها المنسدل. بلد أعيان وصدور، ومطلع نجوم وبدور، وقلعة سامية الجلال، مختّمة بالكواكب متوّجة بالهلال. حللناها في التبريز الحفيل، والمشهد الجامع بين الذرة[147] والفيل، حشر أهلها بين دانٍ ونازح، ومثل حاميتها من نابل ورامح، فكان ذلك المجتمع عيداً، وموسماً سعيداً[148]، وبتنا في ليلة للأنس جامعة، ولداع السرور سامعة. حتى إذا الفجر تبلَّج، والصبح من باب المشرق تولَّج، سرنا وتوفيق الله قائد، ولنا من عنايته صلة وعائد، تتلقى ركابنا الأفواج، وتحيّينا الهضاب والفجاج إلى قتّوريه[149]، (حرسها الله)[150]، فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال، قريبة البكر من الآصال. كان المبيت بإزاء قلعتها السامية الارتفاع، الشهيرة الامتناع، وقد برز أهلها في العديد والعدّة، والاحتفال الذي قدم به العهد على طول المدّة، صفوفاً بتلك البقعة، خيلاً ورجلاً كشطرنج الرقعة، لم يتخلَّفْ ولد عن والد، وركب قاضيها ابن أبي خالد[151]، وقد شهرته النزعة الحجازية، ولبس من حسن الحجى زية[152]، وأرمى من البياض طيلساناً وصبغ لحيته بالحناء والكتم، ولاث عمامته واختتم، والبداوة تَسِمه على الخرطوم، وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمل المخطوم، فداعبته مداعبة الأديب للأديب، وخيَّرتُهُ بين خصلتي الذيب، وقلتُ نظمتُ مقطوعتين إحداهما مدح والأخرى قدح، فإن همت ديمتك وكرمت شيمتك فللذين أحسنوا الحسنى وإلا فالمثل الأدنى.

---

(147) الدره في (ا)

(148) هذه العبارة زيادة عن (ب)

(149) كذا، وترد أيضا باسم قنتوريه وهو الأصح، واسمها حاليا Cantoria، وتقع في جنوب برشانه وعلى نهر المنصورة أيضا

(150) زيادة عن (ب)

(151) راجع ترجمته في (المقّري: نفح الطيب ج3، ص 285 ـ 278)

(152) في (ا، ب) وفي مولر كتبت الحجازيه، غير أن المعنى يستقيم كما كتبناها في المتن على أساس كلمتين. وكما كتبها ابن الخطيب نفسه في موضع آخر. راجع (نفاضة الجراب ورقة 18)

فقال أنشدني لأرى على أي الأمرين أثب، وأفرق بين ما أجتني (وما)[153] أجتنب، فقلت:

قالوا وقد عظمت مبرّة خالد قاري الضيوف بطارف وبتالد
ماذا أتمتّ[154] به فجئت بحجة قطعت بكل مجادل ومجالد
إن يفترق نسب يؤلف[155] بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وأما الثانية فيكفي من البارق شعاعه، وحسبك من شر سماعه، ويسير[156] التنبيه كافٍ للنبيه. فقال: لست إلى قراي بذي حاجة، وإذا عزمت فأصالحك على دجاجة، فقلت: ضريبة غريبة، ومؤونة قريبة، عجِّل ولا تؤجِّل، وإن انصرم أمد النهار فأسجل. فلم يكن إلا كلا ولا، وأعوانه من القلعة تنحدر، والبشير منهم بقدومها يبتدر، يزفُّونها كالعروس فوق الرؤوس، فمن قائل أمها البجابيّه، وقائل أخوها الخصي الموجه إلى الحضرة العليّه. وأدنوا مربطها من المضرب عند صلاة لمغرب، والحفوا في السؤال وتشطَّطوا في طلب النوال فقلت يا بني اللكيعة، ولو جئتم ببازي بماذا كنت أجازي، فانصرفوا وما كادوا يفعلون، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون حتى إذا سُلَّتْ لذكاتها الُمدى، وبلغ من عمرها المدى، قلت: يا قوم، ظفرتم بقرَّة العين، وابشروا باقتراب اللقاء فقد ذبحت لكم غراب البين. وكانت البلاد الشرقيّة قد أخلفتها الغيوث وعدت عليها للعدو الليوث، فحيتنا على الشحط، وشكت إلى سعادة مقدّمنا معرّة القحط. فظهرت مخيلة السعد، فأذن الله في إنجاز الوعد، وقرَّبت غريم الغمائم[157] في المقام أعوان الرعد، فاعترف(60) وسمح وانقاد لحكم القضاء بعد ما جمح. ولم يسلم[158] بكيف ولا حتى، وقضاها

---

(153) ما الثانية زيادة عن (ا)

(154) في (ب) تمت وهي أصح.

(155) في (ا) يألف.

(156) في (ب) وتيسير

(157) في (ب) الغمام.

(158) في (ب) ولم يلم

المدين[159] في دُفَع شتّى. هذا وإن كان إنما وإن عزم، وأمده كاد أن ينصرم، فمنفعته بحول الله كبرى، وفيه مآرب أخرى. فتنفَّسَ صدرُ الجو وزفر، وقطب وجهه بعد ما سفر، وسحَّ[160] الغمام وانسكب، وارتكب[161] من أمر الهنا[162] ما ارتكب فلم تجف له قطره، ولا خطرت بباله للصحو خطره، فسئمنا ذلك العارض الهطال[163]، وسهرنا الليل وقد طال، وما راعنا والصبح قد نمَّ من خلف الحجاب، وقضيَّته قد انتقلت من السلب[164] إلى الإيجاب، والغمام لا يفتر انسكابه إلا السلطان قد ارتحل ركابه. فضربنا بالقباب وجه الصعيد، واستقبلنا طيّة الغرض البعيد، نهيم في ذلك الوادي، ونكرع من أطواقنا في غدران الغوادي وقد تهدَّلت الفروع، وخضلت بالغيث تلك الزروع كأنما أخلفتها[165] الريح فترامت، وسقتها[166] كؤوس السحب حتى سكرت ونامت، والمذانب[167] أمثال الصلال قد تفرَّعت وكأنما رعناها[168] فانسابت أمامنا وأسرعت، ومخيلة الصحو لا تتوسم والجو تستضحكه بشأننا فلا يتبسم. ومررنا بوادي المنصورة التي نسب الوادي إليها، وعرضت مراكب تيَّاره بين يديها وأطلالها بالية. وبيوتها خاوية خالية، ومسجدها بادي الاستكانة خاضع للبلى على سمو المكانة، فعبرنا واعتبرنا وأبصرنا فاستبصرنا[169] وقول أبي الطيّب[170] قد تذكرنا[171]:

---

(159) في (ب) الدين
(160) في (ب) وهما
(161) في (ا) (وزفر وارتكب) وهو تكرار لا مبرر له
(162) في (ا) المنا، وقرأها مولر من ايراطنا
(163) كذا في (ا،ب) وقرأها مولر المطل
(164) في (ب) النفي
(165) في (ا) أخافتها
(166) في (ا) وسقتنا
(167) كذا في (ب)، ووردت في (ا) المثاقب والمتن أصح
(168) كذا في (ا) وردت في (ب) وكأنما رعناه
(169) لعل صحتها واستبصرنا
(170) ساقطة في (ا)، وأبو الطيب هو الشاعر المتنبي.
(171) قد زيادة عن (ب)

أين الذي الهرمان من بنيانه　　ما قومه ما يومه ما المصرعُ
تتخلف الآثار عن أصحابها　　حيناً ويدركها الفناءُ[172] فتتبعُ

ثم بدّلنا[173] ذلك الوادي بالعراء، واستقبلنا أرضاً شبيهة بالصحراء ملاعب للريح، ومنابت للسِدْر[174] والشيح، سحبت بها عين السحاب فضول[175] الذيل، وطفف الغمام في الكيل، وغار النور، وفار التنُّور، وفاضت السماء، والتقى الماء، فالركائب تسبح سبح الأساطيل، والأرجل تزهق زهوق الأباطيل، والمبارك تعدي، والأدلّة لا تهتدي، واللباس قد غير الطين من شكله، والإنسان قد رجع من الماء والحمأ[176] إلى أصله.

وخيَّمنا في بيره[177]، حرسها الله بالثغر الأقصى ومحل الرباط الذي أجر ساكنه لا يحصى. بلدة عدوّها متعقّب، وساكنها خائف مترقّب، مسرحة بعير ومزرعة شعير، إذا شكرت الوابل، انبتت حبّها سبع سنابل، ونجادها بالهشيم قد شابت، وزروعها قد دعا بها الفصل فما ارتابت، ونداء وآتوا حقه يوم حصاده أجابت. أرحنا بها يوماً صحا فيه الجو من سكرته، وأفاق من عمرته، فقيل للنفوس شأنك ودمائك[178] ويا أرض ابلعي ماءك. وتجلّت عقيلة الشمس معتذرة عن مغيبها مغتنمة غفلة رقيبها.

ورحلنا من الغد وشمل الأنواء غير مجتمع، والجو قد أنصت كأنه يستمع، بعد أن تمخض[179] الرأي[180] عن زبدته، واستدعي من الأدلاء من

---

(172) في (ب) البلى
(173) هذه الكلمة غير واضحة في النسختين، وكتبها مولر ثم بدا لنا ولعل صحتها كما في المتن
(174) السدر شجر النبق وجمعها سدور
(175) كذا في الأصل وقد وردت في (ب): سحبت علينا السحاب فضول
(176) الحمأ: الطين الأسود
(177) بيره، Vera، بلدة حصينة مرتفعه، تشرف على ساحل البحر الأبيض المتوسط عند الحدود الشمالية الشرقية لمملكة غرناطه، ومن المراسلات المتبادلة بين بعض ملوك غرناطة وملوك الدول المجاورة، تفهم أن مدينة بيره كانت تعتبر أقصى حدود المسلمين في تلك المنطقة
(178) في (ب) وذمائك، وهي أصح.
(179) في (ب) وتمحض
(180) كذا في (ا،ب) وقرأها مولر الرائب

وثق بنجدته، وكثر المستشار، ووقع على طريق قيشر[181] الاختيار، وانتدب من الفريق، إلى دلالة تلك الطريق، رجل ذو احتيال، يعرف بابن هلال، استقبل بنا شعباً مقفَلا[182]، ومسلكا (61) مغفَلا[183]، وَسُلَّما حرج[184] الدرج، سامي المنعرج، تزلق الذر[185] في حافاته، وتراع القلوب لتوقع[186] آفاته، ويتمثّل الصراط عند صفاته. أو عار لا تتخلص[187] منها الأوعال، ولا تغنى السنابك فيها ولا النعال. قطعنا بياض اليوم في تسنّم جبالها، والتخبط في حبالها، نهوي[188] من شاهق إلى وهد، ونخوض[189] كل مشقة وجهد، كأننا في حلم محموم، أو أفكار مغموم (أو برشام نوم)[190].

ولما طال مرام العروج إلى جو السماء ذات البروج، قلت يا قوم انظروا لأنفسكم فيما أصبحتم فيه، واعلموا أن دليلكم ابن هلال عزم على اللحاق بأبيه، ثم أخذنا في الانحدار بأسرع الابتدار نهوى من[191] المرقب السامي الذرى ونهبط من الثريا إلى الثرى، ونتمثّل في ذلك المسلك الواعر، بقول الشاعر:

بطريق بيرة[192] أجبل وعقاب ... لا يرتجي[193] فيها النجاة عُقاب

فكأنما الماشي عليها مُذْنِبٌ ... وكأنما تلك العِقاب عِقاب

---

(181) في (ا) قاشر

(182) كتبها مولر مقفلاً

(183) كتبها مولر مغفّلا

(184) في (ب) في حرج

(185) في (ا) الزر

(186) ساقطه في (ب)

(187) في (ب) يتخلص

(188) في (ب) تهوى

(189) في (ب) ونحوض

(190) وردت في (ب) أو برسام بوم، ولم ترد في (ا)، ولعلّها صحتها كما في المتن

(191) في (ب)، إلى

(192) في (ا) قاشر.

(193) في (ا) ترتجي

(حتى[194] إذا استوينا على صفحة الأرض، وتذكَّرنا بذلك الصراط يوم العرض، تخلَّصنا من السبيل الوبيل، وانتقلنا الهمز إلى التسهيل، ونزلنا والركائب قد كلّت، والمتاعب قد حلّت، فكانت مواقد النيران، بوادي العبران، بقعة جديبة المرعى، معدن لكل عقرب تدب وحيّة تسعى غير أن الله دفع مضرَّتها، وكفى ببركة الأيالة اليوسفية معرَّتها).

ولما أصبح استقبلنا الفحص الأفيح، بساط ممدود الصرح، يعجز عن وصفه لسان الشرح، طاردنا قنيصه[195] على طول صحبته للأمان، من حوادث الزمان. فأثرنا[196] كل ذلق المسامع، ناء عن إدراك المطالع، كثير النفار[197]، مصطبر على سكنى القفار، يختال في الفروة اللدنة الحواشي، وينتسب إلى الطائر والماشي، فغلبناه[198](62) على نفسه، وسلَّطنا عليه آفة من جنسه، وحللنا مقادة كل طويل الباع، رحب الذراع، بادي النحول، طالب بالدخول، كأنه لفرط النحول عاشق، أو نون أجادها ماشق، أو هلال سرار، أو قطعة سوار[199]، أو خبية[200] أسرار[201] رمينا[202] منه[203] بأجله على عجله، وقطعنا به عن أمله، فأصبح رهين هوان مطرقاً بأرجوان. ووصلنا الخطا[204] بين مجاثم[205] الأرانب، وأفاحيص القطا في فحص[206]

(194) هذه الفقرة التي بين القوسين لم ترد في (ب)
(195) في (ا) قبيصه
(196) في (ب) بأثرنا
(197) في (ا) النجار
(198) في (ا) تغلبناه
(199) ساقط في (ب)
(200) في (ب) حبيه
(201) في (ا) أسوار
(202) في (ب) رميناه
(203) كذا في النسختين ولعل صحتها أمنه
(204) في (ب) الحطا
(205) في (ب) حاتم
(206) في (ب) في سهل

يتلقّى الساير بترحيب واصل[207] إلى اشكوذر[208] حللناها والنهار[209] غض الشبيبة، والجو يختال من مذهب سناه في الحلي العجيبة.

واستقبلنا المَريَّة[210]، عصمها الله، في يوم سطعت أشعة سعده، وتكفل الدهر[211] بإنجاز وعده، مثل[212] أهلها بجمعهم في صعيد سعيد[213]، ويدعوهم عيد عهدهم به بعيد، فلم يبقَ حجاب إلا رفع، ولا عذر إلا دفع، ولا فرد إلا شفع في يوم نادي بالجمهور إلى الموقف المشهور، وأذن الله لشهره بالظهور على ما تقدمه من الشهور، رمت البلدة فيه بأفلاذها وقذفت بثباتها وأفذاذها، وبرز أهلها حتى غصَّ بهم سهلها وقد أخذهم الترتيب، ونظمهم المصف العجيب، تقدمت مواكب[214] الأشياخ الجلة، والفقهاء الذين هم سرج الملّة، وخفقت أصناف البنود المطلّة، واتسقت الجموع التي لا تؤتي بحول الله من القلّة، وتعدَّدت بمناكب البدور أشكال الأهلّة، في جموع تسد مهبّات[215] الصبا، وتكاثر رجل الدبا[216]، صفوفاً كصفوف الشطرنج على أعناقهم قسي الفرنج، وقد نشروا البنود الشهيرة الألوان واستشعروا في يوم السلم شعار الحرب العوان، يتسابقون من الاحتفال إلى غايه، ويرجع كل منهم إلى شعار وإلى رايه، وقد أحسنوا

---

(207) ساقطة في (ب)

(208) في (ا) اسكودار

(209) في (ب) واليوم

(210) المرية، Almeria مدينة ساحليه بجنوب شرق الأندلس، بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (الثالث) وذلك في عام 344هـ (955 ـ 956م انظر الروض المعطار ص183 ـ 184). راجع كذلك ما كتبه زيبولد Seybold في دائرة المعارف الإسلامية عن تاريخ هذه المدينة أيام المسلمين (Enc. Isl. I, p, 317)

(211) في (ا) للظهر وفي (ب) للدهر ولعلّ صحتها كما في المتن

(212) في (ا) أمثال

(213) في (ا) بعيد

(214) في (ب) تقدمها مراكب

(215) في (ب) مهاب

(216) في (ا) الربا

بالمشيخة الاقتداء، ورفعوا بالسلام النداء.

وامتاز خدام الأساطيل المنصورة في أحسن الصورة، بين أيديهم الطبول والأبواق تروع أصواتها وتهول. وتأنق من تجار الروم من استخلص العدل هواه، وتساوى سره ونجواه، في طرق من البر ابتدعوها، وأبواب من الاحتفاء شرعوها، فرفعوا فوق الركاب المولوي على عمد السَّاج، مظله من الديباج، كانت على قمر العلياء غمامه، وعلى زهر المجد كمامه، فراقتنا بحسن المعاني، وأذكرتنا قول أبي القاسم ابن هاني:

وعلى أمير المسلمين غمامه نشأت تظلل وجهه[217] تظليلا
نهضت بعبء الدر ضوعف نسجه وجرت عليه عسجداً محلولا

إلى غير ذلك من أروقة عقدوها، وكرامة أعدوها. وطلعت في سماء البحر أهلّة الشواني، كأنها حواجب الغواني، حالكة الأديم، متسربلة بالليل البهيم، تتزاحم[218] وفودها على الشط، كما تتدخل النونات[219] في الخط، فياله من منظر بديع الجمال، أخذ بعنان الكمال، بكر الزمان، وآية من آيات الرحمن، حتى إذا هالة القبة استدارت، وبالقمر السعد من وجه السلطان، أيّده الله، أنارت، مثلوا فسلموا، وطافوا بركن مقامه واستلموا، وأجهروا بالتلبية، ونظروا، من وجهه[220] الجميل إلى سعد الأخبية، وتزاحم من النساء الأفواج، كما تتدافع الأمواج، فرفع الجناح، وخفض الجناح، ومهد لهنَّ سبيل العطف، وشملهنَّ كنف الإشفاق واللطف. ولما أرحنا واسترحنا، والعيون في تلك البلدة سرّحنا، رأينا قيد البصر، والمحاسن التي ترمي اللسان[221] بالحصر، حضرة يستقبل[222] بها الملك، ومربع يلتقي به القطار والفلك، رفعت راية الشرف القديم، وحازت على نظرائها مزية

(217) في (ب) تاجه
(218) في (ا) تتزحم
(219) في (ا) النوقات
(220) في (ب) من وجه الجميل
(221) ساقطة في (ب)
(222) في (ب) يستقل

التقديم، ما شئت من ساحة طيبة الأديم، رحيبة كصدر الحليم، متناسبة الوضع بتقدير العزيز العليم، تبرَّجت تبرّج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة.

وركب السلطان أيّده الله ثالث يوم وروده إلى مشاهدة قلعتها الشَّمَّاء، المتعلّقة بعنان السماء، فقدح سكانها زناد البارق المتألّق، وتلعب صبيانها[223] على جناح الطائر المحلّق، وعلى سموّ مكانها وجلالة شأنها، فدولابها[224] شجى المزمار[225]، ومياهها في انهمار، وخزائنها[226] تستغرق[227] طول[228] الأعمار، وعددها كفيلة لحماية الذمار، فعوَّذناها من كل خطب فادح، وحيّينا بها بهو خيران[229] وقصر ابن صمادح[230] ونظرنا إلى تلك الآثار

---

(223) في (ب) صبيتها

(224) كذا في النسختين وقرأها مولر قد ولا بها

(225) في (ب) المضمار

(226) في (ا) وجزانيها

(227) في (ب) نستغرق

(228) في (ب) بطوال

(229) خيران الصقلبي الخصي العامري، كان في الأصل مملوكاً للمنصور ابن أبي عامر دكتاتور إسبانيا أيام الخليفة هشام الثاني المؤيد، ثم تدرّج في الرقي حتى صار رئيساً لحزب الصقالبة في أواخر أيام الخلافة الأموية بقرطبة. ثم تمكن خيران من الاستقلال بولاية المرية عام 403هـ سنة 1012م وصار يدعى بالخليفة وبالفتى الكبير. وتنسب لخيران أعمال معمارية كثيرة ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم في المريه، ومن أهمها بقايا القصر والقلعة المسمّاة بالقصبة. وقد مدحه الشاعر الأندلسي ابن درّاج القسطلي بالقصيدة التي مطلعها:

الخير قد أوفى بعهدك خيران   وبشراك قد آواك عزّ وسلطان

وتُوفي خيران عام 419هـ سنة 1028م

انظر (أحمد مختار العبادي: الصقالبة في إسبانيا، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية. مدريد 1953)

(230) ملوك بني صمادح حكموا المرية في فترة ملوك الطوائف(من عام 1041 ـ 1091م) وأهم ملوك هذه الأسرة المعتصم بالله محمد بن معين بن صمادح التجيبي (1041 ـ 1091م) وكان رجلاً محبّاً للعلوم والآداب وبلاطه حافلاً بالشعراء والكتّاب أمثال ابن الحداد الوادي آشي وابن شرف البرجي، بل كان أولاده ينظمون الشعر أيضاً ونذكر منهم ابنه رفيع الدولة وأبنته الأميرة أم الكرام. وعندما غزا المرابطون البر بر مملكته كان المعتصم بن صمادح عل فراش الموت، فقال عبارته المشهورة:

الكبار، والمشاهدة[231] التي تغني عن الأخبار، أشرقت العدو بريقه، وسطت بفريقه، وأخذت عليه فيها يد الله ثنايا طريقه، وخصَّ المولى أيَّده الله قائدها بتشريفه[232] وترفيعه، وتناول بيده الكريمة من صنيعه، في مجلس احتفى[233] واحتفل، وفي حلل الكمال رفل، وأخذت مجالسها الخاصة والكبراء[234] وأنشد الشعراء[235]، فكان[236] مقاماً جليلاً وعلى الهمم العربيّة والشيم الملوكية دليلاً.

وكان الرحيل عن تلك المدينة لا عن ملال، ولا عن[237] ذم[238] خلال، ولكن مقام بلغ أمدا[239]، ورحلة انتهت إلى مدى[240].

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوم[241] له يوم الترحل خامس

فيالها من خمسة علَّقها الدهر تميمة على نحره، وأثبتها معوذة في قرآن فخره. كانت لياليها معطَّرة النواسم، وأيامها كأيام المواسم.

وثنينا الأعنَّة إلى الإياب، وصرفنا إلى أوطاننا صدور الركاب، فكم من قلب لرحيلنا وجب، لما استقل ووجب، ودمع لوداعنا عظم انسكابه، لما رمت للبين ركابه، وصبر أصبح من قبيل[242] المحال عند زمّ الرحال، وإلف أنشد بلسان النطق والحال:

= إله إلا الله، نغَّصَ علينا كل شيء حتى الموت! (ابن بسَّام: الذخيرة ج2، ق1، ص236 انظر كذلك (Antonio Prietoy Vives: Los Reyes de Taifas Madrid 1926)

(231) في (ب) والمشاهد

(232) في (ا) بتسريفه

(233) في (ا) احتفا

(234) في (ب) والكبرى وفي (ا) الكبرا ولعلّه يريد الكبراء

(235) في (ا) وأنشدت الشعرا

(236) في (ب) وكان

(237) ساقطة في (ب)

(238) في (ا) دم

(239) في (ب) أمد

(240) في (ب) أمد

(241) لعلَّ صحَّتها ويوما

(242) في (ا) قبيح

ومضى وخلّف في فؤادي لوعة　　تركته موقوتاً على أوجاعه
لم استتم سلامه لقدومه[243]　　حتى ابتدأت عناقه لوداعه

وانصرفنا[244] وعروشها تتعلق بأذيالنا، ومخاضات[245] واديها تعترض صدور رجالنا[246]، ورياحها تدافعنا[247] عن المسير ومعالمها تقنع من إلمامنا ولو باليسير.

واستقبلنا وادي بجّانه[248] وما أدراك ما هو، النهر السيّال، والغصن الميّاد الميّال، والأفياء والظلال.

المسك ما فُتّ في جنباته، والسندس ما حاكته يد جناته، نعمة واسعة، وماجدة جامعة أزرت بالغوطتين زياتينه وأعنابه وسخرت بشعب بوان شعائبه بحيث لا تبدو[249] للشمس آيات[250] ولا تتأتى للحرباء حيّات[251]. والريح تلوى أعطاف غصون البان على أرداف الكتان[252]، وتجاذب عرايش[253] الخمائل، فضول[254] الغلائل، إلى مرشانة[255] وهي الكوكب الأعلى، والأشهب المحلىً، والصباح إذا تجلىً، والعروس على المنصّة تجلى، وبها حلّت

---

(243) ورد في (ا)، لم يستتم عناقه لقدومه، ويبدو أن ما ورد في نسخة (ب) أحسن
(244) في (ا) وسرنا
(245) في (ب) ومخاضة
(246) رحالنا
(247) في (ب) تتدافع
(248) بجانه، Pechina قرية ساحلية في شمال المريه بنحو 10 ك.م انظر ما كتبه عنها ليفي بروفنسال في Enc. Isl. III p. 1109 راجع كذلك (الروضالمعطار ص37 ـ 39).
(249) في (ا) تبدوا
(250) في (ب) اياة وهي أصح، أي النور.
(251) في (ب) حياة، وهي أصح.
(252) في (ب) الكثبان
(253) في (ب) عن أنس
(254) في (ب) فصول
(255) Marchena مرشانة أو مرسانه، حصن حصين في مقاطعة المرية، وهناك حصن آخر بهذا الاسم في مقاطعة اشبيلية جنوب شرق قرمونه. انظر (الروض المعطار ص218 حاشية 3)

الغيوم سموطها[256]، ومدّت عناكب[257] السحاب خيوطها[258]، فبتنا وعيون المزن باكية، والمنازل من توقع فراقنا[259] شاكية (واستقبلنا[260] الوادي نجعله دليل تلك الطريق، ونتبعه[261] في السعة والضيق، فكم مخاضة منه عبرنا، وعلى مشقّتها[262] صبرنا، حتى قطرت الأذيال والأردان، وشكت أذى الماء الأبدان، وتوفرت ذو الضجر، لملازمة الماء والحجر، ونسينا بمعاناته ألم البعاد، وذكرنا ببرده وإعادته مَثَلهم في الحديث المعاد، اللهم غفراً فضله مديد، ومنظراً في الحسن فريد، وقد راق شأنه، وتصاف على الشط سكانه، فرأينا الحور تحت سماط الحور، والنور فوق بساط النور.

ولما كان عمر اليوم ينتصف، وقد بلونا من بعد المشقة ما لا نصف، وتخلّصنا من ذاك الكمد، شارفنا دار عبلة[263] العلياء في السند). واستقبلنا عبلة ولَوْرِسانة[264]، وأنخنا الركائب[265] بطاهر[266] فنيانة[267]، بقعة حظها من النعم موفور، وبلدة طيّبة وربّ غفور، حللناها ومنادى[268] العجماء يعرب، والشمس يراودها المغرب، وقد عظم (أثر)[269] الهياط والمياط،

---

(256) في (ا) سمرطها
(257) بياض في (ب)
(258) في (ا) خيرطها
(259) في (ا) فراقبا
(260) هذه الفقرة الكبيرة التي بين الأقواس لم ترد في (ب)
(261) كتبت ونبتعه ولعلّ صحتها ونتبعه كما في المتن
(262) كتبت (وعلى مسقتها) ولعلّ صحتها كما ورد في المتن
(263) عبلة Abla، واسمها القديم Alba وحرّفها العرب إلى عبلة ويحيط بهذا المكان حتى وادي آش جبال تعرف بالسند Sened وتقع عبلة في جنوب شرق فنيانة. راجع F. Simonet: Op. cit. p. 61, 100)
(264) Abrucena
(265) في (ا) الركاب
(266) في (ا) بظهر
(267) فنيانة Finana وتعرف بالحصن وتقع في مقاطعة المرية على مسافة 30 ك.م جنوب شرق وادي آش. انظر (الروض المعطار ص 172 حاشية 2)
(268) في (ب) ومنافي
(269) ساقطة في (ا)

وسطا[270] الكلال بالنشاط. وبتنا والشيح وسائد مضاجعنا، وشكوى التعب حلم هاجعنا.

واستقبلنا المنهج[271] الأمثل[272]، والسهل الذي يضرب به المثل، بساط ممدود، ومن البحور[273] الأرضيّة[274] معدود، ولم يكن إلا كخطفة بارق، أو خلسة سارق، حتى تقلّص الظل وطوى منشوره طي السجل.

واستقبلنا مدينة وادي آش حرسها الله، وقد راجعت الالتفات، واستدركت ما فات، فتجلّت المخدّرات، وقذفت بمن[275] اشتملت عليه الجدرات، وتنافس أهلها في العدّة والعديد، واتخاذ شكك[276] الحديد، فضاق رحب المجال، واختلط النساء بالرجال، والتف أرباب الحجا بربات الحجال، فلم نفرق[277] بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين حمر البنود[278] وحمر الخدود، وبتنا بإزائها ونعم الله كافله، ونفوسنا في حلل السرور رافلة. حتى إذا ظلّ الليل[279] تقلّص، وحمام الصبح من مخالب غرابه[280] قد[281] تخلّص، سرنا[282] وعناية الله ضافية، ونعمه وافية.

فنزلنا بوادي فردس[283]، منازلنا المعتادة، وقلنا رجع الحديث إلى قتادة، وبها تلاحقت وفود التهاني، وسفرت وجوه الأماني. نزلنا منه بالمروج

---

(270) في (ا) وسط
(271) في (ب) النهج
(272) في (ب) الأشل
(273) في (ب) البحار
(274) في (ا) الأريض
(275) في (ب) من
(276) في (ا) سكك
(277) في (ا) يفرق
(278) في (ب) ومن حمر الحدود
(279) في (ا) اليوم
(280) في (ا) غروبه
(281) زيادة عن (ب)
(282) في (ا) وسرنا
(283) Rio Fardes، في (ب) فردش

فتفتحت بها أزهار القباب البيض في بساطها[284] العريض، وخطرت ببالي مقطوعة في مخاطبة المولى أنجح الله عمله ويسَّر من فضله أمله، أثبتُّها على حكم الاستعجال. وأوصفت[285] على بيوتها خيل[286] الارتجال:

إذا سرت سار النور حيث تعوج ... كأنك بدر والبلاد بروج
لك الله من بدر على أفق العلا ... يلوح وبحر بالنوال يموج
تفقدت أحوال الثغور بنية ... لها نحو أبواب القبول[287] عروج
وسكنتها بالقرب منك ولم تزل ... تهيم هوى من قبله وتهيج
مررت على وعد من الغيث بينها ... فمنظرُها بعد العبوس بهيج
فكم قلعة قد كلَّلَ النورُ تاجَها ... ورف عليها[288] للنبات نسيج
ولا نجد إلا روضة وحديقة ... ولا غور إلا جدول وخليج
أيو سفُ دم للدين تحمى ذماره ... إذا كان للخطب الأبيّ ولوج
بفتية صدق إن دجا ليلُ حادث ... فهم سُرُج آفاقهن سروج
بقيتُ قرير العين ما ذرّ شارق[289] ... وما طاف بالبيت العتيق حجيج

وبتنا نتعلَّق بأنفاس[290] الحضرة العاطرة، ونستظلُّ بسمائها الماطرة، ونعلنُ بالاستبشار[291]، ونحن إلى الأهلِ حنين العشار:

وأبرح[292] ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الديار من الديار

فلمَّا تَبَسَّم زنجي الليل عن ثغرِ الفجر، وشبَّ وليدُ الصبح[293] عن عقد الحجر، ولحظتنا ذكاء بطرفها الأرمد، وقد بقي[294] الليل فيه بقيَّة

---

(284) في (ب) بساطه
(285) في (ب) وأوجفت، لعلها أوضعت أي أسرعت فالوضع نوع من المشي السريع.
(286) في (ا) نجيل
(287) في (ب) لها أسباب السماء عروج
(288) في (ا) دوف عليه
(289) في (ا): بقيت فريد العين مادر شارق
(290) في (ب) بأنوار
(291) في (ب) الاستبشار
(292) في (ب) وأقرب.
(293) في (ب) الصباح
(294) في (ب) ترك

الإثمد، استقبلنا الحضرة حرسها الله[295] فأنست النفوس بعد اغترابها، واكتحلت العيون بإثمد ترابها، واجتلينا من فحصها الكريم الساحة، الرحب المساحة، ما يبهر العين جمالاً، ويقيّد الطرف يميناً وشمالاً، أم البلاد والقواعد، وملجأ الأقارب والأباعد، تعدّت مقعد الوقار، ونظرت إلى الأرض بعين الاحتقار، ومدّت إليه البلادُ أكفَّ الافتقار، نصبت من الجبل منصّة قعدت عليها، وقامت وصائف القرى في ذلك البساط بين يديها، فمن ذا يدانيها أو يداريها أو يناهضها في الفخار ويجاريها، وهي غاب الأسود، والأفق الذي نشأت فيه سحاب الجود، وطلعت به من الأمراء السعداء نجوم السعود[296]، سيّدة الأمصار، أو دار الملوك من أبناء الأنصار، ومصرع الطواغيت والكفّار (والغمد الذي استودع سيوف الله دامية الشفار)[297] ولله درّ بعض شيوخنا وقد عبَّر عنها ببيانه، واعتذر عن بردها في أوانه حيث يقول:

رعى الله من غرناطة متبوأ ... يسر كئيباً أو يجير طريداً[298]
تبرّم منها صاحبي عندما رأى ... مسالكها بالبرد عدن جليداً
هي الثغر صان الله من أهلّت به ... وما خير ثغر لا يكون بروداً

---

(295) يقصد مدينة غرناطة ويقال لها أيضاً أغرناطة وتسمّى اليوم Granadaانظر ما كتبه عنها زيبولد Seybold في دائرة المعارف الإسلامية Enc ISI II P. 186 - 187 راجع كذلك (رحلة ابن بطوطة لهذه المدينة ج2، ص 187، وما كتبه ليفي بروفنسال عن هذه الرحلة في Lévi Provençal : Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Granada (1361),

Pag. 218, en : Melanges Wiliam Marçais (Paris 1961) انظر أيضاً Simonet : كذلك الموسوعة المعروفة Descripci?n del reino de Granada, p. 27- 68)

انظر كذلك الموسوعة المعروفة (Miguel lafuente Alcantara: Historia de Granada, 4 tomos)

راجع كذلك ما كتبه ابن فضل الله العمري (ت 1350م) عن المغرب والأندلس في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) وقد نشر هذا الجزء العالم التونسي حسن حسني عبد الوهاب في مجلة البدر بتونس

(296) في (ب) من الأمراء السعود انجم السعود

(297) في (ا) والجفن الذي استودع جفان الله دامية الشعار

(298) هذا البيت محرف في (ا).

وصلناها والجو مصقول كالفرند، والسماء كأنها لصفائها مرآة[299] الهند، أخرج الحلى من الإحقاق، وعقد أزرار الحلل على الأعناق، وأطلع أقمار الحسن على الآفاق، وأثبت فخر الحضرة بالإجماع والاحقاق، على دمشق الشام وبغداد[300] العراق.

حتى إذ بلغنا قصور الملك وانتهينا إلى واسطة السلك، وقفنا مهنئين ومسلّمين، وقلنا أدخلوها بسلام آمنين. وألقت عصاها واستقرَّ[301] بها النوى[302] كما قرّ عيناً بالإياب المسافر. (هنا انتهى التقييد والحمد لله على ما سناه من صنع جميل، وأولاه من بلوغ تأميل. وذلك يوم الأحد الثامن لصفر عام ثمانية وأربعين وسبعمائة، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

تمت خطرة الطيف، والحمد لله وصلَّ الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً طيباً)[303].

---

(299) في (ا) مرءات

(300) في (ب) بغداد

(301) في (ب) واستقرت

(302) ساقطة في (ا)

(303) الفقرة الختامية التي بين القوسين لم ترد في (ب)

الرسالة الثانية

مفاخرات مالقة وسلا

ومن ذلك ما صدر عنّي في مفاخرات مالقة[304] وسلا[305] بما نصّه:

سألتني عرفك الله عوارف السعد المقيم، وحملني وإياك على الصراط المستقيم، المفاضلة بين مدينتي مالقه وسلا، صان الله من بهما من النَّسم، وحباهما[306] من فضله بأوامر القسم بعد أن رضيت بحكمي قاضياً، وبفصلي الخطة سيفاً ماضياً، لاختصاصي بسكنى البلدين، وتركي فيهما الأثر للعين.

على أن التفضيل إنما يقع بين ما تشابه وتقارب، أو تشاكل وتناسب، وإلا فمتى يقع التفضيل؟ بين الناس والنسناس، والملك والخنّاس، وقرد الجبال وظبي الكناس؟

مالقة أرفع قدراً، وأشهر ذكراً، وأجلّ شأناً، وأعزُّ مكاناً، وأكرم ناساً، وأبعد التماساً، من أن تفاخر أو تطاول، أو تعارض أو تصاول، أو تراجع

---

(304) مالقة Mlaga اسم لمدينة وولاية على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب شرق إسبانيا. وفي أيام ابن الخطيب كانت مالقة تعتبر العاصمة الثانية بعد مدينة غرناطة في مملكة بني الأحمر.

(305) سلا Sale مدينة رومانية قديمة على ساحل المحيط الأطلنطي بأقصى المغرب ويفصلها عن مدينة رباط جنوباً نهر أبو الرقراق (بورجراج) وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن الخطيب أقام في هذه المدينة عندما نفي مع سلطانه محمد الخامس عام 1360م وظلّ بها حتى عام 1362 حينما عاد ثانيه إلى غرناطة مع سلطانه المذكور بفضل مساعدة ملك قشتاله وسلطان بني مرين

(306) في الأصل وحباها وصحّتها كما في المتن

أو تغاول، ولكنّي سأنتهي إلى غرضك، وأبيّن رفع مفترضك وأباين بين جوهرك وعرضك.

فنقول الأمور التي تتفاضل بها البلدان، وتتفاخر منها به الأخوان، وتعرفه حتى الولائد والولدان، هي: المنعة والصنعة والبقعة والشُّنَعَة[307] والمساكن والحضارة والعمارة والإمارة والنضارة.

فأما المنعة، فلمالقة، حرسها الله، فضل الارتفاع ومزية الامتناع أما قصبتها[308]، فاقتعدت الجبل كرسيّاً، ورفعها الله مكاناً عليّاً، بعد أن ضوعفت أسوارها وأقوارها[309]، وسما بسنام الجبل المبارك منارها، وقربت أبراجها، وصوعدت أدراجها، وحصنت أبوابها، وعزّز جنابها، ودار ببلدها السور والجسور، والخندق المحفور. فقلهراته[310] مدائن بذاتها، وأبوابها المغشاة بالصفائح[311] شاهد بمهارة بناتها، وهمم أمرائها وولاتها كأنها لبست الصباح سربالاً[312]، أو غاصت في نهر الفلق بهاء وجمالاً، أمنت من جهة البحر التقيّة، ودار بها من جهة البرّ الحفير والسّلوقية[313]، لا تجد العين بها عورة تتقى، ولا ثلماً منه يرتقى، إلى الربضين[314] اللذين كل واحد منهما

---

(307) الشنعة: الشهرة والسمعة. انظر Dozy: Supplement aux dictionnaires Arabes I, p.791 - 792) (Paris 1927))

(308) راجع وصف هذه القصبة في Guillen Robls: Malaga Musulmana Cap II. Parte 2 (Malaga 1880)

(309) أقوار ومفردها قور بمعنى نطاق وسياج انظر (Dozy: Suppl., II, p 417 a)

(310) قلهرات جمع قلهره Galahorra بمعنى قلعة أو برج القلعة انظر Dozy: Suppl II P 401)

(311) الصفائح معناها هنا النقوش والزخارف التي تحلّ بها الأبواب. (صفائح الرتاج) انظر Dozy: Suppl., I, P. 834)

(312) السربال: القميص. انظر Dozy: Dictionnair detaille des noms des Vetements chez les arabes, p 202.)Amesterdam 1845)

(313) السلوقيه أو السلوقية نوع من الخنادق أو الأبراج الأمامية التي في خارج الأسوار راجع (Dozy. Suppl., I.P 676)

(314) سمي أحد هذين الربضين باسم فنتنالة Fontanella، وسمي الآخر باسم التيانين أو التيانين نسبة إلى تجارة التين التي اشتهرت بها مالقه. راجع (Levi provencal: La Peninsule Iberique D apres Ar- Rawd AL - Mi tar, p. 213 note 6

وقد سمّى دوزي هذا الربض باسم التبانين نسبة إلى تجار التبن، والقراءة الأولى أصح. راجع (الإدريسي نشر دوزي ودي خويه، ص204، 220).

مدينة حافلة، وعقيلة في حلى المحاسن رافلة.

وسلا على ما علمت، سور حقير، وقَوْر إلى التنجيد والتشييد فقير، آطام خامله، وللرم آمله، وقصبتها بالبلد متّصلة، ومن دعوى الحصانة منتصلة، سورها مفرد، لا سلوقية تقيه، وبابها مقصد لا ساتر يحميه، والماء بها معدوم، وليس له جب معلوم، ولا بئر بالعذوبة مرسوم، وفي عهد قريب استباحها الروم في اليوم الشامس، ولم ترد يد لامس، من غير منجنيق نصب، ولا تاج ملك عليها عصب، قلّة سلاح وعدم فلاح، وخمول سور، واختلال أمور[315].

ومنذ سقطت دعوى المنعة، فلنرجع إلى قسم الصنعة فنقول:

مالقة، حرسها الله، طراز[316] الديباج المذهّب، ومعدن صنائع الجلد المنتخب، ومُذهِب الفخار، المجلوب منها إلى الأقطار، ومِقْصَر[317] المتاع المشدود[318]، ومضرب الدست المضروب، وصنعاء[319] صنائع الثياب ومحج التجار إلى الإياب، لأفعام العياب، بشهادة الحس والجن والإنس، ولا ينكر طلوع الشمس.

وأي صناعة في سلا يقصد إليها أو يعول عليها أو يطرف بها قطر بعيد، أو يتجمل بها في عيد.

ومنذ سقطت مزية الصنعة، فلنرجع إلى مزية البقعة فنقول:

---

(315) من المعروف أن الإسبان هاجموا مدينة سلا على غره أيام الملك الفونسو العالم (El sabio) وذلك في 2 شوال عام 658هـ (1260م) وقد طردهم منها السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بعد احتلال دام أربعة وعشرين يوماً. وانظر (ابن أبي زرع: روض القرطاس (نشر طورنبرج) ص 201، 278) انظر كذلك (السلاوي: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ج2، ص 11).

(316) عن نظام الطراز، راجع مقال جروهمان في دائرة المعارف الإسلامية: (Enc. Islam Iv P. 825 - 834)

(317) مقصر: لعلّ معناها هنا، آلة لغزل الأقمشة القطنية (الموسلين)، راجع: (Dozy: Suppl., II p. 358)

(318) المتاع المشدود أي كل ما يشد به مثل العمائم والأحزمة. راجع: (Dozy: Suppl. I, p 737)

(319) صنعاء عاصمة اليمن كانت مشهورة بمنسوجاتها، والمعنى هنا مجازي.

خصَّ الله مالقة بما افترق في سواها، ونشر بها المحاسن التي طواها، إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال، وقَامِرة[320] الفلاحة المخصوصة بالاعتدال، والبحر العديم الصداع، الميسَّرة مراسية للحط والإقلاع، والصيد العميم الانتفاع، جبالها لوزٌ وتين، وسهلها قصور وبساتين، وبحرها حيتان مرتزقة في كل حين، ومزارعها المغلّة عند اشتداد السنين، وكفى بفحص قامرة[321] صادع بالبرهان المبين، وواديها الكبير عذب فرات، وأدراج مثمرات، وميدان ارتكاض، بين بحر ورياض.

وسلا بلد الرمال، ومراعي الجمال، بطيحة لا تنجب السنابل، وإن عرفت المطر الوابل، جرد الخارج، وبحرها مكفوف بالعتب والمدارج وواديها ملح المذاق، مستمدٌ من الأجاج الزعاق، قاطع بالرقاق من الآفاق، إلى بعد الإنفاق، وتوقع الإغراق. وشابلها[322] مقصور على فصل، وكم لشوكة من شبا نصل، عدمت الفاكهة، والمتنزَّهات النابهة.

وإذا بان فضلُ البقعة، فلنلم بذكر الشنعة، وهو مّما لا يُحتملُ فيه النزاع، ولا تغطّى الأبصار وتطمس الأسماع. إذ مالقة دارُ الملك في الروم، ومثوى المصاعب والقروم، تشهد بذلك كتبُ الفتحِ المعلوم، وذات ملك في الإسلام عديد الجيوش خانق الأعلام، غني بالشهرة عن الأعلام، سكنها ملوك الأدارسة[323] الكرام، والصناهجة الأعلام، ثم بنو نصر أنصار الإسلام[324] وجيشُها اليوم مشهور الإقدام، متعدّد المئين على مرّ الأيام

---

(320) القامرة: مخازن المحصولات الزراعية، والمقصود هنا التربة الخصبة المنتجة. انظر :Simonet) Glosario de Voces Ibericas p 79)

(321) فحص قامرة: Gamara لا يزال موجوداً حتى اليوم في ولاية مالقة بالقرب من بلدة انتقيره Antequera انظر (Simont: Glosario de Voces Ibericas p 80)

(322) شابل: نوع من الأسماك النهرية ومعروف في الإسبانية باسم Sabalo انظر ,.Dozy: Suppl) I, P 724)

(323) يقصد الحموديين أو بني حمود وهم من سلالة الأدارسة، وقد أسسوا إمارة مستقلة في مالقة من عام 1018 إلى 1057م. وانتهت هذه الدولة عندما استولى بنو زيري ملوك غرناطة على مالقة سنة 1057. انظر (Enc. Islam. II. P 269)

(324) هم بنو زيري حكّام غرناطة أيام ملوك الطوائف في القرن الحادي عشر الميلادي. وهم من أصل بربري يرجع إلى قبيلة صنهاجة. انظر (Enc. Islam IV P. 158)انظر كذلك (مذكرات

وتُجارها تعقد لواء خالقاً، وتقيمُ الجهاد سوقاً نافقاً، وتركضُ الخيولُ السابحة، وتعامل الله على الصفقة الرابحة، وكفاها أنَّها أم للعدّة من الثغور والحصون، والمدن ذاتِ الحمى المصون، وشجرة الفروع الكثيرة والغصون وما منها إلا معقل سام، وبلد بالخيل والرجل مترام، وغيل حام، يحتوي بها ملك باذخ، وينسق فيها للسلطان فخر شادخ.

وأين سلا من هذه المزية، والشنعة العلية، أين الجنود والبنود، والحصون تزور منها الوفود، وإن كان بعضُ الملوك ذهب إلى اتخاذها داراً، واستيطانها من أجلِ الأندلس قراراً، فلقد هم وما أتم وطلله نم.

ولنقل في الحضارة بمقتضى الشواهد المختارة، ولا كالحلى والطيب، والحلل الديباجية والجلابيب، والبساتين ذات المرأى العجيب، والقصور المبتناة بسفوح الجبال، والجنَّات الوارفة الظلال، والبرك الناطفة بالعذب الزلال، والملابس المختالة في أفنان الجمال، والأعراس الدَّالة على سعة الأحوال، والشورات المقدرات بالآلاف من الأموال.

وأما سلا، فأحوال رقيقة، وثياب في غالب الأمر خليقة، وذمم منحطَّة ونفقات تحصرها من التقتير خطّة، ومساجد فقيرة، وقيسارية حقيرة، وزيّ مجلوب وحلي غير معروف ولا منسوب، تملأ مسجدها الفذ العدد والأكسية، وتعدم فيها أو تقل الطيالس والأردية، وتكثر البلغات، وتندرُ النعال، وتشهد بالسجية البربرية والأصوات واللغات والأقوال والأفعال.

وأما العمارة، فأين يذهبُ رائدها، وعلام يعولُ شاهدها، وما دار عليه السور متراكم متراكب، منتسجة مبانية كما تفعل العناكب، فناديقه[325]

الأمير عبد الله الصنهاجي (من مجموعة ذخائر العرب) تحقيق ليفي بروفنسال 1956. ويعرفون كذلك ببني الأحمر وهم ملوك غرناطة آخر مملكة إسلامية في إسبانيا (1232 ـ 1492م) وينسبون إلى سعد بن عبادة زعيم الأنصار وقبيلة الخزرج إذ ان جدهم الأكبر ـ كما يقولون ـ هو محمد بن يوسف بن نصر بن أحمد. . ابن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري الملقب بالأحمر (أبو الحسن النّباهي نزهة البصائر والأبصار).

(325) فنادق جمع فندق

كثيرة، ومساجده أثيرة، وأرباضه حافلة، وفي حلل الدوح رافلة، وسككه غاصّة، وأسواقه بالدكاكين متراصّة، أقسم لَربض من أرباضها أعمر من مدينة سلا، وأبعد عن وجود الخلا، واملأ مهما ذكر الملأ، بلد منخرق منقطع منفرق، ثلثه مقبرة خالية، وثلثه خرب بالية، وبعضه أخصاص وأقفاص، ومعاطن وقلاص، وأواري بقر تحلب، ومعاطن سائمة تجلب.

وأما الإمارة، فلمالقة القدح[326] المعلَّى، والتَّاج المحلَّى، وهو على كل حال بالفضل الأولى، حيث مناهل المختص، والخارج الأفيح الفحص. وسلا لا تأكل إلا من غرارة جالب، لا من فلاحة كاسب. ومالقة مجتزئة بنفسها في الغالب، محسبة من شرقيها وغربيها بطلب الطالب.

وأما النضارة، فمن ادَّعى أنَّه ليس في الأرض مدينة أنضر منها جناباً، ولا أغزر منها غروساً وأعناباً، ولا آرج أزهاراً ولا أضوأ نهاراً، لم تكذب دعواه، ولا أزرى به هواه، إنما هي كلّها روض وجابية وحوض بساتين قد رقمتها الأنهار وترنَّمت بها الأطيار.

وسلا بلد عديم الظلال، أجرد التلال، إذا ذهب زمن الربيع والخصب المريع، صار هشيماً، وأضحى ماؤها حميماً، وانقلب الفصل عذاباً أليماً.

أما المساكن، فحسبُكَ ما بمالقة من قصور بيض، وملك طويل عريض جنّة السيد[327]، وما أدراك ما بها من جنَّة دانية القطوف، سامية السقوف، ظاهرة المزية والشفوف، إلى غيرها ممَّا يشذُّ عن الحصر، إلى هذا العصر.

والجنَّات التي ملأت السهل والجبل، وتجاوزت الأمل، بحيث لا أسد يمنع من الأصحار بالعشي والأسحار، ولا لص يستجن بسببه في الديار.

---

(326) القدح المعلى: السهم السابع في الميسر عند العرب في الجاهلية. وهو أكثر السهام ربحاً. والمعنى هنا مجازي للدلالة على علوّ شأن المدينة. انظر (ابن قتيبه: الميسر والقداح (القاهرة 1343).

(327) جنة السيد: يبدو أن هذا الاسم قد أطلق على قصر هناك لبعض أمراء الموحدين، انظر:
(Oliver Hurrtado: Granada y sus Monumentos arabes, p, 365 y nota I)

وأما سلا وإن كان بها للملك دورٌ وقصور، ولأهل الخدمة بناء مشهور فنهل قليل، وليس بالجمهور إليه سبيل.

وأما الساكن بمالقة بين راهن قيد الحياة، ومنتقلٍ من جنّاتها إلى روضات الجنّات، فأكبر به أن يفاضل، أو يجادل فيه أو يناضل، ولا شاهد كالصلات(328) الباقية المكتتبة، والتواريخ المقرَّرة المرتبة.

فاستشهد مغرب البيان(329) وتاريخ ابن حيَّان(330)،

---

(328) صلات جمع صلة ويقصد بها المعاجم والتراجم التي ظهرت مسلسلة تحت هذا الاسم كما هو واضح في المتن.

(329) لعلّه يقصد كتاب البيان المغرب لابن عذاري المراكشي الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي. وقد ظهر هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء، الأول والثاني نشرهما دوزي (ليدن 1848 ـ 1851) والجزء الثالث نشره ليفي بروفنسال (باريس 1930) كذلك توجد طبعة لبنانية للجزءين الأول والثاني (بيروت 1950) هذا وتوجد ترجمة فرنسية للكتاب من عمل فاجنان Fagnan وأخرى إسبانية لفرناندث جونثالث Fernandez y Gonzalez وقد ظهر جزء رابع خاص بتاريخ الموحدين نشره أويني ميراندا بالاشتراك مع محمد بن تاويت وإبراهيم الكتاني (تطوان 1960).

(330) ابن حيّان، المؤرّخ القرطبي الكبير (377 ـ 469، 987 ـ 1076م) ومن مؤلّفاته، كتاب المتين وهو مفقود، وكان يقع في ستين جزءاً ويتناول الأحداث المعاصرة للمؤلف ويُعرف أيضاً بالتاريخ الكبير. وقد نقل ابن بسّام بعض أجزائه في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (القاهرة 1939 ـ 1945) ومن مؤلّفات ابن حيّان أيضاً كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس، وكان يقع في عشرة أجزاء، وقد عُثِرَ على خمس قطع منه: ـ الأولى وتتناول عهدي الحكم الأول ومعاوية الثاني وكانت عند المرحوم ليفي بروفنسال الذي استغلّها في كتابة الجزء الأوّل من مؤلّفِهِ الكبير عن تاريخ إسبانيا الإسلامية. وكان يعدُّ العدّة لنشرها لولا وافاه أجله المحتوم. القطعة الثانية وتتناول إمارة الأمير عبد الله الأموي في قرطبة وقد نشرها الراهب الإسباني ملتشور انطونيا) Melchor Antunaباريس 1937). القطعة الثالثة وتتناول الجزء الأخير من عهد عبد الرحمن الأوسط والشطر الأكبر من عهد ولده محمد ابن عبد الرحمن. وقد نشرها محمود مكي (بيروت 1973) والقطعة الرابعة تتناول معظم عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) ونشرها كورينتس وشالمينا ومحمود صبح (مدريد 1979) والقطعة الخامسة وتتناول عصر الحكم المستنصر ونشرها عبد الرحمن الحجي (بيروت 1965). والكتاب عموماً، كما هو واضح من عنوانه عبارة عن اقتباس من كتب المؤرّخين الذين سبقوه ولا سيّما عيسى الرازي، أما كتاب المتين فهو تأريخ للأحداث التي رآها المؤلف بنفسه. انظر Garcia Gomez: a proposito de Ibn Hayyan; AlAndalus 1946; vol. XI, Fasc. 2؛ انظر كذلك لنفس المؤلف: Garcia Gomez: Al-Hakam II y los Berebers segun un texto inedito de Ibn Hayyan, Al-Andalus 1948, vol. XIII Fasc. I

وتاريخ الزمان[331]، وكتاب ابن[332] الفرضي وابن بشكوال[333]، وصلة ابن الزبير[334] القاضي ومن اشتملت عليه من الرجال، وصلة ابن الأبّار[335]، وتاريخ ابن عسكر[336] وما فيه من أخبار.

وبادر بالإماطة، عن وجه الإحاطة[337]، ترى الأعلام سامية، وأدواح الفضلاء نامية، وأفراد الرجال يضيق بهم رَحْب المجال.

وسلا المسكينة لا ترجو لعشرتها، إلا ابن عِشْرتها، مهملة الذكر والإشادة، عاطلة من حلى تلك السادة، وإن كان بها أهل عبادة، وسالكي

(331) لا أعرف شيئاً عن هذا الكتاب الذي يشير إليه ابن الخطيب

(332) ابن الفرضي، مؤرّخ قرطبي (351 ـ 403هـ = 962 ـ 1013م) وهو صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس، نشره المستشرق الإسباني كوديرا Codera في الجزءين السابع والثامن من مجموعة المكتبة الأندلسية (مدريد 1891).

(333) ابن بشكوال، مؤرّخ قرطبي (494 ـ 578هـ = 1101 ـ 1183م) ألّف كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، وهو يكمل معجم ابن الفرضي السابق الذكر. وقد نشره كوديرا أيضاً في الجزءين الأول والثاني من المكتبة الأندلسية (مدريد 1883)

(334) القاضي أحمد بن الزبير، مؤرّخ جياني (نسبة إلى مدينة جيان Jaen) (627 - 708هـ = 1229 ـ 1308) كتب ذيلاً لصلة ابن بشكوال سمّاه (صلة الصلة) وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (الرباط 1938).

(335) ابن الأبّار، مؤرّخ بلنسي (595 ـ 658هـ = 1199 ـ 1260م) كتب تكملة أيضاً للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس سمّاه (كتاب التكملة لكتاب الصلة) نشر هذا الكتاب كوديرا Codera في الجزءين الخامس والسادس من مجموعة المكتبة الأندلسية (مدريد 1889) كذلك نشره ابن شنب، وجونثالث بالنثيا Gonzalez palencia وألاركون Alarcon. انظر (Enc. Islam II, p. 374) انظر كذلك (دكتور عبد العزيز عبد المجيد: ابن الأبّار، حياته وكتبه (معهد مولاي الحسن 1952)

(336) ابن عَسْكَر، مؤرّخ مالقة (584 ـ 636هـ = 1188 ـ 1228م) يروي المؤرّخون إنه كتب تاريخاً لمالقة، أتمّه ابن أخيه المسمّى ابن خميس. ويروي ابن الخطيب في إحاطته (نسخة الاسكوريال لوحة 152) أن القاضي الغرناطي أبا الحسن النباهي (القرن الثامن الهجري) كتب ذيلاً لكتاب ابن عسكر سمّاه ذيل على تاريخ مالقة.

(337) يقصد ابن الخطيب كتابه المشهور: الإحاطة في تاريخ غرناطة. وتوجد منه نسخ مختلفة في مكتبة الاسكوريال (رقم 1673) ومكتبة الأكاديمية التاريخية بمدريد (رقم 34، 142) ورواق المغاربة بالأزهر. وقد نشر عدة أجزاء من هذا الكتاب الأستاذ عبد الله عنان (القاهرة 1956) كما توجد طبعة قديمه لهذا الكتاب من جزءين (القاهرة 1319هـ).

سبيل زهادة، فكم بمالقة من وَلِيّ، وذو مكان عَلِيّ، ومن طَنْجاليّ وساحليّ[338]. وهذه حجج لا تدفع، ودلائل إنكارها لا ينفع، فمن شاء فليؤثر الاتصاف بالإنصاف، ومن شاء فليؤثر الخلاف وسجايا الأخلاف. فأنا - يعلم الله - قد عَدَلْتُ لما حكمت، ورفعت لما ألمت، وسكت عن كثير، وجلب فضل أثير، إذا لم تحوج إليه ضرورة الفخر، ولا داعية القهر. ولو شئت لجلبت من أدلّة التفضيل ما لا يدفع في عقده، ولا سبيل لنقده، لكن الله أغنى عن ذلك، وكفى بهذه المسالك، بياناً للسالك، وفضلاً بين المملوك والمالك. والله يشمل الجميع بنعماه، ويتغمّد الحيّ والميت برحماه.

وفصل الخطة أن لمالقه مزية بجلالها وكمالها وحسن أشكالها، ووفود مالها، وتهدّل أظلالها وشهرة رجالها، وظرف صنائعها وأعمالها.

ولسلا، الفضل لكن على أمثالها ونظرائها، من بلاد المغرب وأشكالها، إذ لا ينكر فضل اعتدالها، وأمنها من الفتن وأهوالها عند زلزالها، ومدفن الملوك الكرام بجبالها.

ومالقة، قطر من الأقطار، ذوات الأقدار والأخطار، وتحصيل الأوطار.

وسلا، مصبُّ الأمطار، ومرعى القطار، وبادية بكل اعتبار.

وهنا نلقي عصا التسيار، ونغضُّ من عنان الإكثار، وحسبُنا الله ونعمَ الوكيل. . . .

---

(338) انظر ما كتبه الرّحّالة ابن بطوطه عن هؤلاء المتصوّفة أثناء رحلته في مملكة غرناطة (تحفة النظار ص185)

انظر كذلك (Lévi Provençal : Le Voyage d,Ibn Battuta dans le royaume de Grenada (1361) - Melanges Wiliam Marçais (Paris 1961) p. 218 انظر كذلك (Garcia G?mez : El Parang?n entre Màlaga y Salé p. 194 y Nota. Op. Cit.)

الرسالة الثالثة

كتاب معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار

المجلس الأول

الحمد لله الذي انفردت صفاته بالاشتمال على أشتات الكمال، والاستقلال بأعباء الجلال المنزَّه عن احتلال الحلال، المتَّصفة الخلال بالاختلال، المعتمد بالسؤال لصلة النوال، جاعل الأرض كسكّانها متغايرة الأحوال، باختلاف العروض والأطوال، متّصفة بالمحاسن والمقابح عند اعتبار الهيئات والأوضاع والصنائع والأعمال على التفصيل والإجمال. فمن قام خيره بشرّه تحت خطّة الاعتدال، ومن قصر خيره عن شرّه كان أهلاً للاستعاضة والاستبدال ومن أربى خيره على شرّه وجب إليه شدُّ الرحال، والتمس بقصده صلاح الحال. وكثيراً ما اغتبط الناس بأوطانهم فحصلوا في الجبال على دعة البال وفازوا في الرمال بالآمال، حكمة منه في اعتمار ربع الشمال، وتفيء أكنافه عن اليمين والشمال إلى أن يدعو أهل الأرض لموقف العرض والسؤال، ويذهل عن الأهل عظيم الأهوال. والصلاة على سيّدنا ومولانا محمّد المُصطفى الذي أنقذ بدعوته الوارفة الظلال من ظلمات الضلال، وجاء برفع الأغلال، وتمييز الحرام من الحلال، والرضى عمَّن له من الصحب والآل موارد الصدق عند كذب الآل.

أما بعد، ساعدك السعد، ولان لك الجعد، فإن الإنسان وإن اتَّصف بالإحسان وإبانة اللسان، لما كان بعضه لبعض فقيراً، نبيهاً كان أو حقيراً، إذ مؤنته التي تصلح بها حاله، لا يسعها انتحاله، لزم اجتماعه وائتلافه على

سياسة يؤمن معها اختلافه، واتخاذ مدينة يقرُّ بها قراره، ويتوجَّه إليها ركونه وفراره، إذا رابه أضراره، ويختزن بها أقواته التي بها حياته، ويحاول منها معاشه الذي به انتعاشه. فإن كان اتخاذها جزافاً واتفاقاً، واجتزاء ببعض المآرب وارتفاقاً، تجاول شرّها وخيرها، وتعارض نفعها وضيرها، وفضلها في الغالب غيرها، وإن كان عن اختيار، وتحكيم معيار، وتأسيس حكيم، وتفويض للعقل وتحكيم، تنافر إلى حكمها النفر، وأعمل السفر، وكانت مساوئها بالنسبة إلى محاسنها تغتفر، إذ وجود الكمال فاضح للآمال، ولله درّ القائل:

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلّها كفى المرء فضلاً أن تُعدَّ معايبُهْ

وبحسب ذلك حدَّث من يُعنى بالأخبار ينقلها، والحِكَم يصقلها، والأسمار ينتقيها، والآثار يخلدها ويبقيها، والمجالس يأخذ صدورها، والآفاق يشيم شموسها وبدورها، والحلل يعرف دورها ويأكل قدورها، والطرف يهديها، والخفيَّات يبديها، وقد جرى ذكر البلدان، وذكر القاصي والدان، ومزايا الأماكن، وخصائص المنازل والمساكن، والمقابح والمحاسن، والطِّيب والآسن.

قال: ضمَّني الليل وقد سدل المُسَحَ راهبُه، وانتهت قرصة الشمس من يد الأمس ناهبه، ودلفت جيوشه الحبشيَّة وكتائبه، وفتحت الأزهار بشطِّ المجرَّة كواكبه، وجنحت الطيور إلى وكونها، وانتشرت الطوَّافات بعد سكونها، وعوت الذئاب فوق هضابها، ولوحت البروق ببيض عضابها وباهت الكفُّ الخضيب بخضابها، وتسللت اللصوص لانتهاز فُرَصها، وخرجت الليوث إلى قِسَمِها وحِصَصِها، في مناخ رحب المنطَلَق، وثيق الغلق، سامي السور كفيل بحفظ الميسور، يأمن به الذعرَ خائفُه، وتدفع معرَّة السماء سقائفه. يشتمل على مأوى الطريد، ومحراب المُريد، ومرابط خيل البريد، ومكاسع الشيطان المَريد، ذي قيّم كثير البشاشة، لطيف الحشاشة، قانع بالمُشَاشَة(339)، يروّج ويشي، ويقف على ريب الأعيان وأعيان

(339) المشاشة: رأس العظم اللين، يريد أن يقول إن صاحب هذا الخان رجل غير طمّاع يقنع بالقليل.

الريب فلا يشي. برَّ فأكثر، ومهَّدَ ووثَّر، وأدفأ ودثَّر، ورقَّى بسور استنزاله فأثَّر. فلمّا أزحت الكلفة وأقضمت جوادي العلفة، وأعجبتني من رفقاء الرفق الألفة، رمقت في بعض السقائف آمناً في زيّ خائف، وشيخاً طاف منه بالأرض طائف، وسكن حتى اليمامة والطائف، جنيب عكّاز ومثير شيب أثيث الوفرة، وقسي ضلوع تؤثّر بالزفرة، حكم له بياض الشيبة بالهيبة، وقد دار بذراعه للسبحة الرقطاء حنش، كما اختلط روم وحبش، والى يمينه دلو فاهق، وعن يساره تلميذ مراهق، وأمامه حمار ناهق، وهو يقول:

هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأكنَّت
أبوا أن يملّونا ولو أن أمَّنا تلاقي الذي يلقون منا لملَّت

حتى إذا اطمأن حلوله، وأصحب ذلوله، وتردَّد إلى قيِّم الخان زغلوله، واستكبر لما جاءه بما يهواه رسوله، استجمع قوّته واحتشد، ورفع عقيرته وأنشد:

أشكو إلى الله ذهابَ الشبابْ كم حسرة أورثني واكتئابْ
سدَّ عن اللذات باب الصبا فزارت الأشجان من كل باب
وغربة طالت فما تنتهي موصولة اليوم بيوم الحساب
وشرُّ نفس كلَّما هملجت في الغي لم تقبل خطام المتاب
يا رب شفّع في شيبي ولا تحرمني الزُّلفى وحسن المآب

ثم أنَّ، والليل قد جنَّ، فلم يبقَ في القوم إلا من أشفق وحنّ، وقال وقد هزَّته أريحيَّة، على الدنيا سلام وتحيّة، فلقد نلنا الأوطار وركبنا الأخطار، وأبعدنا المطار وافترقنا الأقطار، وحلبنا الأشطار. فقال فتاه، وقد افترَّت عن الدرّ شفتاه، مستثيراً لشجونه، ومُطْلِعاً لنجوم همّه من دجونه، ومدلاً عليه بمجونه. وماذا بلغ الشيخ من أمدها أو رفع من عمدها حتى يُقضى منه عجب، أو يُجلى منه محتجب؟ فأخذته حميَّة الحفاظ لهذه الألفاظ، وقال أي بُنَيَّ، مثلي من الأقطاب، يخاطب بهذا الخطاب!! وأيم الله لقد عقدتُ الحِلَق، ولبست من الدهر الجديد والخلَق، وفككت الغلق، وأبعدت في الصبوة الطلَق، وخضت المنون، وصدت الضبَّ والنون، وحذِقت

الفنون، وقهرت بعد سليمان الجنون، وقضيت الديون، ومرضَت لمرض العيون وركبت الهمالج، وتوسَّدتُ الوذائل[340] والدمالج، وركضت الفارِه، واقتحمت المهالك والمكاره، وجبت البلاد، وحضرت الجلاد وأقمت الفصح والميلاد، فعدت من بلاد الهند والصين بالعقل الرصين، وحذقت بدار قسطنطين كتاب اللطين[341] ودُست مدارس أصحاب الرّواق ورأيت غار الأرواح وشجر الوقواق، وشريت حلل اليمن بأبخس ثمن، وحللت من عدن، حلول الروح من البدن، ونظرت إلى قرن الغزالة إذا شَدَن، وأزمعت عن العراقَيْنْ سُرى القَيْنْ، وشربت من ماء الرافدين باليدين، وصلَّيت بمحراب الدمنى ركعين، وتركت الأثر للعين، ووقفت حيث وقف الحكمان[342]، وتقابل التركمان، وأخذت بالقُدُس، عن الحَبْرِ النُدُس، وركبت الولايا إلى بلاد العلايا بعد أن طفت بالبيت الشريف، وحصلت بطيبة على الخصب والريف في فصل الخريف، وقرأت بإخميم علم التصريف، وأسرعت في الانحطاط إلى الفسطاط والمصر الرحب الاختطاط، وسكنت مدينة الإسكندرية ثغر الرباط، وعجلت بالمرور إلى تكرور، فبعت الظل بالحرور، ووقفت بإسبانية إلى الهيكل المزور، وحصلت بأفريقية على الرفد غير المنزور، وانحدرت إلى المغرب انحدار الشمس إلى المغرب، وصمَّمت تصميم الحسام الماضي المضرب، ورابطت بالأندلس ثغر الإسلام، وأعلمت بها تحت ظلال الأعلام. فآهاً والله على عمر مضى وخلَّف مضضا، وزمن انقضى وشمل قضى الله من تفرقة ما قضى، ثم أجهش ببكائه، وأعلن باشتكائه وأنشد:

لبسنا فلم نُبْلِ الزمان وأبلانا   يتابع أُخرانا على الغيّ أولانا
ونغترُّ بالآمال والعمر ينقضي   فما كان بالرجعى إلى الله أَوْلانا

---

(340) كذا في الأصل

(341) يقصد اللغة اللاتينية

(342) الحكمان هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص، أثناء النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

فماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسى	فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
جزينا صنيع الله شرّ جزائه	فلم نرع ما من سابق الفضل أولانا
فيا ربُّ عاملنا بما أنت أهله	من العفو واجبرْ صدعنا أنت مولانا

ثم قال:

لقد مات أخوانيَ الصالحون	فما لي صديق ولا لي عماد
إذا أقبل الصبح وَلَّى السرور	وإن أقبل الليل وَلَّى الرقاد

فتملكتني له رقَّة، وهزَّة للتماسك مسترقة، فهجمت على مضجعه هجوماً أنكره، وراع شاءه وعكره، وغطّى بفضل رِدْنِه سُكّره، فقلت له على رِسْلِك أيها الشيخ، نابٌ حنَّت إلى حُوار، وغريب أنس بجوار، وحائر اهتدى بمنار، ومقرور قصد إلى ضوء نار، وطارق لا يفضح عيباً، ولا يثلم غيباً، ولا يُهمل شيئاً، ولا يمنع سبباً. ومنتاب يكسو الحُلَّة، ويُحسن الخُلَّه، ويفرغ الغلّة، ويملأ القلّة:

أجارَتنا إنا غريبان هاهنا	وكلُّ غريب للغريب نسيبُ

فلمّا وَقَم الهواجس وكبتها، وتأمَّل المخيلة واستثبتها، تبسَّم لما توسَّم، وسمح بعد ما جمح، فهاج عقيماً فتر، ووصل ما بتر وأظهر ما خبَّأ تحت ثوبه وستر، وماج منه البحر الزاخر، وأتى بما لا تستطيعه الأوائل ولا الأواخر.

وقال وقد ركض الفنون وأجالها، وعدَّد الحِكَم ورجالها، وفَجَّرَ للأحاديث أنهارها وذكر البلدان وأخبارها.

لقد سئمت مآربي	فكأنَّ أطيبها خبيث
إلا الحديث فإنه مثل اسمه أبداً حديث

فلما ذهب الخجل والوجل، وطال المرويّ والمرتجل، وتوسَّط الواقع وتشوَّفت للنجوم المواقع، وتوردت الخدود الفواقع، قلت أيها الحَبْر، واللج الذي لا يناله السَّبْر، لا حجبك قبل عمر النهاية القبر، وأعقب كسر أعداد عمرك المقابلة بالقبول والجبر، كأنَّا بالليل قد أظهر لوشْك الرحيل الهلع، والغرب الجشع لنجومه قد ابتلع، ومفرّق الأحباب وهو الصبح قد طلع، فأولِني عارفة من معارفك أقتنيها، واهزز لي أفنان حكمك أجتنيها. فقال

أمل مُيَسَّر، ومجمل يحتاج أن يفسر، فأوضح الملغز، وأَبِنْ لي الطلا من البرغز، وسل عمّا بدا لك فهو أجدى لك، فأقسم لا تسألني عن غامض، وحلو وحامض، إلا أوسعته علماً وبياناً، وأريتك الحق عياناً. قلت صف لي البلاد وصفاً لا يظلم مثقالاً، ولا يعمل في الصدق وخداً ولا إرقالاً[343]، وإذا قلتم فاعدلوا ومن أصدق من الله مقالاً. فقال سلْ ولا تَسلْ ولو راعك الأسل. قلت أنقِضْ لي البلاد الأندلسية من أطرافها، ومَيّز بميزان الحق بين اعتدالها وانحرافها، ثم اتلُها بالبلاد المرينية نسقاً، واجْلُ بنور بيانك غسقاً وهاتِ ما تقول في جبل الفتح[344].

قال فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الإقليم، ولطيفه السميع العليم، وقصص المهارق، وأفق البارق، ومُتْحِف هذا الوطن المباين للأرض المفارق. مأهل العقيق وبارق، ومحطُّ طارقها بالفتح طارق، إرَمُ البلاد التي لم يخلق مثله فيها، وذا المناقب التي لا تحصرها الألسنة ولا توفيها حجزه البحر حتى لم يبقَ إلا خصر، فلا يناله من غير تلك الفرصة ضيق ولا حصر. وأطلَّ بأعلاه قصر، وأظله فتح من الله ونصر، ساوَق سوره البحر فأعياه، قد تهلل بالكلس مُحيّاه، واستقبل الثغر الغريب فحيّاه، وأطرد صنع الله فيه من عدو يكفيه، ولطف يخفيه، وداء عضال يشفيه، فهو خلوة العُبَّاد ومقام العاكف والباد، ومسلحة مَنْ وراءه من العِباد، وشِقّة القلوب المسلمة والأكباد. هواؤه صحيح، وثراه بالخزين شحيح، وتَجِرُ الرباط فيه ربيح،

---

(343) الوخد والإرقال السير السريع

(344) جبل الفتح هو جبل طارق بن زياد وهو يسمّى اليوم .Gibraltar وهذا الجبل كان يطلق عليه قبل الفتح الإسلامي أسماء عديدة أهّمها الاسم الفينيقي Calpe ومعناه تجويف، إذ كان هذا الاسم يطلق أصلاً على مغارة كبيرة في هذا الجبل عرفت فيما بعد باسم مغارة القدّيس ميخائيل . San Miguel وبعد الفتح الإسلامي عرف هذا الجبل باسم الصخرة وجبل الفتح كما عرف أيضا بجبل طارق وهو الاسم المعروف به حتى اليوم. ومضيق جبل طارق أو بحر الزقاق، ذراع ضيّق من الماء يبلغ عرضه في أضيق جهاته حوالي 15 ك.م وهي مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري بين الشاطئين الإفريقي والإسباني. ومن هنا نشأ صراع تقليدي مستمر بين الشاطئ الأوروبي والشاطئ الإفريقي حول السيطرة على هذا المضيق، منذ أقدم العصور حتى وقتنا الحاضر انظر (Jose Carlos de Luna: Historia de Gibraltar)
راجع كذلك ما كتبه زيبولد Seybold من هذا الموضوع في (Ene. IsI. II p. 179. 180)

وحماه للمال والحريم غير مبيح، ووصفه الحسنُ لا يُشان بتقبيح، إلا أنه والله يقيه مّما يتّقيه، بعيد الأقطار، مُار بالقُطار[345] كثير الرياح والأمطار، مكتنف بالرمل المخلف، والجوار المتلف، قليل المرافق معدوم المشاكل والمرافق، هزل الكراع لعدم الازدراع، حاسر الذراع للقراع، مرتزق من ظل الشراع، كورة دَبْر[346] ومعتكف أزْل وصبر، وساكنه حي في قبر.

هو الباب إن كان التزاور واللقيا وغوث وغيث للصريخ وللسقيا

فإن تطرق الأيام فيه بحادث وأعزِزْ به قلنا السلام على الدنيا

قلت فأسْطَبُونَة[347] قال ذهبَ رسمها، وبقيَ اسمها، وكانت مظنَّة النعم الغزيرة، قبل حادث الجزيرة.

قلت فَمَرْبَلَّة[348]، قال بلد التأذين على السردين، ومحلُّ الدعاء والتامين، لمطعم الحوت[349] السمين. وحدقاتها مغرس العنب العديم القرين، إلى قبَّة أرين. قلت إن مرساها غير أمين، وعقارها غير ثمين، ومعقلها تركبه الأرض عن شمال ويمين.

قلت فَسُهَيْل[350]، قال حصن حصين، يضيق عن مثله هند وصين،

---

(345) القطار والقطور، السحاب الكثير القطر أي المطر

(346) في نسخة أخرى حبر، والدبر جماعة النحل والزنابير

(347) اسطبونه Estepona بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط غرب مدينة مالقة.

(348) مربلة، Marabella ، تقع على ساحل البحر المتوسط أيضا على مسافة 60 ك.م غربي مالقه.

(349) الحوت اصطلاح مغربي يعني السمك بوجه عام، ولا يزال مستعملاً إلى اليوم.

(350) سهيل، ميناء على البحر المتوسط يُسمّى اليوم Fuengirola ويقع على مسافة 28 ك.م شرقي مربله. وهناك جبل عالٍ يزعم أهل تلك الناحية أن النجم سهيل كان يرى من أعلاه ولذلك سمّاه العرب بهذا الاسم. وقد زار الرحّالة الطنجي المعروف بابن بطوطه هذه المنطقة في القرن الثامن الهجري أي في أيام ابن الخطيب، وأعطانا وصفاً يبيّن خطورة هذا الموقع، يقول: ومربله بليدة حسنة خصبة، ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجّهين إلى مالقه، فأردت التوجّه في صحبتهم، ثم إن الله تعالى عصمني بفضله، فتوجّهوا قبلي فأسروا في الطريق كما سنذكره وخرجت في أثرهم، فأمّا جاوزت حوز مربله ودخلت في حوز سهيل، مررت بفرس ميت في بعض الخنادق، ثم مررت بقفّة حوت (اصطلاح مغربي يعني سمك بوجه عام) مطروحة بالأرض، فرابني ذلك، كان أمامي برج الناظور فقلت في نفسي، لو ظهر هنا عدو لأنذر به صاحب البرج، ثم تقدمت إلى دار هنالك فوجدت عليه فرساً

ويقضي بفضله كل ذي عقل رصين، سبب عِزّه متين، ومادة قوته شعير وتين قد علم أهله مشربهم، وأمنوا مهربهم، وأسهلت بين يديه قراه، ماثلة بحيث تراه، وجاد بالسمك واديه، وبالحب ثراه، وعرف شأنه بأرض النوب، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب، إلا أن سواحله بلّ[351] الغارة البحرية، ومهبط السرية غير السرية، الخليقة بالحذر الحَرِيَّة، ومسرح السائمة الأميرية، وخدّامها كما علمت أولئك هم شرُّ البرية.

قلت فمدينة مالقة[352]، فقال: وما أقول في الدُرَّة الوسيطة، وفردوس

= مقتولاً. فبينما أنا هنالك إذ سمعت الصياح من خلفي. وكنت قد تقدمت أصحابي فعدت إليهم، فوجدت معهم قائد حصن سهيل فأعلمني أن أربعة أجفان للعدو ظهرت هنالك، ونزل بعض عمارتها إلى البر، ولم يكن الناظور بالبرج فمرّ بهم الفرسان الخارجون من مربله وكانوا اثني عشر، فقتل النصارى أحدهم وفرّ واحد وأسر العشرة وقتل معهم رجل حوات وهو الذي وجدت قفته مطروحة بالأرض. وأشار علي ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ليوصلني منه إلى مالقه، فبتُّ عنده بحصن الرابط المنسوبة إلى سهيل والأجفان المذكورة مرساة عليه، وركب معي بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقه. راجع (رحلة ابن بطوطه المسمّاة تحفة النظار في غرائب الأمصار، ج2، ص185)

(351) في نسخ أخرى تقرأ فل أو جل

(352) مالقة Malaga مدينة ساحلية معروفة بجنوب شرق الأندلس أسسها الفينيقيون عام 1200 ق.م وأعطوها اسم Malaca ومعناه المملح وذلك نسبة إلى مستودعات الأسماك المملحة التي كانت تعمل وتحفظ فيها. واشتهرت مالقه إلى جانب ذلك بزراعة الفواكه الممتازة لاسيما التين والرمان كما اشتهرت بصناعة الفخار ceramic أما من الناحية السياسية فكانت عاصمة الحموديين الأدارسة أيام ملوك الطوائف كما كانت تعتبر العاصمة الثانية بعد مدينة غرناطة أيام ملوك بني الأحمر. وقد كتب عنها كثير من الكتاب المسلمين وعلى رأسهم لسان الدين بن الخطيب كما سبق أن بينا نقتصر الآن على ما ذكره عنها ابن بطوطة باعتباره معاصرا لابن الخطيب يقول: (فوصلنا مدينة مالقه إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه. رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمانها المرسى الياقوتي لا نظير له في الدنيا. وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب... وبمالقه يصنع الفخار المذهب العجيب، ويجب منها إلى أقاصي البلاد. ومسجدها كبير الساحة، شهير البركة، وصحنه لا نظير له في الحسن، فيه أشجار النارنج البعيدة، ولما دخلت مالقه، وجدت قاضيها أبا عبد الله... الطنجالي قاعدا لجامع الأعظم ومعه الفقهاء ووجوده الناس يجمعون مالا برسم الأسارى الذي تقدم ذكرهم، فقلت والحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم وأخبرته بما اتفق لي بعدهم فعجب من ذلك وبعث إلى بالضيافة رحمه الله). انظر (رحلة ابن بطوطه ج2، ص186 ـ 187) راجع كذلك ما كتبه ابن سعيد المغربي في وصف مالقة (المقري: نفح الطيب

هذه البسيطة، أشهد لو كانت سورة لقرنت بها حِذْقَة[353] الإطعام، أو يوماً لكانت عيداً في الأيّام تبعث لها بالسلام مدينة السلام، وتُلقى لها يد الاستسلام، محاسن بلاد الإسلام. أي دار، وقطب مدار، وهالة إبدار، وكنز تحت جدار، قصبتها مضاعفة الأسوار، مصاحبة السنين مخالفة للأدوار، قد برزت في أكمل الأوضاع وأجمل الأطوار، كرسيّ ملكٍ عتيق ومَدْرج مسك فتيق، وإيوان أكاسره، ومرقب عُقاب كاسره، ومجلى فاتنة خاسره، وصفقة غير خاسره، فحماها منيع حريز، وديوانها ذهب إبريز، ومُذْهَب فخارها له على الأماكن تبريز، إلى مدينة تبريز، وحُلل ديباجها البدائع ذات تطريز. اضطبنت دار الأسطول، وساوقت البحر بالطول، وأسندت إلى جبل الرحمة ظهرها، واستقبلت ملعبها ونهرها، ونشقت وردها الأرج وزهرها، وعرفت قدرها، فأعلت مهرها، وفتحت جفنها على الجفن غير الغضيض، والعالم الثاني ما بين الأوج إلى الحضيض. دار العجائب المصنوعة، والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة، حيث الأواني تلقي لها يدَ الغَلَبْ، صنائع حَلَب، والحلل التي تُلِحُّ صنعاء فيها بالطلب، وتدعو إلى الجلب، إلى الدست الرهيف ذي الورق الهيف. وكفى برمّانها حقاق ياقوت، وأمير قوت، وزائراً غير ممقوت. إلى المؤاساة، وتعدد الأساة، وإطعام الجائع والمساهمة في الفجائع، وأي خُلُق أسرى من استخلاص الأسرى، تبرز منهم المخدَّرة حسري، سامحة بسواريها ولو كانا سواري كسرى، إلى المقبرة التي تسرح بها العين، ويستهان في ترويض روضاتها العين. إلى غُللها[354] المحكمة البنيان، الماثلة كنجوم السماء للعيان، وافتراض سكناها أو أن العصير على الأعيان ، ووفور أولي المعارف والأديان.

وأحسن الشعر مما أنت قائله   بيتٌ يقال إذا أنشدته صَدَقَا

= ج1، ص186) والحميري في الروض المعطار ص177 ـ 179، وياقوت في معجم البلدان ص367) انظر كذلك (Guillen Robles: Malaga musulmana) وما كتبه ليفي برفنسال عن هذه المدينة في ((Enc. Isl. p. 199-200

(353) الحذقة هي الاحتفال بإتمام الصبي قراءة القرآن

(354) لعل الغلل هنا المباني الريفية التي يلجأ إليها الأهالي لجمع العنب

وعلى ذلك فطينها يشقى به قطينها، وأزبالها تحيِّي بها سبالها، وسروبها يستملُّ منها مشروبها. فسحنها[355] متغيّرة، وكواكب أذهانها النيّرة متحيّرة، وأقطارها جدّ شاسعة، وأزقّتها حرجة غير واسعة، وآبارها تفسدها أزفارها وطعامها لا يقبل الاختزان، ولا يحفظ الوِزان، وفقيرها لا يفارق الأحزان، غير القسط أصواتها، وأرحيتها تطرقها النوائب، وتصيب أهدافها السهام الصوائب، وتعد لها الجنائب[356]، وتستخدم فيها الصَّبا والجنائب[357] وديارها الآهلة قد صُمَّ بالنزائل صداها، وأضحت بلاقع بما كسبت يداها، وعين أعيانها أَثَرْ، ورسم مجادتها قد دثر، والدهر لا يقول لعاً لمن عثر، ولا ينظم شملاً اذا انتثر. وكيف لا يتعلّق الذام ببلد يكثر به الجذام، محلّة بلواه آهله، والنفوس بمعرّة عدواه جاهله.

ثم تبسَّم عند انشراح صدر، وذكر قصَّة الزبرقان بن بدر:[358]

تقول هذا مُجاج النحل تمدحه وإن ذممت فقل قيء الزنابير
مدحٌ وذمٌ وعين الشيء واحدة إن البيان يُرِي الظَلماء في النور

فَبلَيْش[359] قال حادها المطر الصَّيّب، فنعم البلد الطَّيِّب، حلى ونحر وبُرّ ولوز وتين، وسبب من الأمن متين، وبلد أمين، وعقار ثمين، وفواكه عن شمال ويمين، وفلاحة مدعى انجابها لا يمين، إلا أن التشاجر بها أَنْمَى

---

(355) في نسخ أخرى كتبت: فساحاتها، فسخمها

(356) الجنائب هنا بمعنى الدواب

(357) الصبا والجنائب بمعنى رياح الشمال والجنوب

(358) هذا الشعر كتبه سيمونيت على شكل نثر راجع (Simonet: Op. cit. p. 7)

(359) بليش، تحريف لكلمة اللاتينية Vallis بمعنى وادي، وتسمّى الآن Velez وتقع في غرب مالقه بنحو 34 ك.م وقد وصفها ابن بطوطه بقوله: وهي مدينة حسنة، بها مسجد عجيب، وفيها الأعناب والفواكه والتين مثل مالقه (رحلة ابن بطوطة، ج2، ص187). ونظراً لأن اسم بليش قد أطلق على أماكن أندلسية أخرى، فقد سمّيت هذه البلدة باسم Velez Malaga لجوارها مدينة مالقه. وسنرى في الصفحات القليلة القادمة أن ابن الخطيب يعيد ذكر بليش مرة أخرى، وهو في الواقع يقصد بلدة أخرى بهذا الاسم تعرف اليوم باسم Velez Rubio وتقع بجوار مدينة لورقه. راجع (F.Simonet: Deacripcion del reino de Granada p. p. 93,111)

من الشجر، والقلوب أقسى من الحجر، ونفوس أهلها بيِّنة الحسد والضجر وشأنها غيبة ونميمة، وخبيث مائها على ما سوَّغ الله من آلائها تميمة.

قلت فَقُمَارِش[360]، قال مَوْدِع الوفر، ومحطُّ السفر، ومزاحم الفرقد والغُفْر، حيث الماء المَعين، والقوت المُعين، لا يخامر قلب الثائر به خطرة وَجَلِه، إلا من أجله، طالما فزعت إليه نفوس الملوك الأخائر بالذخائر، وشَقَّت عليه أكياس المرائر في الضرائر وبه الأعناب التي راق بها الجناب، والزياتين واللوز والتين، والحرث الذي له التمكين، والمكان المكين، إلا أنه عُدِم سهله، وعظم جهله، فلا يصلح فيه إلا أهله.

قلت فالمُنَكَّب[361]، قال مرفأ السفن ومحطّها، ومنزل عباد المسيح ومختطّها. بلدة معقلها منيع، وبُرْدُها صنيع، ومحاسنها غير ذات تقنيع. القصر المفتّح الطيقان، المحْكَم الاتقان، والمسجد المشرف المكان، والأثر المنبئ عن كان وكان، كأنه مِبْرَدٌ واقف، أو عمود في يد مثاقف، قد أخذ من الدهر الأمان، تَشَبَّه بصرح هامان، وأرهفت جوانبه بالصخر المنحوت، وكاد أن يصل ما بين الحوت والحوت[362] غَصَّت بقصب السكر أرضُها، واستوعب فيها طولها وعرضها زبيبها فائق، وجنابها رائق.

وقد مُتَّ إليها جبل الشوار[363] بنسب الجوار، منشأ الأسطول، فوغدُها

---

(360) قمارش: وتسمى الآن Comares وتقع بالقرب من مدينة غرناطة وكانت تعد من الحصون القوية الهامة في مملكة غرناطه

(361) المنكب: يبدو انه اسم عربي بمعنى الحصن المرتفع ويُسمّى اليوم Almunecar أما الاسم القديم لهذا المكان فهوSexi وهو مرفأ ساحلي مرتفع في جنوب شرق الأندلس بمقاطعة غرناطة. وبهذا المرسى نزل الأمير عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس في ربيع الأول سنة 138هـ (سبتمبر 755م) وقد لُقّب عبد الرحمن بعد ذلك بالداخل. راجع ما كتبه الإدريسي عن هذه البلدة وآثارها في كتابه (نزهة المشتاق ص 199، تشر دوزي، دي خويه 1866) راجع كذلك (الروض المعطار ص186)

(362) الحوت الأول بمعنى السمك والحوت الثانية بمعنى نجم والمعنى هنا مجازي يريد أن يصور عظم ارتفاع هذا القصر.

(363) لعله يريد بجبل الشوار، جبل شلير وهو تحريف للاسم اللاتيني القديم Solorius أو Mons Solarius أي جبل الشمس وذلك لشدة لمعانه نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على قممه المغطّاة بالثلوج الناصعة صيفاً وشتاء. ويعرف هذا الجبل اليوم باسم سييرا نيفادا Sierra Nevada أي الجبال المثلجة. انظر (الروض المعطار ص112) انظر كذلك (Simonet, OP. cit. p 47)

غير ممطول، وأمده لا يحتاج إلى الطول. إلا أن أسمها مظنة طِيَرَة تستنف[364]، فالتنكيب عنها يُؤْتَنَف، وطريقها يمنع شرّ سلوكها، من تردّد ملوكها وهواؤها فاسد، ووباؤها مستأسد، وجارها حاسد. فإذا التهبت السماء، وتغيّرت بالسمائم المُسَمَّيَات والأسماء، فأهلها من أجداث بيوتهم يخرجون، وإلى جبالها يعرجون، والوَدَك[365] إليها مجلوب، والقمح بين أهلها مقلوب، والصبر إن لم يبعثه البحر مغلوب، والحرباء بعرائها مصلوب، والحُرُّ بدم الغريب مطلوب.

قلت فشلوبانية[366]، قال أختها الصغرى، ولدتها التي يُشْغَلُ بها المسافر ويُغرى، حصانة معقل، ومرقب مُتَوَقَّل، وغاية طائر، وممتنع ثائر، ومتنزَّه زائر. تركب بدنها الجداول المرفوعة، وتخترق جهاتها المذانب المفردة والمشفوعة. ففي المصيف تلعب بالمعقل الحصيف، وفي الخريف، تسفر عن الخصب والريف. وحُوتُ هذه السواحل أغزر من رمله، تغدو القوافل إلى البلاد تحمله. إلى الخضر الباكرة، والنعم الحامدة للرَّبّ الشاكرة.

وكفى بمُتْرايل[367] من بسيطها محلّة مشهورة، وعقيلة مبهورة، ووداعة في السهل غير مبهورة. جامعها حافل، وفي حُلَّة الحسن رافل، إلا أن أرضها مستخلص السلطان بين الأوطان، ورعيتها عديمة الأعيان، مروعة على الأحيان. وتختصّ شلوبانية بمزية البنيان، لكنها غاب الحمِيَّات، غير أمينة على الاقتيات، ولا وسيمة الفتيان والفتيات.

---

(364) لعلها تشتنف: وشنف إليه شنفاً نظر إليه كالكاره له والمعترض عليه

(365) الودك: الدسم من اللحم والشحم

(366) شلوبانيه أو سلوبينيه وهو تحر يف للاسم القديم Salambina وتسمى الآن Salobrena وتقع على ساحل البحر المتوسط على مسافة قدرها 16 ك م شرقي المنكب. وإلى هذه المدينة ينسب العالم النحوي المعروف أبو علي الشلوبين. وأخباره موجودة في مراجع عديدة ذكرها ليفي بروفنسال في كتاب الروض المعطار ص136 حاشية 3

(367) مترايل وهي الآن Motril وتبعد عن مدينة غرناطة بنحو 74 ك م من ناحية الساحل شرقاً. وهي لغاية الآن تعتبر من أهم بلاد غرناطة، ومركز هام للمواصلات وزراعة قصب السكر. وقد أشار ابن الخطيب في المتن إلى أن أراضيها كانت من مستخلصات السلطان أي من ممتلكاته الخاصة.

قلت فَبَرْجَة[368] قال تصحيف وتحريف، وتغيير في تعريف. ما هي إلا بهجة ناظر، وشرك خاطر، ونسيجه عارض ماطر، ودارين[369] نفس عاطر. عقارها ثمين، وحرمها أمين، وحسنها بادٍ وكمين. عقود أعنابها قد قرطت آذان المَيْس[370] والحوْر[371]، وعقائل أدواحها مبتسمة عن ثغور النّوْر، وبسيطها متواضع عن النجد، مرتفع عن الغور. وعينها سلسالة، وسنابك المذانب منها مسالة، تحمل إلى كل جهة رسالة. ودورها في العراء مبثوثة، وركائب النواسم بينها محثوثة. لا تشكو بضيق الجوار، واستكشاف العوار، وتزاحم الزوّار. مياه وظلال، وسحر حلال، وخلق دمث كثَراها، ومحاسن متعدّدة كقراها، ولطافة كنواسمها عند مَسْراها، وأعيان ووجوه نُجلُ العيون بيض الوجوه. غَلَّتهم الحرير، ومجادتهم غنية عن التقرير، إلا أن متبوأها بسيط مطروق، وقاعدتها فروق، ووتدها مفروق، ومعقلها خَرِب، كأنه أحدب جَرِب، إن لم ينقل إليه الماء، برح به الظماء، ولله درّ صاحبنا إذ يقول:

يا بسيطاً بمعاني بَرْجَة ... أصبح الحسن به مُشْتهراً
لا تُحرك بفخار مِقْوَلاً ... فلقد أُلقِمْتَ منها حجراً

والبُرُّ بها نزر الوجود، واللحم تِلْوُه وهما طيّبتا الوجود، والحِرَف بها ذاوية العود، والمسلك إليها بعيد الصعود.

قلت فدَلاية[372]، قال خير رعاية وولاية، حرير ترفع عن الثمن،

(368) برجه وكانت تسمى قديماً Virgi وتسمى اليوم Berja وتقع في إقليم المرية بشرق الأندلس

(369) دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند فينسب إليها. والنسبة إليها داري. قال الفرزدق:

كأن تريكة من ماء مزن ... وداري الذكي من المدام

انظر (مراصد الاطلاع ج2، ص 509).

(370) الميس بفتح الميم شجر عظيم يتّخذ منه الرحال. وهو يقرب إلى الجوز الرومي إلا أن ورقه أرق وأصفر له حب أسود أكبر من الفلفل. والميسة ضرب من الكروم ينهض على ساق.

(371) الحور بتسكين الواو نوع من الشجر أيضاً

(372) دلاية وتسمى الآن Dalias، وهي قرية في ولاية المريه، وتقع في جنوب شرق برجه بنحو تسعة كيلو مترات.

وملح يستفاد على الزمن، ومسرح معروف، وأرض ينبت بها جبن وخروف، إلا أنها لسرايا العدو البحري مَجَرُّ العوالي، ومحل الفتكات على التوالي. فطريقها هوى ومشاهد، والعارف في مثلها زاهد.

قلت فمدينة المرِيَّة[373] قال المرية، هنية مرية، بحريّة بريّة، أصلية سرية، معقل الشموخ والإباية، ومعدن المال وعنصر الجباية، وحبوة[374] الأسطول غير المعلّل بالنصر ولا الممطول، ومحطّ التجار، وكرم النِجار، ورعْي الجار. ما شئت من أخلاق معسولة، وسيوف من الجفون السود مسلولة، وتكك محلولة، وحضارة تعبق طيباً، ووجوه لا تعرف تقطيباً، ولم تزل مع الظرف دار نُسَّاك، وخلوة اعتكاف وإمساك. أرغم أهلُها أنف الصليب لما عجم منها بالعود الصليب، وأنف لامها وألفها حكم التغليب، فأنقلب منها آيساً[375] عند التقليب:

= راجع (الروض المعطار (الترجمة الفرنسية) ص 56) انظر كذلك: (M. Asin Palacios: Contribucion a la toponimia arabe de Espana p 104)

(373) راجع ما قلناه في صفحة (30) حاشية (1)

(374) الحبوة بضم الحاء أو فتحها، ما يحتبى به الرجل من عمامة أو ثوب أو سيف ليستند عليه إذ لم يكن للعرب في البوادي جدران تستند إليها في مجالسها والمراد هنا القاعدة التي يرسو فيها الأسطول.

(375) يشير ابن الخطيب بهذه العبارة إلى المؤامرة الكبرى التي تمت سراً بين مملكتي قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة المسلمة في وقت واحد في عام 1309م (709هـ). على أن تقوم الجيوش القشتالية بمهاجمة مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras من الجنوب، بينما تهاجم الأساطيل الأراجونية ثغر المرية من الشرق، ثم يتقابل الطرفان في العاصمة مدينة غرناطة. غير أن هذا المشروع انتهى بالفشل إذ استطاعت كل من المدينتين الصمود أمام هذا الاعتداء المفاجيء، ونخصُّ بالذكر مدينة المرية التي تعرضت لأشد هجوم عرفته في تاريخها. ولهذا اهتمَّ المؤرخون القدامى والمحدثون بهذا الهجوم على المرية وكتبوا عنه في شيء من التفصيل.
راجع (ابن القاضي: درّة الحجال في غرة أسماء الرجال، ج1، ص 71 وما بعدها (نشر علوش Alouche، رباط 1934) ولأهمية هذا النص الذي أورده ابن القاضي فقد قام بترجمته عدد من المستشرقين إلى لغات مختلفة، فهناك ترجمة فرنسية لعلوش I.S.Allouche في (Hesperis, 1933, XVI, p.p.122- 138) وترجمة أخرى إسبانية لسانشث البرنث في (Sanchez Zurita : Los anales de la Corona de Aragon, I, P.P. 435 - 437, zaragoza 1688) & Giménez Soler : El sitio de Almeria (1309) p. 301 - 302, & Lévi Provençal : Un Zagal hispanique sur l'expédition aragonaise de 1309 Contre Almeria. (Al Andalus, Vol. VI, fasc. 2, 1941)
راجع كذلك Albornoz : La Espana Mushlmana p, 368 - 392

يُسائل عن أهل المرية سائل وكيف ثبات القوم والروع باسرُ
قطا دارج في الرمل في يوم لذّة ولهو ويوم الروع فُتْخٌ[376] كواسر

بحرها مرفأ السفن الكبار، وكرسيّها هو العزيز عند الاعتبار، وقصبتها سلوة الحزين، ومودع الخزين، وفلك المتنزين. وهي محل الحلل المجدية والأردية المشفوعة الأردية، ولواديها المزية على الأودية. حُجّة الناظر المفتون، المكسو الخصور والمتون، بالأعناب والزيتون. بلد الكتّان والرخام، والذمم الضخام، وحِمّتُها[377] بديعة الوصف، محكمة الرصف مقصودة للعلاج والقصف. حرّها شديد، وذكرها طويل مديد، وأثرها على البلاد جديد إلا أن مغارمها ثقيلة، وصفحة جوّها في المحول صقيلة، وسماؤها بخيلة، وبُروقها لا تصدق منها مَخلية، وبُلالة النطية منزورة العطية، وسعرها ليس من الأسعار غير الوطية، ومعشوق البُرّ[378] بها قليل الوصال، وحمل البحر صعب العضال، وهي متوقعةٌ إلا أن يقي الله طلوع النضال، وعادة المصال.

قلت فَطَبَرْنَش[379] من شرقيها، قال حاضرة البلاد المشرقية، وثنية البارقة الأفقية، ما شئت من تنجيد بيت، وعصرٍ وزيت، وإحياء أنس مَيت، وحمام طيب، وشعب تنثر فيه دنانير أبي الطيِّب[380]، إلا أنها محيلَةَ الغيوث، عادية الليوث، متحزبة الأحزاب، شريفة الأعزاب. ولو شكر الغيث شعيرها، أخصبت البلادَ عيرُها.

قلت فَبَيْرَه[381]، قال بلدة صافية الجو، رحيبة الدَّو[382]، يسرح بها

---

(376) الفتخ: الأسد ذو الكف العريض
(377) سيعيد الكلام (عن بلدة الحمه) في الصفحات القليلة التالية
(378) القمح
(379) طبرنش وتسمى الآن Taber nas وهو اسم لاتينى بمعنى حوانيت وأكواخ. انظر :Simonet) Op. cit. p. 108)
(380) يقصد شعر أبي الطيب المتنبي في شعب بوان حيث يصف اختراق أشعة الشمس للأشجار فتنعكس على الأرض على شكل قطع مستديرة تشبه الدنانير
(381) Vera راجع صفحة (40) حاشية (1) من هذا الكتاب
(382) الدو أو الدوية أي البرية

البعير، ويجمُّ بها الشعير، ويقصدها من مُرْسِيَة وأحوازها العير. فساكنها بين تجرٍ وابتغاء أجر، ووواديها نيلِيّ الفيوض[383] والمدود، مصري التخوم والحدود، إن بلغ إلى الحدّ المحدود، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود، إلا أنها قليلة المطر، مقيمة على الخطر، مثلومة الأعراض والأسوار، مُهطعة لداعي البوار. حليفة الحسن المغلوب، معلّلة بالماء المجلوب، آخذة بأكظام القلوب، خاملة الدور، قليلة الوجوه والصدور، كثيرة المشاجرة والشرور برّها أنزر من بِرّها في المعتمر والبور، وزهد أهلها في الصلاة شائع في الجمهور، وسوء مَلَكَةِ[384] الأسرى من الذائع بها والمشهور.

ما قام خيرك يا زمان بِشَرِّهِ أوْلى لنا ما قلَّ منك وما كفا

قلت فَمُجَاقِر[385]، قال حصن جديد، وخير مديد، وبحر ما على إفادته مزيد، وخصب ثابت ويزيد. ساكنه قد قضى الحج أكثره، وظهر عين الخير فيه وأكثره، إلا أنه لا تلفى به للماء بُلالَة[386]، ولا تُستشفُّ للجود عُلاله[387].

قلت فقَنْتُورية[388]، قال يسار يمينها، وغبار كمينها، ومعمول يمينها، يجود بها الجبن والعسل، ومن دونها الأسل، وأما الخبز فلا تسل، وإن كانت أحسن شكلاً فأقلّ شرباً وأكلاً، وأجفا أهلاً، وأشدّ جهلاً، وأعدم علاً ونهلاً. وأهلها شرار، أضلعهم بالظلماء حرار، لا تُلفى بها نَغْبة[389] ماء، ولا يُعدم مشقّة ظلماء، ولا تتوّج أفقها إلا في الندرة قزعة سماء.

قلت فبُرْشَانة[390]، قال حصن مانع، وجناب يانع أهلها أولوا عداوة،

---

(383) لعله يقصد نهر شفورة (Segura في مرسيه) الذي كان يفيض في وقت معلوم مثل النيل.

(384) يقال حسن الملكة إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه

(385) مجاقر، وهي الآن Mujacar وتقع في جنوب بيره. انظر(Simonet : Op. cit. P. 112)

(386) البلالة: قدر ما يبل به الشيء.

(387) العلالة بالضم ما يتعلل به، البقية التي في الكأس.

(388) Cantoria راجع ما سبق ص24 حاشية (13).

(389) النغبة: بضم النون وفتحها، الجرعة.

(390) Purchena انظر ما قيل عن هذه المدينة في صفحة 24 حاشية (10) من هذا الكتاب

لأخلاق البداوة، وعلى وجوههم نضرة وفي أيديهم نداوة، يداوون بالسُّلافة[391] علل الجلافة، ويؤثرون علل التخلف على لذّة الخلافة، فأصبح رَبْعُهم ظرفاً قد مُلئ ظرفاً. فللمجون به بسوق، وللفسوق ألف سوق، تُشَمَّر به الأذيال عن سوق، وهي تبين بعض بيان عن أعيان، وعلى وجوه نسوانها طلاقة، وفي ألسنتهن ذَلاقة، ولهنّ بالسفارة عن الفقراء علاقة، إلا أن جفنها ليس بذي سورٍ يقيه، مما يتّقيه، ووغدها يتكلّم بملء فيه، وحليمها يشقى بالسفيه ومُحياها تكمن حيّة الجور فيه.

قلت فأورية[392]، قال بلدة الجبن والعسل، والهواء الذي يذهب بالكسل، وأما عن الماء البرود فلا تسل. أدامُه الصيد الذي لا يتعذر وقوته الشعير الذي يُبْذَرْ، إلا أنه بادي الوحشة والانقطاع، والإجابة لداعي المخالفة والاهطاع[393]، وحسن الجناب، عرى من ثمرات النخيل والأعناب حقيق لمعرّة العدو والاجتناب.

قلت فبَلِّيش[394]، قال ثغر قصِيّ، على الأمن عصيّ، ويتيم ليس عليه غير العدو وصي. ماؤه مَعين، وحُورُهُ عين، وخلوته على النسْك وسواه تعين. وبه الحمام، والنطف الجمام. ولأهله بالصيادة اهتمام، وعسله إذا اصطَفَّت العسول إمام. إلا أنها بلدة منقطعة بائنة، وبأحواز العدو كائنة، ولحدود لُورَقَة[395] فتحها الله مشاهدة معاينه، وبُرُّها الزهيد القليل، يتحف به العليل، وسبيل الأمن إليها غير سبيل، ومرعاها لسوء الجوار وبيل.

---

(391) السلافة ما سال قبل العصر وهو أفضل الخمر.

(392) أورية Oria بلدة في ولاية المرية تتبع مركز Purchena برشانه.

(393) أهطع الرجل أي أسرع خائفاً.

(394) المقصود هنا بليش الشقراء Velez Rubio بجوار مدينة لورقه، وليس بليش مالقه Velez Malaga. راجع ما سبق أن قلناه في صفحة (54) حاشية (4).

(395) لورقة (Lorca) مدينة قديمة بينها وبين مرسية نحو ستين كيلومتراً، وتقع على جبل مرتفع، ولذا كانت تعتبر قلعة مدينة مرسية في الحروب التي تنشب بين المسلمين والمسيحيين. وقد سقطت في يد الإسبان عقب سقوط مدينة مرسيه في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي انظر (الروض المعطار ص171) راجع كذلك ما كتبه عنها ليفي بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية.

قلت فمدينة بَسْطة[396]، قال وما بسطة بلد خصيب، ومدينة لها من اسمها نصيب، دَوْحها مُتدلّ، وطيب هوائها غير متبدل وناهيك من بلد اختص أهله بالمران في معالجة الزعفران، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران. عمّت أرضها السُّقيا فلا تُخلف، وشملتها البركة تختص من يشاء الله ويزلف. يتخلل مدينتها الجدول المتدافع، والناقع للعلل النافع. ثياب أهلها بالعبير تتأرّج، وحورها تتجلى وتتبرج، وولدانها في شط أنهارها المتعدّدة تتفرج. ولها الفحص الذي يسافر فيه الطرف سعياً، ولا تعدم السائمة به رياً ولا رعياً.

ولله در القائل:

في بلدة عَوَّذتُ نفسي بها إذ في اسمها طه وياسينُ

ألجأني الدهر إلى عالم يؤخذ منه العِلْمُ والدين

إلا أن تربتها تفضح البناء، وإنْ صَحِبَه الاعتناء، فأسوارها تسجد عند الإقامة وخندقها لاكسارها[397] تلقامه[398] فهي لذلك خير دار مقامه. ورياحها عاصفة ورعودها قاصفة، وحاميتها تنظر إلى الهياج، من خلف سياج، فالعدوّ فيها شديد الفتكات، مُعمل الحركات، وساكنها دائم الشكات، وحدُّها فليل وعزيزها لتوقع المكروه ذليل.

قلت فأُشْكَر[399]، قال نِعْم البسيط المديد، والرزق الجديد، والسعي العديد، والصيد القديد. تركب الجداول فحصها، ويأبى الكمال نقصها، ويلازم ظل الخصب شخصها. مسرح البهائم، ومعدن الرعي الدائم، إلا أن معقلها لا يمنع، ومكانها يحوم عليه الحادث الأشنع، ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع.

(396) Baza راجع صفحة (21) حاشية (1) من هذا الكتاب.

(397) اكسار وكسور ما تكسر وتثنى على الأرض.

(398) يقال رجل تلقام وتلقامة أي عظيم اللقم. أي أن خندقها ممتلئ بما تكسر من الأسوار والمباني.

(399) أشكر بلدة في ولاية غرناطة وتسمّى الآن Huescar وتقع في شمال بسطه. وكانت هذه البلدة موضع حروب ومنازعات بين المسلمين والنصارى أيام ابن الخطيب راجع Simonet Op. cit. p. (63).

قلت فأنْدَرَشْ[400]، قال عنصر جباية، ووطن به أولو إباية، حريرها ذهب، وتربها تبر ملتهب، وماؤها سلسل، وهواؤها لا يلفى معه كسل، إلا أنها ضيّقة الأحواز والجهات، كثيرة المعابر والفوهات، عديمة الفرح والمتنزّهات، ثقيلة المغارم، مستباحة المحارم، أعرابها أولوا استطالة، وأبناء مترفيها كثيرو البطالة، فلا يعدم الزرع عدواناً، و لا يفقد عَيْرُ الشر نَزواناً، وطريقها غير سوي، وساكنها ضعيف يشكو من قوي.

قلت فَشُبالِش[401]، قال معدن حرير خلصت سبائكه، وأثرى بزازه وحائكه، وتهدّلت حجاله وتمهّدت أرائكه، وجباية سَهُلَ اقتضاؤها وحمت بيضاؤها، إلا أنه وطن عُدم إدامه، وبيت ظهر اهتدامه، وفقدت به حيل التعيُّش وأسبابه، ومحل لا يقيم به إلا أربابه.

قلت فمدينة وادي آش[402]، قال مدينة الوطن، ومناخ من عبر أو قطن، للناس ما ظهر ولله ما بطن. وضع سديد، وبأس شديد، ومعدن حديد، ومحل عدّة وعديد، وبلد لا يعتلُّ فيه إلا النسيم، ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم. كثيرة الجداول والمذانب، مخضرَّةُ الجوانب. إلى الفواكه الكثيرة والكروم الأثيرة، والسقي الذي يسد الخلّة، ويضاعف الغلّة، وسندها معدن الحديد والحرير، ومعقلها أهل للتاج والسرير. وهي دار أحساب، وإرث واكتساب، وأدب وحساب. وماؤها مجاج الجليد، وهواؤها يُذَكّي طبع البليد، إلا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش، وناقهها يتعذّر عليه الانتعاش، وشيخها يخطو على قصبة الارتعاش، فهي ذات برد، وعكس وطرد، ما شئت من لَحيٍ راعد، ومقرور على الجمر قاعد، ونفس صاعد،

---

(400) أندرش Andarax، بلدة من أعمال المريه، غير موجودة الآن ولكن لا يزال اسم أندرش يطلق على نهر هناك ينبع من جبال شلير Sierra Nevada وينحدر شرقاً وجنوباً ثم يصب مياهه في البحر المتوسط عند المريه.

(401) حصن شبالش وهو الآن Jubiles، ويقع عند أطراف جبال شلير أو جبل الثلج. وقد تردد اسم شبالش كثيراً في الحروب الأهلية التي قامت في غرناطة على مر عصورها الإسلامية المختلفة راجع (Simonet: Op. cit. p,66).

(402) Guadix انظر ما سبق أن قيل عن هذه المدينة في صفحة (18 حاشية رقم (4).

وفتنة يَعِدُ بها واعد، وشرور تسل الخناجر، وفاجر يسطو بفاجر، وكلف بهاجر واغتمام تبلغ به القلوب الحناجر، وزمهرير تجمد له المياه في شهر ناجر[403]. وعلى ذلك فدرّتها أسمع للحالب، ونشيدها أقرب للطالب، ومحاسنها أغلب والحكم للغالب.

قلت فَفِنْيانة[404]، قال مدينة، وللخير خدينة[405]. ما شئت من ظبي غرير، وعَضِبٍ طرير، وغلة حرير، وماء نمير، ودوام للتخزين وتعمير. إلا أن بردها كثير، وَوَدْقها[406] نثير، وشرارها لهم في الخيار تأثير.

قلت فمدينة غرناطة[407]، قال حضرة سنية، والشمس بها عن مدح المادح غنية. كبرت عن قيل وقال، وجلت عن وامق[408] وقال[409]، وقيدت العقل بعاقل، وأمنت حال حسنها من انتقال. لو خيرت في حسن الوضع لما زادت وصفاً، ولا أحكمت رصفاً، ولا أخرجت أرضها ريحاناً ولا عَصْفاً[410]، ولا أخذت بأشتات المذاهب، وأصناف المواهب جداً ولا قصفاً. كرسيُّها ظاهر الأشراف، مطلٌ على الأطراف، وديوانها مكتوب بآيات الأنفال والأعراف، وهواؤها صاف، وللأنفاس مصاف. حجبت الجنوب عنها الجبال، فأمنت الوباء والوبال، وأصبح ساكنها غير مبال، وفي جُنَّة من النبال، وانفسحت للشمال، واستوفت الشروط على الكمال، وانحدر منها مُجاج الجليد على الرمال، وانبسط بين المرج الذي نضرة النعيم لا تفارقه، ومداري النسيم تفلى بها مفارقه. ريع من واديه بثعبان مبين، إن لدغ تلول شطه تَلها للجبين، وولد[411] حيات المذانب تأتي عن الشمال واليمين، منها

---

(403) الناجر: كل شهر من شهور الصيف، لأن الإبل تنجر أي تعطش فيه.
(404) Finana انظر ما سبق ص34 حاشية رقم (12).
(405) الخدن والخدين: الحبيب والصاحب.
(406) الودق: المطر
(407) Granada راجع ما قلناه سابقاً في ص36 حاشية (9).
(408) الوامق: المحب.
(409) القال: الكاره.
(410) العصف: ورق الزرع.
(411) في الأصل وولدت، ولد.

اللّبات[412] سلوكاً تأثر من الحصباء بكل درّ ثمين، وترك الأرض مخصرة تغير من خضراء السماء ضرّة، والأزهار مفترّة، والحياة الدنيا بزخرفها مغترّة

أيّ واد أفـــاض مـــن عـــرفـــات — فـــوق حمـــرائـــهـــا أتـــمَّ إفـــاضـــه
ثـم لما أسـتـقـر بـالـسـهـل يجـري — شـقَّ مـنـهـا بـحُـلَّـة فـضـفـاضـه
كـلـما انـسـاب كـان عـضـباً صـقـيلاً — وإذا مـا اسـتـدار كـان مُـفـاضـه

فتعدَّدت القرى والجنات، وحُفَّت بالأمَّات[413] منها البنات، ورفَّ النبات وتدبجت الجنبات، وتقلدت اللبات، وطابت بالنواسم المهبات، ودارت بالأسوار دَوْر السوار، المنى والمستخلصات، ونصبت لعرائس الروض المنصَّات، وقعد سلطان الربيع لعرض القصَّات، وخطب بلبل الدوح فوجب الإنصات، وتموّجت الأعناب، واستبحر بكل عذب منها الجناب. وزينت السماء الدنيا من الأبراج العديدة بأبراج ذوات دقائق وأدراج، وتنفَّست الرياح عن أراج، أذكرت الجنة كل آمل ما عند الله وراج. وتبرَّجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات، سافرة عن صفحات القبات المزخرفات، تقذف بالأنهار من بعد المرتقى فيوض بحورها الزرق، وتناغي أذكار المآذن بأسحارها نغمات الوُرق[414]، وكم أطلعت من أقمار وأهِلَّه، وربّت من ملوك جله، إلى التمدين المحيط الاستدارة، الصادر عن الأحكام والإدارة، ذي المحاسن المعارة، المعجزة لسان الكناية والاستعارة، حيث المساجد العتيقة القديمة، والميازب[415] الحافظة للريّ المُديمة، والجسور العريضة، والعوائد المقدَّرة بنفائس الأذواق، والوجوه الزهر والبشرات الرقاق، والزيّ الذي فاق زيَّ الآفاق، وملأ قلوب المؤمنين بالإشفاق:

بـلـدة جـلَّـلـهـا الـلّـه سـنـاءً وسـنـاً — وأجـرَّ الـسـعـد من حَـلَّ لـديـهـا رَسـنـاً

---

(412) اللبات: النحور.

(413) أمات وأمهات جمع أم قيل الأمهات للناس والأمات للبهائم.

(414) الورق: الحمام ومفردها ورقاء.

(415) الميزاب والمئزاب: القناة يجري فيها الماء وجمعها ميازيب وميازب ومآزيب وربما قيل أيضاً موازيب.

قد أجْنَتْ سَكراً جَمّاً ورزقاً حسناً أعجزت من منتهى الفخر السعيد لسنا

يروقك في أطرافها حسن الصور وجمالها، وطرف الصنائع وكمالها، والفعلة وأعمالها، حتى الأطلال وانهمالها، والسؤال وأسمالَها:

كلّ عليه من المحاسن لمحة في كل طور للوجود تَطوَّرا
كالروض يعجب في ابتداء نباته وإذا استجم به النبات ونَوَّرا
وإذا الجمال المطلق استشهدته ألغيت ما انتحل الخيال وزَوَّرا

ثم قال أيّ آمن عَرِيَ من مخافه، وأيّ حصافة لا تقابلها سخافة، ولكل شيء آفة. لكنّها واللّه بردها يطفئ حرَّ الحياة، ويمنع الشفاه عن ردّ التحيات، وأسعارها يُشعر معيارها بالترَّهات، وعدوّها يعاطى كؤوس الحرب بهاك وهات. إلى السكك التي بان خمولها، ولم يقبل الموضوع محمولها، والكرب الذي يجده الإنسان فيها، صادف إضاقة أو ترفيهاً، والمكوس التي تطرد البركة وتنفيها. إلى سوء الجوار وجفاء الزوّار، ونزالة الديار، وغلاء[416] الخشب والجيَّار[417] وكساد المعائش عند الاضطرار، وإهانة المقابر

(416) أشار المؤرخون المعاصرون أمثال ابن خلدون في مقدمته (ص 364، ص 432) والحسن النباهي في كتابه المرقبة العليا (ص164 نشر ليفي بروفنسال) إلى غلاء المعيشة في غرناطة، وأرجعوا ذلك إلى صعوبة أرضها الجبلية وحاجتها المستمرّة إلى الكثير من العناية والجهد والأموال لإصلاحها. وقد نتج عن ذلك أن اشتغل الناس بمشاكل هذه الحياة القاسية وانصرف معظمهم عن التعليم الذي كانت أجوره مرتفعة كذلك. واضطرّ عدد كبير من أهل غرناطة إلى الرحيل إلى مصر - زعيمة العالم الإسلامي في ذلك الوقت (القرن 14م) - حيث المدارس الكثيرة العدد، والتعليم المجاني، والمنح الدراسية (الجرايات) ودور الإقامة للطلبة الغرباء (الأروقة)، هذا إلى جانب رخص المعيشة وتوفر أسبابها وقد بلغ من كثرة عدد المسافرين من مدينة غرناطة إلى المشرق أن سُمّي أحد أرباضها الخارجية باسم (حوز الوداع) وهو المكان الذي اعتاد فيه الغرناطيون توديع أهاليهم وأحبابهم قبل رحيلهم. راجع (المقّري: نفح الطيب ج10، ص230).

وغير بعيد بالمرّة أن يكون هذا المكان هو نفس المكان المعروف حتى اليوم باسم del moro Suspiro أي زفرة العربي، والذي ترجعه الرواية الإسبانية إلى الملك أبي عبد اللّه بن الأحمر آخر ملوك غرناطة حينما غادر ملكه وبلاده، ووقف في هذا المكان وهو يبكي ليلقي آخر نظرة على موطن عزه ومجد آبائه سنة 1492. وتضيف الرواية أن أمّه عائشة قالت له وقتئذ: «أجل فلتبكِ كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال. انظر (J.F.Kirk: Prescott s Ferdinand and Isabella p.265.

(417) الجيار: الكلس قبل أن يُطفأ.

وهي دار القرار، وقصر الاعمار، واستحلال الغيبة في الأسمار، واحتقار أولي الفضل والوقار، والتنافس في العقار، والشح بالدرهم والدينار، واليمّ والنار. ثم قال اللهم غفراً، وإن لم نقل كفراً، إن اللّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولله درّ أبي العتاهية حيث يقول:

أصبحت الدنيا لنا فتنةً والحمد للّه على ذالكا
اجتمع الناس على ذمّها وما نرى منهم لها تاركاً

قلت فالحمَّة[418]، قال أجل، الصحة والحجل[419]، والصيد وإن كان المعتبر الأجل، وتورد الخدود وإن لم يطرقها الخجل، والحصانة عند الهرب من الرهب، والبُرّ كأنه قطع الذهب. والحامة التي حوضها يفهق بالنعيم، مبذولة للخامل والزعيم، تمتُّ ثَنِيَّتُها بالنسب إلى ثنية النعيم، قد ملأها اللّه اعتدالاً، فلا تجد الخلق اعتياضاً عنه ولا استبدالاً. وأنبط صخرتها الصمّاء عذباً زلالاً، قد اعتزل الكدر اعتزالاً، لكن مزارعها لا ترويها الجداول ولا ينجدها إلا الجَوْد المزاول، فإن أخصب العام أعيا[420] الطعام، وإن أخلف الإنعام، هلكت الناس والأنعام. والفواكه يُطرف بها الجَلَب، وتزر عليها العُلب، وعصيرها[421] لا يليق بالأكل ولا يصلح للحلب، وبردها شديد وإن لم يَقُضّ المنقلب.

---

(418) الحمّة، Alhama، وهي بلدة صغيرة على قمّة جبل بالقرب من مدينة بجانه من أعمال المرية. وقد أطلق العرب عليها اسم الحمّة نسبة إلى العين الحارّة التي تفجرت بها. ويروي الكتّاب المسلمون أن مياه هذه العين كانت كبريتية طيّبة ويقصدها أهل الأسقام والعاهات من جميع النواحي فلا يكاد يخطئهم نفعها (الروض المعطار ص 39) وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود حمّامين بجوار هذه العين أحدهما للنساء والآخر للرجال. (رحلة بن بطوطة ج2، ص 187) ولا زالت العين والحمّامات العربية موجودة حتى الآن ويقصدها السوّاح من كل جانب.

(419) الحجل طائر في حجم الحمام يُستطاب لحمه ويُسمّى الآن في إسبانيا باسم .Perdiz

(420) كذا، ولعلّها أحيا أو أغنى.

(421) لفظ العصير أطلق في الأندلس على ما عصر من العنب وما أشبهه من الثمرات، كما أطلق أيضاً على التين الرطب. والعبارة هنا تستقيم مع المعنى الثاني كما هو واضح من استعمال كلمة الأكل. انظر (عبد العزيز الأهواني: ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامّة، مجلّة معهد المخطوطات العربية المجلد الثالث الجزء الثاني نوفمبر 1957).

قلت فصالِحة[422]، قال لولا أنها مناخ لم تذكر، فليس مما يذم ولا مما يشكر، وإن كان ماؤها فضيّاً، ووجه جوّها وضياً، وعصيرها مرضياً، ورزقها أرضيّاً، وفضلها ذاتياً لا عرضيّاً، فهي مهبُّ نسف، ودار خسف وأهلها بُهم، ليس لأحد منهم فهم.

قلت فَالْيُرَة[423] ومُنتَفْريد، قال بلد ارتفاق، بإجماع واتفاق، معدن البر الزكي، والصيد الذكي، وهد (و) شاهق[424].، ومصرخ ناهق، ومعدن بر فائق، إن لم يعق من عدو القلعة عائق.

قلت فَلوْشة[425]، قال مرأى بهيج، ومنظر يروق ويهيج، ونهر سيّال وغصن ميّاد ميّال، وجنّات وعيون، ولذّات لا تُمطَل بها ديون، وجداول تُنضَخُ بها الجوانح، ومحاسن يشغل بها عن وكره السانح، ونعم يذكر بها المانع المانح. ما شئت من رحا يدور ونُطَف[426] تشفى بها الصدور، وصيد ووقود، وأعناب كما[427] زانت اللّبات عقود، وأرانب تحسبهم أيقاظاً وهم رقود، إلى معدن الملح ومعاصر الزيت، والخضر المتكلفة بخصب البيت، والمرافق التي لا تحصر إلا بعد الكيت، والخارج الذي عضد مسحة المَلاحة، بجدوى الفلاحة، إلا أن داخلها حَرِج الأزقّة، وأحوال أهلها مائلة إلى

---

(422) صالحة: هذه البلدة اندثرت منذ أواسط القرن السادس عشر الميلادي وقد سمّاها الكتّاب الإسبان zalia، وكانت تقع بين بليش مالقة، والحمّة. (راجع .Simonet: Op. Cit. P. 92)

(423) إليره ولا تزال تُسمّى كذلك Illora، واما منتفريد فتسمى الآن Montefrio واسمها اللاتيني القديم Mons Frigidus كل منهما في شمال مدينة لوشه. راجع .Simonet: Op. Cit. p) (57.

(424) في الأصل وهذا شاهق وليس لها معنى ولعلّ صحتها كما أثبتناه في المتن

(425) لوشة، اسمها القديم Lacivis وتعرف اليوم باسم (Lojaلوخا). وهي مدينة هامّة على نهر شنيل (Genilخنيل) وتبعد عن مدينة غرناطة بنحو خمسين ك.م من ناحية الجنوب الغربي. راجع ما كتبه ليفي بروفنسال عن هذه المدينة في (Enc; Isl. III p.31) انظر كذلك (الروض المعطار ص173 ـ 174). وتنبغي الإشارة إلى أنه بهذه البلدة ولد كاتب هذه النصوص الوزير لسان الدين بن الخطيب في عام 713هـ (1313م)

(426) النطفة: الماء الصافي النظيف قل أو كثر.

(427) في نسخة كلّما ولعلّها ما أثبتناه.

الرقّة. وأزقّتها قذرة، وأسباب التطوف[428] بها متعذّرة ومنازلها لنزائل الجند نازلة، وعيون العدو لثغرها الشنيب مغازلة.

قلت فأرجُذونة[429]، قال شر دار، وطلل لم يبقَ منه غير جدار، ومصام يرجع البصر عنه وهو حاسر، وعورة ساكنها لعدم الماء مُسْتَأسِر[430] وقومها ذو بطر وأشر، وشيوخها تيوس في مسالخ بشر، طعام من يقوت منهم أو يعول التيوس والوعول، وحرثها مُغِلّ، وخُلُقها حسد وغِلّ.

قلت فأنْتِقَيْرة[431]، قال محل الحرث والأنعام، ومبذر الطعام، والمرأة التي يتجلّى بها وجه العام. الرحب والسهل، والنبات الطفل، والهشيم الكهل، والوطن والأهل، ساحت الجداول في فحصها الأفيح وسالت، وانثابت حيّات المذانب[432] في سقيها الرحب الجوانب وانسالت، لا تشكو من نبوّ ساحة، ولا تُسفر إلا عن مَلاحة، ولا تضاهي في جدوى فلاحة وعظم ملاحه. إلا أنها جرداء الخارج، بل مارد ومارج وشدّة فرَّجها فارج، لا تضبطها المسلحة للاتساع، والدرع الوَسَاع. قليلة الفواكه، عديمة الملاطف والمفاكه. أهلها أولوا شرور وغرور، وسلاح مشهور، وقاهر ومقهور، لا تقبل غريباً، ولا تعدم مع العدو تثريباً.

قلت فَذَكْوان[433]، قال روض وغدير، وفواكه جلّت عن التقدير

---

(428) في نسخة التصرف وإن كانت التطوف أصوب.

(429) أرجذونه أو ارشذونه وهي أسماء مشتقّة من الاسم القديم Esteleduna، ومعناه معصرة الزيت وتُسمّى حالياً Archidona، وتقع في ولاية مالقه. راجع (Simonet; Op. cit. p.83 ;Ency. IsI. I, p.428).

(430) يقع في الأسر لعدم وجود الماء وبالتالي عدم مقاومة حصار العدو.

(431) انتقيره اليوم Antequera، وهي مدينة قديمة عامرة بالسكان وتبعد عن مالقه بنحو59 ك.م..

(432) المذانب: جداول المياه الضيّقة.

(433) حصن ذكوان ويسمى اليوم Coin ويقع في غرب مالقه. ويروي ابن عذاري في كتابه البيان المغرب (ج2، ص 189) أن هذا الحصن أقيم في عام 308هـ (929م) في أيام عبد الرحمن الثالث الأموي، ليكون حصناً أمامياً يواجه حصون عمر بن حفصون وأولاده الثائرين ضد حكومة قرطبة. راجع كذلك .(Simonet: Op. Cit p. 81)

وخورنق وسدير[434]، ومائدة، لا تفوتها فائدة، دارت على الطحن أحجارها، والتفّت أشجارها، وطاب هواؤها، وخفق بالمحاسن لواؤها، إلا أنها ضالّة ساقطة، وحبّةً ترتقب لاقطه، لا تدفع عن قرطها وسوارها بأسوارها، ولا تمنع نزع صدارها بجدارها، قضت بغلّة أعيانها، حداثة بنيانها.

قلت فقَرطَمة[435]، قال الكَرَك الذي يؤمن عليه الدرك، وإن عظم المعترك. جوّها صاف، في مشتى ومصطاف، وتربها للبُرّ مصاف، وعصيرها بالكثرة ذو اتصاف. إلا أن الماء بمعقلها مخزون، وعتادها موزون، وأهلها في الشدائد لا يجزون، أيديهم بالبخل مغلولة، وسيوف تشاجرهم مسلولة.

قلت فرُنْدَة[436]، قال أم جهات وحصون، وشجرة ذات غصون، وجناب خصيب. وحمى مصون، بلد زرع وضرع، واصل وفرع، مخازنها بالبُرّ مالية، وأقواتها جديدة وبالية، ونعمها بجوار الجبل متوالية. وهي بلد أعيان وصدور[437]، وشموس وبدور، ودور أيّ دور، وماء واديها يتوصّل إليه في جدور مُحكم مقدور، وفي أهلها فضاضة[438] وغضاضة، ما في الكلف بها حضاضة. يلبس نساؤها الموق[439]، على الأملد المرموق، ويُسفرن عن الخد المعشوق[440]، وينعشن قلب المشوق، بالطيب المنشوق، إلا أن

---

(434) الخورنق والسدير: قصران للنعمان بن المنذر بالحيرة، وحولهما قصص طريفة راجع (ياقوت، ج3، ص 482، ج5، ص 54، والأغاني للأصفهاني ج2، ص 144). وقد كتبها سيمونت حوز نبق وسدير.

(435) قرطمة، وهي اليوم Cartama.

(436) رنده حالياً Ronda وتقع في غرب مالقه. واسمها القديم Arunda، وهي تعتبر من أهم القواعد العسكرية في الأندلس لارتفاعها وحصانة موقعها. وينسب إلى هذه المدينة الفقيه المتصوّف، ابن عباد الرندي، شارح حكم بن عطاء الله السكندري. راجع ما كتبه ليفي بروفنسال عن هذه المدينة الإسلامية في (Enc. Isl. III p. 1254).

(437) في نسخة (ب) حدور.

(438) كذا ولعلّها بضاضة

(439) الموق خف غليظ يلبس فوق خف أدق منه، وجمعه أمواق.

(440) هنا إشارة إلى سفور وجه النساء كما سبق أن أشرنا في المقدمة.

العدو طوى ذيل بُردها، وغصب بنياتها[441]، وكيف السبيل إلى ردّها، وأضاق خارجها وخفض معارجها، وأعلى طائرها ودارجها.

فلمّا بلغ هذا الحد قال هل اكتفيت؟ فقد شرحت صدرك وشفيت، وبما طلبت مني وقد وفيت، يا بني كأني بالصباح السافر، وادهم الظلام النافر، قد أجفل أمام مقنَّبه الوافر، وترك من الهلال نعل الحافر، ونفسي مطيتي، وقد بلغت الليلة طيتي، وأجزلت عطيتي، فلنُجِمّ بالحمض، ونلم بالغمض، وأنا بعد نزيلك إن سرني جزيلك، وعديلك إن ضحك إليّ منديلك، وسميرك إن رواني نميرك، فبادرت البدرة ففضضتها، والصرة فاقتضضتها، والعيبة فنفضتها، والمعادن فأفضتها. فقال بوركت من مُواس، وأنشد قول أبي نواس:

ما من يد من الناس واحدة … كَيدٍ أبو العباس أولاها
نام الثقات على مضاجعهم … وسرى إلى نفسي فأحياها

ثم قال، نَمْ في أمان، من خطوب الزمان، وقم في ضمان من وقاية الرحمان فلعمري وما عمري عليّ بهيّن، ولا الحلف علي بمتعيّن، لو كان الجود ثمراً لكنت لُبابه، أو عمراً لكنت شبابه، أو منزلاً لكنت بابه. فما هو إلا أن كحلت جفني بميل الرقاد، وقدت طرفه سلس المقاد، وقام قيّم الخان إلى عادة الافتقاد، وبادر سراجه بالإيقاد؛ ونظرت إلى مضجع الشيخ ليس فيه إلا زئبر أطماره، وروْث حماره، فخرجت لإيثاره، مقتفياً لآثاره، فكأن الفلك لفَّه في مداره، أو خسفت الأرض به وبداره. وسرت وفي قلبي لبَيْنِه وذهاب أثره، وعينه حرقه، وقلت متأسّياً لكل اجتماع من خليلين فرقه.

المجلس الثاني

قال المخبر، فلما اندمل جرح الفراق بعد طول، وزمان مُمطول، ومحا

---

(441) لا ينبغي أن يُفهم من هذا أن مدينة رندة سقطت في يد الإسبان في ذلك الوقت. فالذي أعلمه أن مدينة رندة كانت من ضمن القواعد الاستراتيجية الأندلسية التابعة لسلطان بني مرين بالمغرب. وظلت كذلك إلى أن استولى عليها سلطان غرناطة محمد الغني بالله (الخامس) في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ولم يستولِ عليها القشتاليون إلا بخدعة سنة 1485م (890هـ) والمقصود هنا بعض سهولها.

رسمَ التذكّر تكرّرُ فصول، ونصول خضاب نصول. بينا أنا ذات يوم في بعض أسواق الغبار، أسرّح طرف الاعتبار، في أمم تنسل من كل حدب، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب، ما بين مشتمل للصَّماء يلويها، ولائث للعمامة لا يسويّها، ومتلفّظ بالشهادة وهو لا ينويها، وصاعد من غور، ومتظلّم من جور، وممسك بذنب عير أو روق ثور، يموجون، ومن الأجداث يخرجون، كأنّهم النمل نشرها وقد برزت للشمس من مطر الأمس يشيرون بأجنحة الأكسية، ويتساقطون على ثماد القُلُب وأسآر[442] الأحسية، وقد اصطفَّ ذابحو الجزور، وبائعوا اللبوب[443] والبزور[444]، ولصق بالأملياء حَلَلَة العُقَد وشَهَدة الزور، ونظرت في ذلك المجتمع، الهائل المرأى والمستمع، إلى دَرَسة غيّ، وطهارة كيّ، ورقاة جنون، بضروب من القول وفنون، وفيهم كهل قد استظلّ بقيطون[445]، وسلَّ سيف لاطون[446]، وتحدى برقية لديغ ومداواة مبطون. قد اشتمل بسمل غفاره، وبين يديه غبار في جلد فاره، وطحن من إطعام كفارة، وأمامه تلميذ قد شمَّر الأكمام، والتفت الخلف والأمام، وصرف لوحي لحظة الاهتمام، وهو يأسو ويجرح، ويتكلّم بلسان القوم ثم يشرح، ويقيد من حضَره بقيد العزيمة فلا يبرح، ويقول أيها البهم السارح، والحزب المسرور بما لديه الفارح، والسرب الذي تقتاته لولاة البغي الجوارح، صرفتم غروب اعتنائكم لمآرب نسائكم وأبنائكم، وذهلتم عمّن حلّ بفنائكم، وجعلتم تطمعون وتجمعون، إنما يستجيب الذين يسمعون، من وقعت عليّ منكم عينه، فقد رأى فاتح أقفال

---

(442) السؤر ما يبقى في الإناء، سئر سأراً الشيء: بقي.

(443) يقصد الجوز واللوز.

(444) البزور والأبزار أي التوابل

(445) قيطون وجمعها قياطين بمعنى خيمة في لغة أهل المغرب، ويقولون للبيت بجانب البيت المسكون قيطون (Dozy: Supplement aux Dictonnaires Arabes II p. 378) راجع كذلك عبد العزيز الأهواني: ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة. مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الثالث الجزء الثاني نوفمبر1957.

(446) لعلّها مشتقة من الكلمة الإسبانية لاطونLaton بمعنى النحاس وقد استعملها المقّري في كتابه نفح الطيب. راجع (Dozy: Suppl. II p. 618)

الأسرار، ومثبت الفرّار ومصمت أولئك الصرار، ومغوّر مياه الآبار بيسير الغبار، ومخرج الإضمار في المضمار، ومذهب المس وطارد العمّار[447]. أنا قاطع الدماء إذا نزفت، وكاشف الغمّاء إذا ما انكشفت أهنأ الإبل فلا تجرب، واخطّ حول الحمى فلا تدنو السباع ولا تقرب، وادخنّ بها فلا تتسلل الحيّة ولا تدب العقرب. إن نعيتُ الشمس لوقت محدود طمس فيها نورها، وأن وعدت الأرض بريّ محمود فار تنورها، وإن كتبت لعقد النكاح انحلّت، وإن عقلتُ خطى الضالة وقفت حيث حلّت وإن زجرت الجنون تركت وخَلَّتْ، وإن استثرت الدفائن ألقت الأرض ما فيها وتخلّت. أنا جردت البيضة الشعراء، وزوّجت الفتى الشرقي من الجارية العذراء. أنا صافحت المَلَك، ورصدت الفَلَك، ومزجت بسرّ الحكمة الضياء والحلك، فاحتقرت الملك وما ملك.

دعوت علم الطباع فأطاع، وقطعت شكوك الهيئة بالشكل القطاع، وقلت بالقدر وبالاستطباع، وسبقت في صناعة البرهان يوم الرهان، ورُضت صعاب الرياضيات حتى ذلّ قيادها، وسهل انقيادها، وعدَّلت الكواكب واختبرت القلوب البابانيّة والمناكب، وبشّرتُ عند رجوع خُنَّسِها[448] بالغيوث السواكب. ووقفت بالامتحان، على صناعة الألحان، وقرأت ما بعد الطبيعة، وناظرت قسيس البيعة[449]، وأعملت في الاصول، مرهفة النصول،

---

(447) العمار: سكان البيوت من الجن

(448) الخنّس الكواكب كلها وقيل السيارات منها فقط أو بعضها وقيل هي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد.

(449) من الأشياء المألوفة في تاريخ الأندلس، أن يتقن عدد كبير من الإسبان المسيحيين اللغة العربية، وهؤلاء عرفوا بالمستعربين كذلك كان الحال بالنسبة للأندلسيين المسلمين الذين أتقنوا لغة جيرانهم المسيحيين أمثال القشتاليين والأراجونيين. وقد نتج عن ذلك حدوث مجادلات ومناقشات دينية وعلمية مختلفة بين علماء المسيحية والإسلام. فابن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة (لوحة111 نسخة الاسكوريال) يروي أن أحد المعاصرين له واسمه محمد بن لب الكناني المالقي، كان يطوف بالبلاد الإسبانية ويناقش قساوستها في أصول الديانتين الإسلامية والمسيحية. ويروي في موضع آخر أنه في أيام الملك الإسباني الفونسو العاشر الملقّب بالحكيم أو العالم El Sabio في القرن الثالث عشر الميلادي، كان العالم الغرناطي محمد الرقوطي يعلم المسيحيين واليهود في مدرسة مرسية (الإحاطة لوحة 107). كذلك يروي

وأحكمت أمزجة الطباع وطبائع الفصول، وامتزت بالبروع في الفروع، وقمت في العهد الحديث بالحديث، وحُزْتُ في علم اللسان درجة الإحسان. وحقَّقت قسمة الفروض، وعدَّلت الشعر بميزان العروض، ونظمت ونثرت وأكثرت فما عثرت، وعبَّرت حلم النوم، ولبست الخرقة بشرط القوم، ولزمت خلوة الذكر ومعتكف الصوم، وأما معرفتي بالأخبار، وذرع الأرض بالأشبار، ما بين جليقية إلى الأنبار، وأوصاف المدن الكبار، فقد ثبت بالاختبار، قال فأثار قديمي وأذكرني بنديمي، فقلت الله أكبر، أوضح الخبر المخبر، فخضت إليه من بيني وبينه وهم بحر زاخر، وأوّل ليس له آخر، وبِهِم يسخر منه الساخر، ما بين كبش مجتر وعجل ناخر، وقلت أيها الحَبْر، ضالّتي قريب أمدها، معروف معتمدها، وعلى ذلك فالشكر ممنوح، والرفد طوفان نوح، فألِنْ العريكة، وسَلّم النطع والأريكة. وقال أجل واعرض، وأنزل السؤال وافرض. فقلت بي إلى تعرّف البلدان جنوح وجنون، والجنون فنون، وقد ظفرت قبلك بنقاب، وعود احتقاب، وسارب أنقاب، حصل به من طلبي الشكر، وبك يتم الشطر، ويعظم الخطر. فقال الناس مُتْهِم ومنجد، وخاذل وممجد، ولا تجود يد إلا بما تجد، والله المرشد، وجعل ينشد:

= ابن الخطيب في وضع ثالث (إحاطة لوحة 222) أن العالم الغرناطي عبد الله بن سهل (في القرن الثالث عشر الميلادي) كانت له شهرة كبيرة في العلوم الرياضية لدرجة أن المسيحيين في شتى نواحي إسبانيا ولا سيما مدينة طليطلة، كانوا يرحلون إلى داره في مدينة بياسة Baeza لمجادلته والاستفادة من علمه. ولا ندري إن كان ابن الخطيب نفسه كان يعرف القشتالية أم لا، ففي حوليات ملوك قشتالة التي كتبها القائد الإسباني Lopez de Ayala، وهو معاصر لابن الخطيب، نجد مجموعة من الرسائل القشتالية موجهة من ابن الخطيب إلى ملك قشتاله في ذلك الوقت بطرس القاسي Pedro el cruel ويظهر في هذه الرسائل الإسبانية أيضاً، أسلوب ابن الخطيب المعقد باستعاراته وكناياته ومحسناته البديعية. على أننا في الوقت نفسه لا نستبعد أيضاً أن يكون ابن الخطيب قد كتب هذه الرسائل بمعاونة بعض المترجمين، إذ من المعروف أن قصر الحمراء كان يحتوي على إدارة خاصة لترجمة رسائل الدولة الرسمية إلى ملوك الدول المجاورة راجع (Lopez de Ayala: Cronicas de los Reyes de Castilla I pp. 483 - 493) راجع كذلك (Los Documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona) de Aragon. publicados y traducidos al castellano por M, Alarcon y R. G. de Linares p.p. 411 - 415.

إذا المشكلات تصدّين لي كشفتُ غوامضها بالنظر
ولست بإمّعة في الرجال أسائل هذا وذا ما الخبر
ولكنني ذرِبَ[450] الأصغرين أبيّن مع ما مضى وما غبر

ثم قال هات، أمِنَ عقدك الشبهات، قلت ما تقول في بادِس[451]، قال بدأتَ بحمدلة الرقعة، وبركة البقعة، ومدفن الوليّ، ومظهر النور الجلي والنحر غير العاطل ولا الخليّ من الحلي، بلد السراوة والشجاعة، والإيثار على فرض المجاعة، والنفوس الأوّابة إلى الله الرجّاعة، حيث البُرّ والحوت، والخشب الذي ينشأ منه كل منحوت، والبأس والإقدام، والفاكهة الطيّبة والإدام، وربّ الجبال، وفضل للمدافعة لصهب السبال، إلا أنها موحشة الخارج، وعرة المعارج، مجاورة غمارة بالمارد والمارج. فهم ذوو دبيب في مدارج تلك الغرابيب، وكيدهم ببركة الشيخ في تتبيب.

قلت فمدينة سَبْتَة[452]، قال عروس المجْلى، وثنية الصباح الأجلى،

---

(450) ذرب اللسان: فصيح فاحش

(451) بادس بكسر الدال: ويقال (باديس)، مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ويقال لها بادس فاس تمييزاً لها عن باديس الزاب، ومكانها الآن عند مدينة Villa Jordana بالمغرب الأقصى. راجع (ياقوت ج2، ص 29، تاج العروس ج4، ص 106، التعريف بابن خلدون ص 69 حاشية 1)

(452) سبته Ceuta، بفتح السين وسكون الباء، مدينة ساحلية من مدن المغرب الأقصى. وهي عبارة عن شبه جزيرة في مضيق جبل طارق وتحيط بها الجبال من ناحية الجنوب. وهذا الوضع الجغرافي جعل اتجاهها واتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الموجودة فيه. ولهذا نجد أن مدينة سبته في العصور الوسطى الإسلامية كانت تمتاز بطابع أندلسي في مظهرها وثقافتها بل في وضعها السياسي أيضاً: فالأمويون بالأندلس اتخذوها قاعدة استراتيجية لهم لمقاومة الخطر الفاطمي في القرن العاشر، وكذلك استولى عليها الحموديون حكّام مالقة أيام ملوك الطوائف في القرن الحادي عشر، ثم استقلت بها أسرة من أصل أندلسي ببني العزفي في القرن الثالث عشر، كذلك استولى عليها بعض ملوك بني الأحمر سلاطين غرناطة مدة من الزمان. وأخيراً في القرن الخامس عشر استولى عليها البرتغاليون ثم الإسبان بعد ذلك.

وهناك نص على جانب كبير من الأهمية في وصف مدينة سبتة (في أواخر القرن 14م وأوائل القرن 15م) لرجل معاصر لابن الخطيب وهو محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري، السبتي الدار والنشأة والمولد. وقد عثر على هذا النص المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ونشره بالعنوان التالي: I E Levi - Provencal: Une description de Ceuta musulmana

تبرجت تبرّج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقلية، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة. وإذا قامت بيض أسوارها، مقام سوارها وكان جبل بَنيونِشْ(453) شمامة أزهارها، والمنارة منارة شوارها، كيف لا ترغب النفوس في جوارها، وتخيّم الخواطر بين أنجادها وأغوارها إلى الميناالفَلَكيّة، والمراسي الفُلْكيّة، والرّكية الزكيّة، غير المنزورة ولا البَكيّة. ذات الوقود الجزل المعد للأزل، والقصور المقصورة على الجد والهزل، والوجوه الزهر السَحَن(454)، المضنون بها عن المِحَن. دار الناشبة، والحامية المضرمة للحرب المناشبة، والأسطول المرهوب، المحذور الألهوب، والسلاح المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب. كرسي الأمراء والأشراف، والوسيطة لخامس أقاليم البسيطة، فلاحظ لها في الانحراف. بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال، قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع

---

au XV siecle, Hesperis. tome XII fase II (1931) p. 145 - 177 ويبدأ هذا النص بالكلام عن مقابر المدينة والشخصيات الهامة المدفونة فيها، ثم يصف مساجد المدينة والمدرسة العلمية التي أنشأها السلطان أبو الحسن المريني بها، ثم يتكلم عن الخزائن العلمية التي بدور الأكابر والأعيان وعددها اثنتان وستون خزانة (مكتبة)، ثم يتكلم بالتفصيل عن الروابط والزوايا والحمامات والأسواق والحوانيت والفنادق والطواحين والمضارب والمصايد والمطامير لخزن الزرع، كما يصف ديوان المدينة وقلاعها ومراسيها وأرباضها. ثم يتكلم عن النجرات وهي المصانع المعدّة لعمل القسي، كما يذكر أسماء العائلات المختصّة بهذه الصناعة منذ القدم، ونخصُّ بالذكر: (الشيخ المتقدّم الحسن الذات، الكثير المواعين والأدوات، أبو الحسن العبادي)، بعد ذلك يتكلم الكاتب عن مراكز رمي السهام في المدينة وهي المعروفة بالمرامي والمعبر عنها بالجلسات، وعددها أربعة وأربعون مرمى بالميناء، (إذ إن الرمي طبع لأهل سبته طبعوا عليه فلا تجد منهم شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيراً ولا صغيراً إلا وله بصر بالرمي وتقدم فيه) وأخيراً يتناول الكاتب الكلام عن قرية بنيونش Baliunech المجاورة لسبتة من ناحية الغرب، فيصف أنهارها وبساتينها وحماماتها... الخ.

زالت آثار بنيونش موجودة حتى اليوم، ويرجح ليفي بروفنسال أصلها من منشآت الأمويين حينما استقروا هناك في القرن العاشر الميلادي. انظر كذلك Levi provencal: Las Ciudades y las Insituciones Urbanas del Occidente Musulman en la Edad Media. P, 45 (Tetuan 1961)

(453) راجع ما قلناه عن هذه البلدة في الحاشية السابقة

(454) السحنة والسحناء: الهيئة واللون. لين البشرة والنعمه.

الحيتان، ومحط قوافل العصير والحرير والكتّان، وكفاها السكنى ببنيونش في فصول الزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والمدفن المرحوم غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم. إلا أنها فاغرة أفواه الجنوب للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب. وناهيك بحسنة تعد من الذنوب فأحوال أهلها دقيقة، وتكلُّفهم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصّون البلالة مصَّ المحاجم، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، وراعي الجديب بالمطر الساجم، فلا يفضّلون على مدينتهم مدينة، الشك عندي في مكّة والمدينة.

قلت فطنجة(455)، المدينة العاديَّة، والبقعة التي ليست بالخبيثة ولا بالرديَّة إليها بالأندلس كانت نسبة المغاربة، والكتائب المحاربة، والرفق السائحة في الأرض الضاربة. سورها ليس بمثلوم، وساكنها غير ملوم، وفضلها معلوم، ودارها ليست بدار لؤم. ميدان أفراس كبير، ومعدن هند وذكير، مثلت بين المنار والقالة(456)، وحكّماها في التفضيل فأشكل الحكم وتعذّرت المقالة، ولم يصح البيع ولا وجبت الإقالة. هذي سماء بروج، وهذي أزمار مروج، وكلاهما مركب سرور وسروج، ومتمتّع فروج، ومطعم قديد ومروج. ديارها نبيهة، وأحوالها بأحوال جارتها شبيهة، لكن رملها يحشو العين بالذرور عند المرور، ويدخل الدور، ويفسد القدور ورياحها لا تسكن إلا في الندور، وظلمة جوّها متسبّبة عمّا وراءها من مغرب الشموس والبدور. وعين برقانها، أعذب عيونها، مشهور بتوليد الهوَج، قران عند

---

(455) طنجة Tanger مدينة قديمة معروفة بالمغرب الأقصى، وتقع على المحيط الأطلنطي ويفصلها عن أوروبا مضيق جبل طارق

(456) قاله وبالإسبانية La Cala، لها معانٍ كثيرة مختلفة، وقد يستقيم منها هنا المعنى الخاص بميناء أو خليج. راجع (Dozy: supplement....II p. 296) ولعل اسم دولة البرتقال (البرتغال) جاء منها: بورتو قاله أي خليج بورتو (العاصمة وقتذاك).

الناس غير ذي عوَج، ويذكر أن سليمان اختصَّها بسجن مَرَدَة الجن فيعثر بها على أوانٍ ملئت ريحاً تثير تبريحاً، ويسندون لذلك أفكاراً صريحاً.

قلت فقصر كُتامة(457)، قال مغرد عندليب، وعنصر بُرّ وحليب، ومرعى سائمة، ومسرح بهيمة في الجميم(458) هائمة، ومسقط مُزْنَةٍ(459) غادية، ودِيمةٍ(460) دائمة. وبه التفاح النفّاح، ترتاح إلى شميمه الأرواح، والفواكه قد ثقلت بها الأدواح، يقذف بها المساء والصباح، ويتفنن فيه الحرام والمباح، والسمك كما جُرِّدَت الصفاح إذا استبحر الكفاح. وطريقه مسلك القافلة، وببابه السوق الحافلة، وينسل إليها من غُمَارَة(461) قرود وفهود، وأمة صالح وهود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود. إلا أنه قَوْرٌ قد تهدم، ودار الندوة لأم ملدم، ومنتزي لهائج المرار وثائر الدم. جثم الهواء الخبيث في بطيحته وربض، وانبسط وما أنقبض، وجهز ليله عسكر البعوض الهاجم، دَرِبَة بمصّ المحاجم. وأمّا وحله فلا يُعبر ولا يُسبر، وإن أسهبتُ العبارة فالأمر أكبر.

قلت فأُصَيْلا(462)، قال كثيرة المرافق، رافعة في الخصب اللواء الخافق، العصير الأثير، والحوت الكثير، واللبن الغزير، والإدام الذي يرمى به من حُكِمَ عليه بالتعزير، والسفن المترددة وفيها الملف والأبازير. إلا أن حصنها من المنعة بَرِي، وساكنها بربري، وجارها من غمارة جري.

---

(457) قصر كتامه ويسمى اليوم القصر الكبير ويسمى أيضاً قصر عبد الكريم، وهو بلدة معروفة في المنطقة الشمالية بالمغرب الأقصى، وتبعد عن ساحل المحيط الإطلنطي بنحو 36كم. راجع بعض التفاصيل التاريخية عن هذه المدينة في (Allouche: La Revolte des Banu Askilula contre le sultan Muhammad II, Hesperis, tome xxv, fasc. I (1938) p.2 note 2)

(458) أرض جماء أي ملساء.

(459) المزن: السحاب أو ذو الماء منه، والمزنة القطعة من المزن.

(460) الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق. وجمعها ديم وديوم يقال: مطرتهم السماء بديمة وبديم.

(461) غمارة اسم لقبيلة بربرية، ويطلق أيضاً على الجبال التي تقيم فيها.

(462) أصيلاً (بضم الألف وفتح الصاد أو بفتح الألف وكسر الصاد) وبالإسبانية Arcila، مدينة على ساحل المحيط الإطلنطي بالقرب من مضيق جبل طارق.

قلت فمدينة سلا[463]، قال العقيلة المفضّلة، والبطيحة المخضّلة، والقاعدة المؤصّلة، والسورة المفصّلة، ذات الوسامة والنضارة، والجامعة بين البداوة والحضارة. معدن القطن والكتّان، والمدرسة والمارستان، والزاوية كأنها البستان والوادي المتعدّد الأجفان، والقطر الآمن عند الرجفان، والعصير العظيم الشان، والأسواق الممتازة حتى برقيق الحُبْشان. اكتنفها المسرح والخصب الذي لا يبرح، والبحر الذي يأسو ويجرح، وشقّها الوادي يتمّم محاسنها ويشرح. وقابلها الرّباط[464] الذي ظهر به من المنصور الاغتباط، حيث القصبة والساباط[465] ووقع منه بنظرة الاعتباط، فاتسع الخرق وعظم الاشتطاط، وبعد الكمال يكون الانحطاط.

إلى شالة[466] مرعى الذمم ونتيجة الهمم، ومشمخ الأنوف ذوات الشمم، وعنوان بر الدِّيَم، حيث الحسنات المكتتبة، والأوقاف المرتبة، والقباب كالأزهار مجودة بذكر الله أناء الليل وأطراف النهار، وطلل حسّان المثل في الاشتهار[467]. وهي على الجملة من غيرها أوفق، ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أرفق، ومقبرتها المنضّدة عجب في الانتظام، معدودة في المدافن العظام، وتتأتى بها للعبادة الخلوة، وتوجد عندها للهموم السلوة، كما قال ابن الخطيب:

وصلت حثيث السير فيمن فلا الفلافلا خاطري لمّا نأى وانجلى انجلى
ولا نسخت كربي بقلبيَ سلوة   فلمّا سرى فيه نسيم سلا سلا

---

(463) Sale راجع ما سبق أن قيل عن هذه المدينة في الرسالة الثانية ص (39).

(464) مدينة رباط عاصمة المغرب الأقصى اليوم، بناها الخليفة المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (554 ـ 595هـ) أعظم ملوك الموحدين، وسمّاها (رباط الفتح) وهذه المدينة تقابل وتواجه مدينة سلا فقيل الرباط وسلاه ويفصلهما وادي أبو الرقراق (بور جراج) (السلاوي: الاستقصا ج1، ص 164 ـ 181).

(465) الساباط، سقيفة بين دارين، تحتها طريق وجمعها سوابيط وساباطات

(466) Chella شالة سلا حيث مقابر ملوك بني مرين. راجع ما قلناه عنها سابقاً (ص13).

(467) إشارة إلى مسجد حسان بمدينة الرباط الذي كان من أعظم مساجد الإسلام، بناه الخليفة الموحدي يعقوب المنصور وسمّي باسم مهندسه حسّان. وقد تعرض هذا المسجد لحريق وزلزال أطاح بطرف صومعته وصار مضرب الأمثال في الشهرة والاعتبار.

وكفى بالشابل رزقاً طرياً، وسمكاً بالتفضيل حريّاً، يبرز عدد قطر الدِيَم، ويُباع ببخس القيم، ويعمُّ حتى المجاشر[468] النائية والخيم. إلا أن ماءها لا يروى به وارد، لا كريم ولا بارد، وأليفها شارد، والخزين بها فاسد، وبعوضها مستأسد، راضع غير مفطوم، وَاسِم للخدّ والخرطوم بذيالك الخرطوم، خالع للعذار غير مخطوم. تصغي لرنته الآذان، ويفتك بوكز السنان، كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان، وديارها في الماء دار عثمان، وطواحنها غالية الأثمان، وكثبانها العفر تلوث بيض الثياب، طيّ العياب. وعابر واديها إلى مأرب أكيد في تنكيد، إلى غلبة الإمساك وخوض النُّسَّاك، وكثرة أرباب الخُطط، والإغياء في الشطط، تذود عن جنّاته للأسد جنان فلا يلتذُّ بقطف العنقود منها بنان، وفي أهلها خِفَّة، وميزانها لا تعتدل منه كفَّة.

قلت فَأنفَا[469]، قال جَوْن[470] الحطّ والإقلاع، ومجلب السلاع، تهدي إليها السفن شارعة، وتبتدرها مسارعة، تصارف بُرّها الذهبي بالذهب الإبريز، وتراوح بَرّها وتغاديه بالتبريز.

يكثر الطير حيث ينتثر الحَبّ (م) وتُغشى منازلُ الكرماء

وخارجها يفضل كل خارج، وقانصها يجمع بين طائر ودراج، وفواكهها طيبة، وأمطار عصيرها صَيِّبة. وكيْلها وافر، وسعرها عن وجه الرخاء سافر، وميرتها لا ينقطع لها خفّ ولا حافر، لكنّ ماءها وهواءها عديما

---

(468) المجاشر اصطلاح أندلسي بمعنى القرى والضياع

(469) آنفا Anfa، وهي المعروفة اليوم باسم الدار البيضاء Cassblanca، وهي مدينة كبيرة على ساحل المحيط الإطلنطي بالمغرب الأقصى، وتقع على مسافة ستين ميلاً شرقي أزمور. وهي مشهورة بمنتجاتها الزراعية وأشجار الفواكه. وكانت هذه المدينة تنافس ثغر قادس البرتغالي، ونتج عن هذا التنافس التجاري أن دمرتها الأساطيل البرتغالية عام 1465 ثم أعيد بناؤها سنة 1515.

انظر (Juan Leon africano: Descripcion de africa p 107 - 108).

(470) الجون: ضرب من القطا سود البطون والأجنحة ولعلّه يريد من وراء ذلك أن المدينة كانت بمثابة محط للسفن التي تشبه الجون في نزولها وإقلاعها.

الصحة، والعرب عليها في الفتن مُلحَّة، والأمراض بها تعيث وتعبث، والحزين بها لا يلبث.

قلت فَأَزَمُّور[471]، قال جار وادٍ وريف، وعروس ربيع وخريف، وذو وضع شريف، أطلَّتْ على واديه المنازِه والمراقب، كأنها النجوم الثواقب، وجلت من خصبه المناقب، وضمن المرافق نهره المجاور وبحره المصاقب. بلد يخزن الأقوات، ويملأ اللهوات، باطنة الخير، وإدامة اللحم والطير، وساكنه رفيه، ولباسه يتّحد فيه، ومسكنه نبيه، وحوته الشابل ليس له شبيه. لكنَّ أهله إنما حرثهم وحصادهم اقتصادهم فلا يعرفون ارضاخاً، ولا ورداً نضَّاخاً، يترامون على حبّة الخردل بالجندل، ويتضاربون على الأثمان الزيوف بالسيوف. بربريٌّ لسانهم كثير حسانهم، قليل إحسانهم، يكثر بينهم بالعَرَض الافتخار، ويعدم ببلدهم الماء والملح والفخَّار.

قلت فتيط[472]، قال معدن تقصير، وبلد بين بَحْرَيْ ماء وعصير ورباط للأولياء به سرور واغتباط. ومساجدها تضيق عنه المدائن مناراً عالياً، وبقلادة الإحكام حالياً؛ إلا أن خارجها لا يروق عين المقيم والمسافر، ولا يشوق بحسن سافر، ومؤمنه يشقى بصداع كافر، وحماه عدو كل خفّ وحافر، فلولا ساكنه لم ينبس يوم فخر، ولم ينم إلا إلى صخر.

قلت فرباط آسفي[473] قال لطف خفيّ، وجناب حفيّ، ووعد وفيّ،

---

(471) أزمور Azammur، مدينة على ساحل المحيط الإطلنطي بالمغرب الأقصى، وتقع على الضفّة اليسرى لمصبّ نهر أم الربيع.
راجع (J.Leon africano: Op. cit. p 83؛ التعريف بابن خلدون ص44 حاشية 4).

(472) تيط Tit، مدينة قديمة في إقليم دكالة وتقع على ساحل المحيط الإطلنطي على مسافة 24 ميلا من مدينة أزمور وعلى بعد 10 ك.م جنوبي مازكان (Mazagan.الجديدة الحالية) وتيط معناها العين بالبربرية ومنها تطوان أي العيون السبعة.
انظر .(J. Leon: Op. cit. p. 81).

(473) آسفي Safi، مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل المحيط الإطلنطي وقد ضبطها ابن خلدون بالسين المفتوحة بينما كتبها ليون الإفريقي (الوزان) بسكون السين (ص 79) وكذلك فعل المستشرق ليفي بروفنسال نقلاً عن كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لابن مرزوق (ص 35، 81). هذا وقد ورد سبب تسمية هذه المدينة بهذا الاسم في قصّة

ودين ظاهره مالكي، وباطنه حنفيّ. الدمائة والجمال، والصبر والاحتمال، والزهد والمال، والسذاجة والجلال. قليلة الأحزان، صابرة على الاختزان، وافية المكيال والميزان، رافعة اللواء، بصحة الهواء. بلد موصوف، برفيع ثياب الصوف، وبه تربة الشيخ أبي محمد صالح، وهو خاتمة المراحل، لمسوّرات ذلك الساحل. لكن ماءه قليل، وعزيره لعادية من يواليه من الأعراب ذليل.

قلت فمدينة مَرَّاكُش[474]، قال فتنفّس الصعداء، وأسمع البعداء، وقال دُرَج الحليّ، وبرج النيّر الجلي، وتربة الولي، وحضرة الملك الأوّليّ، وصرح الناصر الولي. ذات المقاصير والقصور، وغابة الأسد الهصور وسدة الناصر والمنصور. بعدت من المركز دارتها، وجرت على قطب السياسة إدارتها، وسحرت العيون شارتها، وتعبد الإباءة إشارتها، وخاضت البحر الخضمّ نذارتها وبشارتها. اقتعدت البسيط المديد، واستظهرت بتشييد الأسوار وأبراج الحديد، وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون، فسالت المذانب كصفاح القيون، وقيدت طرف الناظر المفتون، أدواح الشجر بها وغابات الزيتون. فما شئت من انفساح السكك، وسبوغ الشكك، وانحلال التِكك، وامتداد الباع في ميدان الانطباع، وتجويد فنون المجون بالمد والإشباع. زيتها الزمن يُعصر، وخيرها يمد ولا يقصر، وفواكهها لا تحصى ولا تحصر. فإذا

الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة حينما نزلوا بهذا المكان وظنُّوا أنهم في بلدهم لشبونة. فلمّا علموا أن بينهم وبين مدينتهم مسيرة شهرين، قال زعيمهم: وا أسفى!! فسمي المكان إلى اليوم أسفى. انظر (زكي حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص 49). انظر كذلك (عبد الحميد العبادي: حديث الفتية المغررين من أهل لشبونة ـ مجلة الثقافة بالقاهرة (1941) عدد 136). ولعلها من أسفو وهي كلمة بربرية بمعنى الضوء نسبة إلى المغارات التي كانت تقام على السواحل.

(474) مراكش :Marruecos بالفتح ثم التشديد وضم الكاف، مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى. أسسها يوسف بن تاشفين ملك المرابطين عام 454هـ (1062م) واستمرّت هذه المدينة عاصمة للدولة أيام المرابطين والموحدين ثم قلت مكانتها السياسية في عهد بني مرين عندما صارت مدينة فاس عاصمة لدولتهم

(مراصد الاطلاع ج3، ص 1251؛ .j. leon: op. Cit. P. 67 - 68)

تناصف الحرّ والبرد، وتبسّم الزهر وخجل الورد، وكسا غدرانها الحائرة الحلَق السرد، قلت انجز للمتقين من الجنّة الوعد، وساعد السعد، وما قلت إلا بالذي علمت سعد. ومنارها العلَم في الفلاة، ومنزلته في المآذن منزلة والي الولاة، إلا أن هواءها محكم في الجباه والجُنوب، يحمي عليها بكير الجَنوب، وحُمياها كلفة بالجسوم، طالبة ديونها بالرسوم، وعقاربها كثيرة الدبيب، منغّصة مضاجعة الحبيب. وخرابها موحش هائل، وبعد الأقطار عن كثير من الأوطار بها حائل، وعدوّها ينتهب في الفتن أقواتها، وجرذان المقابر تأكل أمواتها. وكانت أولى المنازل بالإغياء[475] لو أنها اليوم معدودة في الأحياء.

قلت فأغمات[476]، قال بلدة لحسنها الاشتهار، وجنّة تجري من تحتها الأنهار، وشمامة تتضوع منها الأزهار، متعددة البساتين، طامية بحار الزياتين، كثيرة الفواكه والعنب والتين. خارجها فسيح، والمذانب فيه تسيح، وهواؤها صحيح، وقبولها بالغريب شحيح، وماؤها نمير، وماء وردها ممدّ للبلاد وممير. إلا أن أهلها يوصفون بنوك وذهول، بين شبان وكهول، وخرابها يهول، وعدوّها تضيق لكثرته السهول، وأموالها لعدم المنعة في غير ضمان، ونفوسها لا تعرف طعم أمان.

قلت فمدينة مِكْنَاسَة[477]، قال مدينة أصيلة، وشعب المحاسن وفصيلة،

---

(475) الإغياء: بلوغ الغاية في الشرف والأمر.

(476) مدينة أغمات Agmet وتقع في جنوب مدينة مراكش على سفوح جبال أطلس (انظر صفحة 93 حاشية 3 من هذا الكتاب).

(477) مكناسة: ((Mequinez) بكسر الميم وسكون الكاف. إحدى مدن المغرب الأقصى، في جنوب غرب فاس سمّيت باسم قبيلة مكناسة البربرية التي اختطتها. وقد ازدهرت هذه المدينة أيام بني مرين، ولا تزال بها مدرسة السلطان أبي عنان فارس، تلفت الأنظار. ولهذه المدينة تاريخ حافل مجيد، ولهذا عنى بها المؤرخون، فكتبوا عنها كتباً كثيرة، نذكر منها: (كتاب الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون) لمحمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي (فاس 1326)؛ وكتاب (إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس) للمولى عبد الرحمن بن زيدان. طبع منه خمسة أجزاء بالمغرب.

انظر (التعريف بابن خلدون ص221 حاشية 3) والاستزادة في هذا الموضوع راجع: (Monographie de Mequinez, journal Asiatique 1855,I, p. 101 - 147)

راجع كذلك (C . Brockelmann: Gesch der Arab. Lit. II, p. 240)

فضَّلها الله ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها. فجانبها مريع ، وخيرها سريع، ووضعها له في فقه الفضائل تفريع. عدل فيها الزمان، وانسدل الأمان، وفاقت الفواكه فواكهها ولا سيَّما الرُّمَّان، وحفظ أقوالها الاختزان، ولطفت فيها الأواني والكيزان، واعتدل للجسوم الوزان، ودنا من الحضرة جوارها، فكثر قصَّادها من الفضلاء وزوَّارها. وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأُبَّهة والبهاء، والمقاصير والأبهاء. إلا أن طينها ضحضاح، لذي الظرف فيه افتضاح، وأزقَّتها لا يفارقها القذر، وأسواقها يكثر بها الهذر، وعقاربها لا تُبقي ولا تذر، ومقبرتها لا يُحتجّ عن إهمالها ولا يعتذر.

قلت فمدينة فاس[478]، فقال رعى الله قطراً تربه ينبت الغنى، وآفاقه

(478) مدينة فاس: Fez، أسسها الأمير إدريس الأول 172هـ (789م). على أن المؤسس الحقيقي لهذه المدينة هو ابنه إدريس الثاني باعتراف جميع المؤرخين. ففي أوائل عهد هذا الأخير، هاجر إلى المغرب الأقصى عدد كبير من أهل الربض بضواحي قرطبة. وذلك بعد أن ثاروا على أميرهم الأموي الحكم بن هاشم واضطر إلى طردهم نهائياً من الأندلس.

ولقد رحب الأمير إدريس الثاني بهؤلاء الربضيين اللاجئين، وعرض عليهم الإقامة في مدينة فاس الناشئة، فاستجابوا إلى طلبه وانتقلوا إلى عاصمة الأدارسة ونقلوا معهم مظاهر الحضارة الأندلسية الراقية خصوصاً وأن معظمهم كانوا من أهل الحرف والصناعة والزراعة، فأعطوا المدينة طابعاً أندلسياً جميلاً في صناعتها أو في أبنيتها الأندلسية البيضاء ذات الحدائق الداخلية في أحواشها .(Los Patios) وهكذا سيطر الأندلسيون على مدينة فاس لدرجة أنها سمّيت باسمهم وعرفت بمدينة الأندلسيين.

في ذلك الوقت أيضاً كان الأمير إدريس الثاني، قد أسس مدينة مقابلة لمدينة فاس ولا يفصلها عنها سوى نهير صغير، وأسماها العالية، وسكنها جماعة من عرب إفريقية (المغرب الأدنى) من نواحي مدينة القيروان ولهذا سمّيت بمدينة القرويين، (نسبة للقيروان)، وبمضي الزمن غلب اسم فاس على المدينتين وصارت تشمل عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين. ولا يزال جامع القرويين. . . الكعبة العلمية التي يؤمها طلاب من سائر أنحاء المغرب.

وحينما استولى المرابطون على المغرب، نزلوا فاس أول الأمر ثم بنوا مدينة مراكش وجعلوها قاعدة لملكهم لقربها من موطنهم الأصلي بالجنوب، ثم أتى الموحّدون بعدهم فنزلوا مدينة مراكش أيضاً واتخذوها داراً لملكهم للغرض نفسه. ثم جاء ملوك بني مرين فاتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم، وبنى الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني بالقرب منها مدينة فاس الجديدة سنة 674هـ (1275م) واتخذها عاصمة ملكه وكانت تُسمّى بالمدينة البيضاء وبالبلد الجديد والمدينة الجديدة.

انظر كذلك (ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. ونشره وترجمه إلى اللاتينية المستشرق طرنبرغ C. Tornberg (Upsala 1843 - 1846)

ظل على الدين ممدود، نعم العرين لأسود بني مرين، ودار العبادة التي يشهد بها مطرح الجنّة ومسجد الصابرين، وأمِ القُرى، ومأمّ السُّرى، وموقد نار الوغى ونار القرى، ومقر العز الذي لا يُهْضَم وكرسي الخلافة الأعظم، والجريّة التي شقها ثعبان الوادي فما ارتاعت، والأبيّة التي ما أذعنت أذعانها للأيالة المرينية ولا أطاعت. أي كُلَف وكَلَف، ومتفق ومختلف، ومحاباة وذُلف، وقضيم وعلف، وخلف عن سلف، إنما الدنيا أبو دُلَف. سألت عن العالم الثاني، ومحراب السبع المثاني، ومعنى المغاني، ومرقص النادب والغاني، وإرَم المباني، ومُصلًّ القاصي والداني، هي الحشر الأول، والقطب الذي عليه المعوَّل، والكتاب الذي لا يتأوَّل، بل المدارك والمدارس، والمشايخ والفهارس، وديوان الراجل والفارس، والباب الجامع من موطأ المرافق، ولواء الملك الخافق، وتَنُّور الماء الدافق، ومحشر المؤمن والمنافق، وسوق الكاسد والنافق، حيث البُنى التي تنظر إليها عطارد فاستجفاها، وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه الحسود فسترها بالغوْر[479] وأخفاها. والأسواق التي ثمرات كل شيء إليها جُبيت، والموارد التي اختصَّت بالَخصر وحبيت، والمنازه المخطوبة، وصفاح الخُلُج المشطوبة، والغُدُر التي منها أبو طوبة.

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه ريش جناحه الطاؤوس
فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

اجتمع بها ما أولده سام وحام، وعظم الالتئام والالتحام، فلا يعدم في مسالكها زحام. فأحجارها طاحنة، ومخابزها شاحنة، وألسنتها باللغات المختلفة لاحنة، ومكاتبها مائجة، ورحابها متمائجة، وأوقافها جارية، والهمم فيها إلى الحسنات وأضدادها متبارية. بلد نكاح وأكل، وضرب وركل وامتياز

= انظر أيضا (السلاوي الناصري: الاستقصاء ج2، ص 22، ابن خلدون: العبر ج7، ص 194 ـ 195) ابن القاضي: جذوة الاقتباس (فاس 1309). Levi Provencal: La Fonclation de Fes (Paris 1939)

راجع كذلك (Enc. Isl. Art, fas, II pp. 72 - 80) وما بها من مراجع).

(479) الماء الغائر، الكهف، ما انحدر من الأرض، القعر من كل شيء

من النساء بحسن زيّ وشكل، يتنبه بها الباه[480]، وتتلّ الجباه، وتوجد للأزواج الأشباه، إلى وفور النشب وكثرة الخشب، ووجود الرقيق وطيب الدقيق، وإمكان الإدام، وتعدد الخدام، وعمران المساجد والجوامع وإدامة ذكر الله في المآذن والصوامع.

وأما مدينة المُلك[481] فبيضاء كالصباح، أفق للغُرَر الصباح، يحتقر لإيوانها إيوان كسرى، وترجع العين حسرى، ومقاعد الحرس، وملاعب الليث المفترس، ومنابت الدوح المغترس، ومدرس من دَرَّس أو درس، ومجالس الحكم الفصل وسقائف التُرس والنصل، وأهداف الناشبة أولى الخصل، وأوا وين الكتاب، وخزائن محمولات الأقتاب، وكراسي الحجّاب، وعنصر الأمر العجاب. إلى الناعورة[482] التي مثلت من الفَلَك الدَوَّار مثالاً، وأوحى الماء إلى كل سماء منها أمرها فأبدت امتثالاً، ومجَّت العذب البرود سلسالاً، وألفت أكوابها الترفّه والترف فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى.

وقوراءَ من قوس الغمام ابتغوا لها مثالاً أداروها عليه بلا شكِّ

فبين الثريا والثرى سد جرمها وللفلك الدوَّار قد أصبحت تحكي
تصوغ لُجين النهر في الروض دائماً دراهم نوْرٍ قد خلصن من السبك
وترسل من شهبانها ذا ذؤابة فتنفي استراق السمع من حوزة الملك
تذكرت العهد الذي اخترعت به وحنَّت فما تنفك ساجعة تبكي

ثم قال، إلا أن حرَّ هذه المدينة مذيب، وساكنها ذيب[483] ومسالكها

---

(480) من الطريف أننا نجد في كتاب روض القرطاس المنسوب لابن أبي زرع عبارة تشير إلى أن مياه الجداول التي تخترق مدينة فاس تمتاز بخصائص عجيبة من ضمنها أنها تنبّه شهوة الجماع إذا شربت على الريق، وتغسل بها الثياب من غير صابون فتبيضها وتكسوها رونقاً وبصيصاً ورائحة طيبة كما يفعل الصابون. هذا ومن المعروف أن النهر الذي يمر بمدينة فاس متفرّع من نهر سبو .(Sebu) وكان يعرف بوادي فاس ويسمى الآن وادي الجواهر.
انظر (ليفي بروفنسال: نخب تأريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ص 22، باريس 1948.

(481) يقصد فاس الجديدة

(482) الناعورة والناعور: آلة لرفع الماء قوامها دولا ب كبير وقواديس مركبة على دائرة، والجمع نواعير.

(483) يقصد ذئب.

وعرة، وظهائرها متسعرة، وطينها هائل، وزحامها حرب وائل، إن نشد الجفاء ناشد، فهي ضالّته المنشودة، أو حشد أصنافه حاشد، فهي كتيبته المحشودة. إلى بُعد الأقطار، وعياث الميازب أوقات الأمطار، والاشتراك في المساكن والديار، على الموافقة والاختيار، وتجهم الوجوه للغريب، ذي الطرف المريب، وغفلة الأملس عن الجريب ودبيب العقارب، أرسالاً كالقطا[484] القارب[485]، وأهلها يرون لأنفسهم مزيّة الفضل، ويدينون في مكافأة الصنائع البالغة بالعَضل[486]. يلقى الرجل أبا مثواه فلا يدعوه إلى بيته، ولا يسمح له ببقله ولا بزيته، فلا يطرق الضيف حماهم، ولا يعرف اسمهم ولا مسمّاهم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليل ما هم. ومقبرتهم غير نابهة، وأجداثها غير متشابهة، مشربة حيوان، ومشبعة جرذان، غير وان.

قلت فما تقول في آقر سلوين، قال وادٍ عجيب، وبلد لداع الإيناع مجيب، مخضرّ الوهاد والمتون، كثير شجر الجوز والزيتون، كنفته الجبال الشم، وحنا عليه الطود كما تحنو على ولدها الأم، فهواؤها ملائم، والعنب على الفصول دائم، إلا أن الشمس لا تطرقه بنوال، ولا ترمقه إلا وقت زوال، قد باء بالحظ الموكوس، وانكمش تحت إبط الظل المنكوس، فجوّه عديم الطلاوة، وعنبه للبرد قليل الحلاوة.

قلت فسِجلماسة[487]، فقال تلك كورة وقاعدة مذكورة، ومدينة محمودة مشكورة. كانت ذات تقديم، ودار ملك قديم، وبلد تبر وأديم، ومنمي تجر ومكسب عديم. معدن التمر، بحكمة صاحب الخلق والأمر، تتعدّد أنواعه فتعيي الحساب، وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب.

---

(484) القطا ومفردها قطاة وهو طائر في حجم الحمام.

(485) القارب: الطالب الماء ليلا.

(486) أي القبيحة.

(487) سجلماسه، بكسر السين والجيم وسكون اللام، مقاطعة ومدينة في جنوب المغرب الأقصى تسمى الآن تافيلالت.

انظر (ياقوت: معجم البلدان ج5، ص41، التعريف بابن خلدون ص40 حاشية 1)

قد استدار بها لحلق السور الأمر العجاب، والقطر الذي يحار في ساحته النجاب، فضرب منه على عذارها الحجاب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب. يحيط بها مرحلة راكب، ويُصيّرها سماء مخضر ة ذات كواكب. فمنازلها لا تنال بهوان، وفُدُنُها ودِمَنُها تحت صوان، ونخلها تظل من خلف الجدار، وتتبوأ الإيمان والدار، وحِلَلُها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مرّ الزمن، وسوائمها آلفة للسمن، موجودة بنزر الثمن، وفواكهها حميمة، ونعمتها عميقة، وسورها حصين مشيّد، وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد، وسقيها يخص دار الملك بحط معلوم، ويرجع إلى وال يكف كل ظلوم. وهي أم البلدان، المجاورة لخدود السودان فتقصدها بالتبر القوافل، وتهدي إلى محاربها النوافل. والرفاهية بها فاشية، والنشا في الحلية ناشية، لكنها معركة غبار، وقتيل عقربها جبار[488]، ولباسها خامل، والجفاء بها شامل، والجو يسفر عن الوجه القطوب، والمطر معدود من الخطوب، لبناء جدرانها بالطوب، والقرع بؤوس أهلها عابث، والعمش في جفونهم لابث، والخصا يصيبهم، ويتوفر منه نصيبهم.

قلت فتازا[489]، قال بلد امتناع، وكشف قناع، ومحل ريع وإيناع، ووطن طاب ماؤه، وصحّ هواؤه، وبان شرافه واعتلاؤه، وجلّت فيه مواهب الله وآلاؤه. عصيره مثَل، وأمر الخصب به ممتثل، وفواكهه لا تحصى، يُمار بها البلد الأقصى، وحبوبه تدوم على الخزن، وفخاره آية في لطافة الجرم وخفّة الوزن، إلا أن ريحه عاصف، وبرده لا يصفه واصف، وأهله في وبال، من معرّة أهل الجبال، وليوثه مفترسة، وأخلاق أهله شرسة.

---

(488) الجبار: الهدر، يقال ذهب دمه جباراً أي هدراً دون أن يؤخذ بثأره.

(489) تازا (تازة) Taza تقع في شرق مدينة فاس بنحو 127 ك.م، وتمتاز هذه المدينة بموقع استراتيجي ممتاز جعلها منذ أقدم العصور مركزاً حربياً له خطورته. ولمكانتها الحربية اتخذها الحسن بن إدريس الثاني مقراً حربياً، وعني بها عبد المؤمن الموحدي فجعلها حصناً مانعاً وفي أيام بني مرين اتخذها أبو يعقوب المريني قاعدة لغزو تلمسان ولا تزال إلى اليوم مركزاً حربياً له أهميته. وينسب إلى هذه المدينة علماء كثيرون.

انظر (التعريف بابن خلدون ص 134 حاشية 2، تاج العروس ج4، ص 12)

قلت فَغسَاسَة[490]، قال فريسة وأكيلة، وحَشَف وسوء كيلة، إلا أنها مرسى مطروق، بكل ما يروق، ومرفأ جارية بحريّة، ومحطّ جباية تجريَّة.

ثم لما وصل إلى هذا الحد، نظر إلى حاج السوق قد أفاض، ومزاده أعمل فيه الانفاض، وعلوّ الأصوات به قد صار إلى الانخفاض. فقال وجب اعتناء بالرحيل واهتمام، وكل شيء إلى تمام. ومددت يدي إلى الوعاء فخرقته، وإلى العين فأرَّقته، وقلت له لأحكُمنَّك من كرام بني الأصفر، في العدد الأوفر، مائلة في اللباس المزعفر. فلمّا خضب كَفَّيه بحنّائها، وحصلت النفس على استغنائها، استدناني، وشَبَّك بنانه ببناني، وقال لا حبط عملك، ولا خاب أملك، ولا عدم المرعى الخصيب هملك، فلنعم مغلي البضائع، وحافظ الفضل الضائع، ومقتني الفوائد، ومعوّد العوائد. وستثبتّ مخيلته، فإذا الشيخ وتلميذه، وحماره ونبيذه، وقد تنكّر بالخضاب المموّه، والزيّ المنوه وعاث بخد الغلام الشعر المشوّه. فقلت، هيه أبت المعارف أن تتنكر، والصباح أن يُجحد أو ينكر، كيف الحال بعدي، وما اعتذارك عن إخلاف وعدي، فقال:

خذ من زمانك ما تيسَّرْ واترك بجهدك ما تعسَّرْ
ولَرُب مُجْمَل حالة ترضى به ما لم يُفَسَّرْ
والدهر ليس بدائم لا بد أن سيسوء إن سر
واكتم حديثك جاهداً شمت المحدث أو تحسَّرْ
والناس آنية الزجاج إذا عثرت به تكسر
لا تعدم التقوى فمن عدم التقي في الناس أعسر
وإذا امرؤ خسر الإله فليس خلق منه أخسر

ثم ضرب جنب الحمار، واختلط في الغمار، وتركني أتقرّى الآثار، وكل نَظْم فإلى انتثار.

---

(490) غساسه: تقع عند مصب نهر ملويه Muluia بالبحر المتوسط، وهناك كانت قبائل بطوية Buthoia.

راجع(ابن خلدون: العبر ج6 ص 101 ـ 102،.(J. Leon: op. cit. p. 180

الرسالة الرابعة

رحلة لسان الدين بن الخطيب

في بلاد المغرب

عن كتاب نُفَاضَة الجِرَاب في عُلالَة الاغْتِراب

[لوحة رقم 2] بسم الله الرحمن الرحيم، صلّى الله على سيدنا محمد وآله. . .

فصل في ذكر جبل هنتاته(491)

(491) هنتاته: بكسر الهاء وفتحها، وسكون النون، وفتح التاء الفوقية، بعدها ألف ممدودة ثم تاء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص 37 حاشية 1) وهنتاته اسم يطلق على جبل من جبال أطلس كما يطلق على القبيلة المقيمة فيه. ولقد لعبت قبيلة هنتاته دوراً كبيراً أيام الموحدين وبني مرين.

انـظـر: (Pierre de Cenival: Les Emirs de Hintata Rois de Marrakeeh, Hesperis 1937 t. XXIV p. 245.)

وقد اختفى ذكر هنتاته بعد القرن السادس عشر الميلادي، ومن المصادر الأساسية التي يرجع إليها في هذا الشأن كتاب (Descripcion de Africa) أي وصف إفريقيا، الذي كتبه باللغة الإيطالية في القرن السادس عشر الميلادي، الفقيه المغربي الحسن بن محمد الوزان الفاسي. وكان هذا الرجل قد اعتنق المسيحية وسمى نفسه يوحنا ليون الإفريقي Juan Leon Africano ، ثم سافر إلى إيطاليا خوفا من أن يغتاله مواطنوه. وهناك اشتغل بتدريس اللغة العربية. وفي آخر حياته عاد إلى تونس حيث اعتنق الإسلام من جديد وتُوفي عام 1532م. والكتاب لأهميته العلمية قد ترجم إلى اللغة الإسبانية بواسطة معهد الجنرال فرانكو بتطوان عام 1952 كما ترجمه المستشرق ماسينيون إلى الفرنسية: Louis Massignon : Tableau

وعملنا على الصعود إلى الجبل المطل عليها، والجارح المرفرف على دُرَّاجها مقتصرين على حدود هنتاته، عنصر الدعوة، وأولياء الدولة المرينية، وحلفاء الطاعة المخصوصين برعي الجوار، والاستماتة من دون الحرمة، وشد عروة الوفاء، وسد الخلَّة واستحقاق الشُّفوف(492) على غيرهم والمزية، إذ كان ذلك أقوى بواعث الوجهة، وأخلص مقاصد الرحلة.

وقدمت بين يدي وصولي إلى مراكش، المخاطبة إلى عميد تلك البقعة، وشاه تلك الرقعة، صدر هذه الحدود القصوى، المتميّز بالرجاحة والرأي والسياسة، المتفق فيه إفاضة العدل، وكف اليد، والتجافي عن مال الجباية، والمستأثر بحمد الجمهور من الرعية، وحب أولي العفاف والخيرية، إلى النُّبل الذي لا يطيش نبله، والإدراك الذي لا يُفَلُّ حدُّه، والدهاء الذي لا يسبر غوره، والمعروف الذي لا يتجاوز محالُّ الضرورة حكمته، عامر بن محمد علي(493) الهنتاتي، بما نصه(494):

---

geografique d'apres Leon I'Africain (Alger 1906). ولقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية حديثاً مرتين: الأولى على يد عبد الرحمن حميده (الرياض 1399هـ، 1979م) والثانية بواسطة محمد حجي ومحمد الأخضر (الرباط 1400هـ، 1980م).

هذا وقد أشار الوزان إلى جبل هنتاته باسم محرف Hantera هنتيرا وقال إنه جبل مرتفع جداً وأهله مشهورون بالغنى والشجاعة. راجع (الترجمة الإسبانية ص 76 ـ 77) راجع كذلك:
(Levi Provencal : Decoments Inedits D,Histoire Almohade p. 62 Note 4)

(492) الشفوف بمعنى السمو.

(493) عامر بن محمد بن علي المكنى بأبي ثابت، شيخ هنتاته من قبائل المصادمة؛ تولى أحكام الشرطة بتونس في عهد السلطان أبي الحسن المريني ثم ولي الجباية لأبي عنان فارس فكفاه مؤنتها. وكان أبو عنان يقول عنه (وددت لو أصبت رجلاً يكفيني ناحية المشرق من سلطاني كما كفاني محمد بن عامر ناحية المغرب، وأتودع). انظر (ابن خلدون: العبر ج7، ص300 ـ 318) وقد أورد ابن الخطيب ترجمة لهذا الشيخ في كتاب الإحاطة (لوحة 346 ـ 347 اسكوريال) وقد أشار فيها إلى أن السلطان أبا الحسن المريني عهد إلى عامر هذا بحفظ حرمه في سفن خاصة بجوار الساحل الأندلسي وذلك عندما دخل بجيوشه أرض الأندلس لمحاربة الثالوث المسيحي الإسباني: قشتالة، أرغونة، البرتغال. ومن المعروف أن هذه الحرب انتهت بهزيمة السلطان المريني في وقعة طريف Del Salado عام 741هـ (1340م) واستشهد عدد كبير من المسلمين من بينهم والد ابن الخطيب وأخوه.

(494) نقل المقّري هذا الخطاب في كتاب نفح الطيب ج8، ص 314 ـ 315 (طبعة محي الدين عبد الحميد).

تقول لِيَ الأظعان والشوق في الحشا | له الحكم بمضي بين ناه وآمر
إذا جبل التوحيد أصبحتَ فارعاً | فخيم قرير[495] العين في دار عامر
وزُرْ تربها المعصوم[496] إن مزارها | هو الحجُّ يمضي[497] نحوه كل ضامِر
ستلقى بمثوى عامر بن محمد | ثغور الأماني من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهة | ولله ما تلقاه من يُمن طائر
وتستعمل الأمثال في الدهر منكما | بخير مَزُور أو بأغبط زائر

لم يكن همّي، أبقاك الله، مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة الأيام والليال، إذ الشمل جميع، والزمن كلّه ربيع، والدهر مطيع سميع، إلا زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية، وكانت إليه العودة ومنه البداية. فلمّا حُمَّ الواقع (وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع)[498] وأصبحت ديار الأندلس وهي البلاقع، وحسنت من استدعائك إياي المواقع، قوي العزم وإن لم يكن ضعيفاً، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً، والتمست الإذن حتى لا ترى في قبلة السداد تحريفاً، واستقبلتك بصدر مشروح، وزنْد العزم[499] مقدوح، والله يحقق السول، ويسهل بمثوى الأماثل المثول، ويهيئ من قبيل[500] هنتاته القبول بفضله.

فأكرم الوفادة، وأطرأ[501] بين يدي الإمارة، وأستدعى من محل سكناه بمراكش إلى دار الكرامة، وشرك في الطعام نبهاء الدولة وعليّة الخاصّة. وأطرف من استجلاء منزله بقرة العين، انفساخ خطة، والتفاف شجرة، وجرية ماء واستبحار بركة. واستكثر من كل طرفة، ونقل من جلسة إلى

---

(495) في نفح الطيب: قرار
(496) في نفح الطيب: تربة المعلوم
(497) في نفح الطيب: يفضي
(498) الزيادة عن نفح الطيب
(499) في نفح الطيب: للعزم
(500) في نفح الطيب: قبل
(501) أطرأ أي بالغ في مدحه

جلسة، وحرص على تتميم البر بكل حيلة.

وفي يوم الاثنين المتصل بيوم القدوم، توجَّهنا إلى الجبل في كنف أصحابه تحت إغراء بره، وفي مركب قرة عينه، فخرجنا نستقبل بين يديه السهل، ونساير الجهة، ونشاهد الآثار، ونتخطّى المعاهد، وننشق (3 و) النسيم البليل القريب العهد بمادة الثلج وعنصر البرد، ولما بلغنا درج الجبل، وانتحينا طريقه من السفح، وهي تركب ضفّة الوادي الملتف بعادي شجر الجور والطَرْفاء وشجر الخلاف والدردار، وأمعنّا (و)[502] كابدنا عنتاً في اقتحام الوادي ذي الجرية الكثيرة الصبب، المسوقة المد، العظيمة التيار، المجهولة المخاض، ونقتحم منه أزرق شفّافاً عن الحصباء، كثير الجلبات، أملس الصفاح، لذّاع البردِ، عبرناه نحواً من ثلاثين مرّة في أماكن يتخلّلها الدَّوح، ويعظم الرَّيع، وتَخْصُر الحرباء، وتسمو عن جانبها الجبال الشم، والشعبات التي تزلُّ بها العُصْم، وتفضي دروبه إلى أقوار[503] فسيحة وأجواء رحيبة، يكتنفها العمران، ويموج بها السنبل.

ولما كدنا أن نختم عدد نُوَب المجاز، ونأتي على عَنَتِه، تلقتنا الخيل راكضة أمام اليعسوب المتبوع عبد العزيز بن محمد الهنتاتي، صنوه وحافظ سيقته، وقسيمته في قعساء عزته، الحسن الوجه، الراجح الوقار، النبيه المركب، الملوكي البزه، الظاهر الحياء المحكم الوخط إيثاراً للحشمة واستكثاراً من مواد التجلة على الفَتَاء والجِدَة. فرحَّب وأسْهَل، وارتاح واغتبط، وألطف وقدَّم، وصعدنا الجبل إلى حلّة سكناه، المستندة إلى سفح الطَّوْد، وقد هيأ ببعضِ السهل الموطأ للاعتمار بين يدينا من المضارب كل سامي العماد، بعيد الطُّنُب، سويّ القامة، مقدَّر التفاصيل، بديع النقش والصنعة، ظاهر الجدة، مصون عن البِذْلَة، يظلل من مراتب الوطاء الرفيع، ولحف الحرر (3ط) ومساند الوشي، وانطاع مزعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجَّبة والأبهاء المنضدة. ولم يكد يقر القرار، ولا تنزع الخفاف، حتى غمر

---

(502) الواو هنا زيادة كي يستقيم المعنى

(503) انظر ما كتبه دوزي في معنى قور وأقوار في: (Dozy: Supplement aux Dictionnaires Arabes. II p. 417 a)

من الطعام البحر، وطما الموج، ووقع البَهت، وأمّل الطّخو[504]، ما بين قصاع الشيزي أفعمها الثُرُد، وهيل بها السمن، وتراكبت عليها لِسمَان الحُملان الأعجاز، وأخونة تنوء بالعصبة أولي القوة، غاصّة من الآنية بالمُذهَبِ والمُحكَم، مُهْدِيَةً كل مختلف الشكل، لذيذ الطعم، مُهان فيه عزيز التابل، محترم عنده سيدة الأحامرة الثلاثة[505]، إلى السمك الرضراض والدجاج فاضل أصناف الطيّار، ثم تتلوها صحون نحاسية تشتمل على الطعام خاص من الطير والكُبَّاب واللقالق[506]، يقع منها بعد الفراغ إلمام ذلك الرئيس في نفر من خاصته مما يدل على اختصاص ذلك بنفسه. ويتلو ذلك من أصناف الحلواء بين مُسْتَبْطَن للباب البُر، ومعالج بالقَلْو، وأطباق مُدَّخر الفاكهة وأوعية العود المحكم الخَلق، المشتملة على مُجاج الشهد. وقد قام السماط من خدام وأساودة أخذتهم الآداب وهذبتهم الدُّربة، فخفَّت منهم الحركة، وسكنت الأصوات، وانشمرت الأذيال، وقد اعتمَّ من الآنية النحاسية للوضوء والوقود كل ثمين القيمة، فاضل أجناسه في الطيب والأحكام والفخامة.

ولم يكد يفرغ من الأكل إلا وقد جنَّ الليل، وتلاحق من الطعام السيل، مربياً على ما تقدم بالروية وانفساح زمان الاحتفال، وتفنن أصناف الحلواء، وتعدَّى (4 و) عسليّها إلى السكر، وكان السَّمر والمجالسة في كنف لألاء الشموع الضحاكة فوق المنصات النحاسية، والأنوار اللاطونية[507].

فاستعيد الكثير من تاريخ القطر وسيره، وخبر لجأ السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن[508] إلى قنتة، والتحرم بمنيع وعز جواره على تقية هيض

---

(504) أي الانبساط والامتلاء.

(505) عبارة يقصد بها أصلاً اللحم والمسك والخمر.

(506) اللقلق طائر طويل العنق والرجلين يوصف بالذكاء والفطنة.

(507) لعلها مشتقة من الكلمة الإسبانية لاطون Laton بمعنى النحاس الأصفر. وقد استعملها المقّري في (نفحه ج1، ص 303، 362). راجع .(Dozy: Suppl. II, p. 618 a)

(508) أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (731 ـ 749هـ) عاشر ملوك بني مرين بفاس. كان رجلاً مجاهداً قوياً طموحاً، استطاع أن يوحد المغرب تحت سلطانه ثم يتجه بجيوشه وأساطيله نحو الأندلس لغزو الأراضي المسيحية والسيطرة على مضيق جبل طارق.

جناحه، وتَبَرّى أثيره عميد العساكر منه، وإطراق العيون عند نجدته، وتصاميم المسامع عند هاء استغاثته، وقد خَذل النصير، وزلّت الأقدام وساءت الظنون، وما كان من إجابة هذا النَّدْب عبد العزيز لندائه، والتبجح بمنعة جبله، ووفور عدته، وأصيل وفائه واستصحابه إلى مقر أهله ومفزع ولده، ودفاعه بنفسه وقبيله ورضاه بتغير ما تناله الأيدي بالسهل من نعمته، فعادت قاعاً صفصفاً بمرآي من عينه، فعاثت فيها السنة النار بأرض البوار عن طيب من نفسه حتى لكادت الكرة أن تتاح، والدولة أن تتداول، والملك أن يثب، والعثرة أن يقال لها لعاً. ولولا طارق الأجل الذي فَصَل الخطة، وأصمت الدعوة، ورفع المنازعة. فتوفّاه الله بين السحر والنحر، والأنف والعين، وأستأمن من بعده لمن كان خلص إليه من خدامه، وانحدر طوعاً بين يدي سريره، وأبقى محل وفاته مرفَّهاً عن الابتذال بالسكنى، مفترشاً الحصباء مقصوداً بالابتهال والدعاء، فتخلُفُها أي منقبة شَمَّاء، ومأثرة بلغت ذوائبها أعنان السماء، ويداً على (4 ط) الخلق بيضاء.

ومن الغد كان التوجّه إلى ذلك المحل المبارك، فاقتحمنا وعراً نزل فيه الذرّ[509]، ولا يسلكه مع الحلم الطيف. وتسنّمنا شعاباً تعجز عنها العُصْم،

غير أن الجيوش الإسبانية ومن انضم إليها من جيوش المتطوعين الأوربيين انتصرت عليه في وقعة بالقرب من مدينة طريف ومن نهر سلادو؛ ولذا سميت في المصادر العربية بوقعة طريف وفي المصادر الإسبانية Salado del rio وذلك في عام 1340م/ 741هـ وقد مات في هذه الوقعة والد ابن الخطيب وأخوه. بعد هذه الهزيمة ثار المغرب الأوسط أو الجزائر على السلطان أبي الحسن يريد الاستقلال عن فاس بزعامة بني عبد الواد كما ثار عليه ابنه فارس أبو عنان. ولم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث المتلاحقة، فمات حزيناً شهيداً عام 749هـ عند بني عامر في جبل هنتاته. ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة بالمغرب الأقصى والأوسط وبالأندلس.

راجع ترجمته في (ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن) وقد نشره المستشرق ليفي بروفنسال تحت عنوان:

(Un nouveau texte d histoire merinide: le musnand d Ibn Marzuk. Hesperis V1925)

انظر كذلك (ابن خلدون: العبر ج7، ص 278 وما بعدها؛ السلاوي: الاستقصا ج2، ص 101 ـ 102؛ المقّري: نفح الطيب ج8، ص 319 ـ 322)

(509) الذر: صغار النمل.

وتجاوزنا مهاوي مدت فيها أسراط من الخشب ترتفع عند الضرورة الفادحة، فتنقطع عمّن وراءها الآمال، إلى أن أفضينا ولم نكد إلى المحل المقصود وهي دار قوراء نبهة البنية بالنسبة إلى جنسها[510]... ساذجة بادية ملطّخة الجدرات بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال بيوتها، لاطية السقف غير مهذّبة الخشب، بأعلاها غرف من جنسها، يدور بداخلها برطال[511] مستعل على أرجل متّخذة من اللبن، والحجر مُلبّس بالطين، والبيت حيث متوفى السلطان مفترش بالحصباء، قد ترك فيه دائرة كالقصعة تباشر الثرى، وتمكن من تربته من يقصد شفاء المرضى، وكحل العيون المرهى، إذ كان رحمه اللّه آخر ملوك العدل نشأة، لم تعرف الخبائث، ولا آثرت الملاذ مُغْنِياً في بِرّ والديه مصرّفاً في انتساخ الذكر الحكيم يمنى يديه، محافظاً على الصلاة قيُوماً عليها بالليل، كثير الصدقة والصوم، مجالساً للعلماء، مستكشفاً أحوال الرعايا، حانياً على الضعفاء، معملاً في سبيل اللّه بيض الظُبا[512]، صابراً على اللأواء، محتسباً في البلوى، مستشعراً شعار التقوى، ألحقه اللّه بالرفيق الأعلى. وبإزائه مصراع باب غسلت عليه جثّته الزكية، لا تتمالك العين أن تنتثر سلوك دموعها، ولا القلوب أن تأخذ الحسرة بكظمها، لما عضّ ذلك الملك الحُلاحِل[513] من الخطب الذي عوضه من نضرة النعيم، ووجوه الغَرانِقَة[514] الغر، والتوكّؤ على النمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة، في المتبوأ الكريم، واستثقال طلعة البدر، واستجفاء هبّة النسيم بقنن الجبال الغُبْر، وسكنى المحال الخشن، ومفارقة الأهل والولد عند فراق الروح للجسد. جعلنا اللّه من الدنيا على حذر وتَوَقٍ، وكتبنا ممن قدر قدره ولم يأمن مكره. فقعدنا

---

(510) هنا ثلاث كلمات غير مقروءة تماماً ورسمها الآح بحق بها

(511) المقصود البرطال أو البرطل: المدخل ويقابلها في اللغة الإسبانية El Partal وفي الإنجليزية Portico وفي الفرنسية .Portiqueانظر (جمال محرز: الرسوم الجدارية الإسلامية في البرطل بالحمراء ص 13 ـ 14)، مدريد 1951.

(512) يقصد السيوف

(513) الحلاحل أي العظيم

(514) جمع غرنيق وهو طائر مائي أبيض جميل، ويطلق كذلك على الشاب الأبيض الجميل الصورة

وقرأنا وأفضنا في الترحم ودعونا.

وكان الانصراف بعد أن ألمنا في تلك المحلّة بمسجد إمامهم[515] المهدي ودار سكناه، وأثر مدرسته وسجنه، كل ذلك من الخمول واللطو واستهجان الآلة على حال شبيهة بمباني الدَّبْر[516]، وقرى النمل، وأعشاش الخُشاش[517] من الطير. فعجبنا مِن مفتاح تلك الدُّوَيْرة المهتضمة، كيف تملك من القصور العظيمة ما إنّ مفاتِحه لتَنُوءُ بالعُصْبَة أولي القوة؛ ولمنبر ذلك المسجد كيف أخذ على كونه قمئ الجلسة، مصاحباً لبعض القشر، بريأ من الصنعة بأزمَّة المنابر المتخذة من الألُوَّة[518] والصندل المقاصري في لونيه، والأبنوس الحبشي، وأنياب الفيول، وأرعاها بعصياه، واستاقها بين يدي طاعته كالذَّوْد الشائل والسائمة الواردة ما بين قُرطُبَة واشبيليَّة وغرناطة وإفريقيّة[519] والمغرب، سُنَّة اللّه في إدالة الدول، وتعقيب النِحَل، ألم تر [إن الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده].

---

(515) مهدي الموحدين أبو عبد اللّه محمد بن تومرت، مؤسس دولة الموحدين بالمغرب عام 514هـ. قامت هذه الدولة على أكتاف قبائل المصامدة، نخص بالذكر منها قبيلة هنتاته. وتُوفي المهدي عام 522هـ (1128م). أما دولة الموحدين فقد انتهت عام 668هـ بعد أن امتد سلطانها إلى الأندلس من سنة540 إلى 609هـ تقريباً.

وكانت دعوة المهدي تقوم على أساس نفي التجسيم الذي آل إليه أهل المغرب الذين تركوا التأويل في التشابه من النصوص الشرعية وأخذوا بظواهر الأمور. وقد سمى دعوته دعوة أهل التوحيد، وأتباعه بالموحدين. واستمرت تعاليم المهدي منتشرة بين الناس حتى أواخر العصور الإسلامية بالأندلس. فيقول صاحب الحلل الموشية (ص 89 ـ 90 نشر علوش Allouche))إن ابن تومرت ألف كتاباً سمّاه بالأمانة وآخر سماه بالقواعد ـ بهما تعاليمه الدينية وما يجب على المسلم وما يستحيل عليه وما يجوز له ـ دوّنها بالعربي والبربري وهما موجودان بأيدي الناس إلى هذا العهد) (أي القرن الثامن الهجري). راجع ترجمة المهدي في (عبد الواحد المراكشي: المعجب ص115 ـ 125؛ ابن خلدون: العبر ج6، ص 225 ـ 226؛ التعريف بابن خلدون ص234 حاشية1؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص97) انظر كذلك (Pierre de Cenival: Les emirs des Hintata Rois de Marrakech-)Hesperis t. XXIV,1937).

(516) الدبر: النحل

(517) الخشاش أي الضعاف

(518) الألوة: شجر العود، يتبخر به

(519) المقصود بإفريقية في المراجع العربية، مملكة تونس أو المغرب الأدنى.

وانحدرنا عن ذلك المرفق فأسْهَلنا ببطن الوادي، وأرحنا بجلسة موطأة معدّة لاستجمام السلطان رحمه اللّه، قد ظلّلتها الأشجار، تجري تحتها عين خرَّارة كأعظم الأنهار فوق حصى كدُرِّ النحور، القريبة العهد بلجج البحور، أو كثنايا[520] الحور. تركت في تلك الجلسة أثقاب وخُروت[521] تفضي إليه، تُجعل الجعائل[522] على إمساك اليد بها برهة معتبرة، يفتضح متعاطي ذلك لَخَصَرِها[523]، وما يؤثر البرد الشديد في حسّ عصبها. وجلب إلى ذلك المكان من الطعام والفاكهة والشهد ما يحار فيه الوصف.

ثم انتقلنا إلى محل النزول، ومثوى الكرامة من المضارب، ودعينا إلى الدور حيث سكنى أولئك الأشراف، يغمرنا بكل دار منها من الأطعمة ما يحار فيه الفكر ولا تنال منه إلا العين. وتشاهد من أجناس الفرش المرفوعة والمراتب المقدرة، والسُتر الديباجيّة المسدولة على الأرائك الممهدة، والسيوف المعلقة، تتخللها العِدَّة من أضونة مُذمِج[524] القرآن وصحيح الحديث ساكنة منها في جفون[525] منقوشة محلاة بالإبريز، مقلّدة بمحامل الحرير النسيج.

وعند الانصراف إلى المضارب، أقبلت التحف والهدايا من المقرَّبات الكاملة تختال في الحلية، والكسا الرفيعة طيّ الأوعية الرقيمة، فعجز الشكر وبان التقصير.

ثم غمر الطعام وتخلَّف الشيخ عن المجالسة والمؤاكلة معتذراً عنه بألم مانع نغص لدينا النعيم، وكدر (6و) الشِّرْب[526] تطيراً من وداعنا إياه حلْسَ فراش أو رهين شكاية. ثم (إنه حَدْسُنَا أنه أَلَمُ الحُسَبَاء)[527] وتذكَّرنا قول الأول:

---

(520) الثنايا: أسنان مقدم الفم.

(521) الخروت: الثقوب الضيقة.

(522) الجعائل جمع جعيلة وهي الأجر أو المكافأة.

(523) أي لبرودتها. ،

(524) أي الملفوفة أو المتقنة الكتابة.

(525) علب من الجلد.

(526) الشرب: الحظ والنصيب منه.

(527) هذه العبارة التي بين القوسين غير واضحة في المخطوط، وربما كانت قراءتها كما في المتن.

إذا غدا الطِّيبُ يجري في مفارقهم راحوا كأنّهم مرضى من الكَرَمِ

فحقَّت الظِّنَّة، وصدقت المَخِيلَة.

ومن الغد كان الانصراف، فشَيَّعَ وأبعد، وتألم للمفارقة وتوجع، كثَّرَ اللّه مثله، وكافأ قوله وفعله، وأورث عز تلك البقعة عَقِبَه.

ولم أبرح يوم زيارة محل وفاة السلطان أمير المسلمين أن قلت[528]:

يا حسنها من أربع وديار أضحت لباغي الأمن دار قرار
وجبال عز لا تَذِلُّ أنوفُها إلا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد وأسُّ خلافة آثارها تنبي عن الأخبار
ما كنت أحسب أنّ أنهار الندى تجري بها في جملة الأنهار
ما كنت أحسب أنّ أنوار الحجى تلتاح في قننٍ وفي أحجار
مُحِت جوانبها البُرودُ وإن تكن شَبَّت بها الأعداء جَذْوَة نار
هَدَّتْ بِناها في سبيل وفائها فكأنها صرعى بغير عقار
لما توعدها على المجد العدا رضيت بعَيْثِ النار لا بالعار
عَمَرت بحِلَة عامر وأعزها عبد العزيز بمرهف بتار
فرسا رِهان أحرزا قَصَبَ الندى والبأسَ في طَلَقٍ وفي مضمار
ورثا عن النَّدْب الكريم[529] أبيهما محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهي شبيهة بالأصل في وَرَقٍ وفي إثمار
أزرت وجوه الصِّيد من هنتاته في جوّها بمطالع الأقمار
لله أي قبيلة تركت لها النُّظَ راء دعوى الفخر يوم فخار
نصرت أمير المسلمين وملكه قد أسلمته عزائم الأنصار
آوت[530] عليا عند ما ذهب الردى والروع بالأسماع والأبصار
وتخاذل الجيش اللُّهام وأصبح الـ أبطال بين تقاعد وفرار

---

(528) أورد المقري هذه القصيدة في كتابيه نفح الطيب (ج8، ص 323)؛ وأزهار الرياض (ج1، ص 294 ـ 295)

(529) في نفح الطيب: الكبير

(530) في نفح الطيب: وارت

كُفِرت صنائعه فيمَّمَ دارها مستظهراً منها بعز جوار
وأقام بين ظهورها لا يتقي وقع الرَّدَى وقد ارتمى بشرَار
فكأنها الأنصار لما آنست[531] فيما تقدم غربة المختار
لما غدا لحظا وهم أجفانه نابت شفارهم عن الأشفار[532]
حتى دعاه اللّه بين بيوتهم فأجاب متمثلاً لأمر الباري
لو كان يُمنَع من قضاء اللّه ما خَلَصَت إليه نوافذ الأقدار
قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما أوْلَوْه لولا قاطع الأعمار
ما كان يقنعه لو امتدَّ المدى إلا القيامَ بحقها من دار
فيعيد ذاك الماء ذائبَ فضة ويعيد ذاك التُّرب ذَوْبَ نُضَار
حتى تفوز على النوى أوطانها من ملكه بجلائل الأوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههم أثر الرعاية[533] ساطع الأنوار
ويسوّغ الأمل القصي كرامها من غير ما تُنْياً ولا استقصار
ما كان يرضي الشمس أو بدر الدجى عن درهم فيه ولا دينار
أو أن يُتوّجَ أو يُقلَّدَ هَامُها ونحورها بإهالة ودواري
حقٌّ على المولى ابنه إيثار ما بذلوه من نصر ومن إيثارِ
فلمثلها ذُخِر الجَزَاء ومثلُه من لا يُضيع صنائع الأحرار
وهو الذي يقضي الديون ومثله[534] يرضيه في علن وفي أسرار
حتى تَحُجَّ محلةٌ رفعوا بها علم الوفاء لأعين النظار
فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً للطائفين إليه أي بدار
تُغنى قلوب القوم عن هَدْيٍ به ودموعهم تكفي لرمي جمار
حُييتِ من دار تكفَّل سعيها الـ(م) محمود بالزُّلفى وعقبى الدار
وضَعَت عليك من الإله عناية ماكرَّ ليلٌ فيك إثر نهار

فلا تسل عن حسن موقعه لديه، وسرور نفسه به. وفي الحين طير به

---

(531) في نفح الطيب: لما أن سمت.

(532) شفارهم: أجفان عيونهم، والأشفار: أراد بها السيوف.

(533) في نفح الطيب: العناية.

(534) في نفح الطيب: وبره.

إلى أخيه كبيره[535] وهو على سموّ قدره وعلوّ ذروته، أشد الناس إيجاباً لحقّه، وانخفاضاً لبأوه، وتطامناً بمجلسه، يقرضه وزان الأب في الانَةِ القول، وانكسار الطرف تتميماً لوظائف المجد، وإقامة لسوق الحرية. فأورى عند لقائنا إياه زنده، وعَقَّب الصلة الجزيلة عذره، وبلغ قصبات السبق فضله.

وانحدرنا من الغد إلى مدينة أغمات ورُيكَة[536] عن درَج نزلنا لجَرَّاه عن الظُّهر. وقدنا الدواب قوداً، فجازت ناحية عن صراط بعد سياط ومياط. واجتزنا على ديار هنتاته بذلك السفح على حدود أضدادهم الوريكيين، وقد أسهلوا وانبسطوا، ومثلت لهم الديار الحُمْر، تحفُّ بها البساتين الخضر، تخترقها المذانب[537] الزُّرق. وأرحنا ن تلك الجهة بالمسجد البديع الحافل البنية، السامي المئذنة[538]، المقام لصق دار موسى بن علي الهنتاتي، البادي طللها، المنبئة عن أخبارها آثارها، تُوسِعُه ما شاء من ثناء ورحمة.

ثم أتينا مدينة أغمات في بسيط سهل مُوَطَّأ لا نَشزَ فيه ينال جميعه السَّقي الرَّغد، وتركبه الخلجان وقد تموَّج به العشب، وعافته الأيدي وغَلَّت أيدي فلاحه الفتنة. وهذه المدينة قد اختطت في الفضاء الأَفْيَح، فبلغت الغاية من رحب الساحة وانفساح القورة، مثَّلَت قصبتها منها قبله، وسورها مُحمَرُّ التُرْب، سَجِحُ الجِلْدَة، مُنْدَمِلُ الخندق، يخترقها واديان اثنان من ذَوْبِ الثلج وسور الجبل، قامت بضفَّتيها الأرحاء واردة وصادرة، مرفوعة

(535) يقصد عامر بن محمد الهنتاتي.

(536) تقع مدينة أغمات في جنوب مدينة مراكش على سفح جبال مدينة أطلس. وكانت في ذلك الوقت عبارة عن مدينتين متقابلتين: أغمات عيلان، وأغمات وريكة. وكان بينهما عداء وقتال دائم. وكل فريق كان يصلي في الجامع منفرداً. وقد زال هذا العداء فيما بعد كما زالت أغمات وريكة في القرن السادس عشر الميلادي. انظر: (J .Leon Africano: Descripcion de Africa p. 73). انظر كذلك (صفي الدين البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ج1، ص 98) انظر كذلك (البكري 339 ـ 340)

(537) أي الجداول

(538) المأذنة في الأصل.

الأسداء، منيعة البناء. يمرُّ أحدهما بشرقي المسجد الجامع طامي العباب محكم الجسور، نظيف الحافّة، نزهة للأبصار وعبرة لأعين النظّار. ومسجدها المذكور عتيق عادي كبير الساحة، رحيب الكنف متجدِّد الألقاب. ومئذنته[539] لا نظير لها في معمور الأرض. أسَّسها أولوهم مربعة الشكل وما زالوا يَبْخَسُون الذرع، ويجحدون العرض، حتى صارت مُجسَّماً كاد يجتمع في زاوية المخروط. وأدير عليه فارز من الخشب يطيف بناء[540] لاط، وقد أطل سامي جامورِها[541] فوقه، فَقَبُحَتْ حتى مَلُحَتْ واستحقت الشُهْرَة والغرابة.

وأهل هذه البلدة ينسب إليهم نُوكٌ[542] وغَفلة عِلَّتُها، إن صدقت الأخبار، سلامة وسذاجة، فتَغْمُرُ بملحهم الأسمار، وتتجمل بنوادر حكاياتهم الأخبار. فمنها أن ملك المغرب لما عجب من هذه المئذنة، استأذنوه في نقلها إلى بلده على سبيل الهدية، يجعلونها تحفة قدومه، وطُرفة وفادته.

وبإزائها المسجد، بينه وبين النهر المار بإزائه قبّة عظيمة القبو، فخمة البنية، ترقص فيها فوّارة خرقاء في خُصَّة من الحجر الأدكن مشطوفة الباطن رحيبة القطر، قد تثلَّمت بعض حافاتها لماسة الأيدي، ومباشرة أجرام الخزف والفخار عند الاغتراف بما ينبئ عن قديم عهد وطول مدة.

وللسلطان بهذه المدينة دورٌ حافلة تدل على همم ومعالي أمم، واحتفال عوالم درجوا وأمم، قد ركلها العفا وجذب معاطفها الخراب. فما شئت من خُشُبٍ منقوشة وأُطُمٍ[543] مرقومة.

---

(539) ومأذنته في الأصل.

(540) كذا في الأصل ولعلّ الصواب ببناء.

(541) جامور، وجمعها جوامير أو جامورات، معناها عامود في أعلا البناء. انظر (R. Dozy: Suppi,, t. I, p.212 b)

(542) نوك بمعنى حمق.

(543) أطم بمعنى حصون.

وبداخل هذه المدينة بساتين وجنّات، ولم يبلغ الخراب من مدينة ما بلغ من هذه الأيّم[544] المهتضمة، فتشعثت محاسنها، وأخلقت ملابسها وأوحش عمرانها لتتابع الفتن وعيْث الشُرار لا تُعبِّدهم الطاعة ولا تَزْعِهم الشريعة. أنقذ الله من لَهَاة التبّار[545] فريستها واستدرك بمدافعته مسكنها.

وأطرفني الخطيب بها بأخبار من اعتقل فيها من مخلوع ملوك الأندلس وأمراء طوائفها كالمعتمد بن عَبّاد، وأبي محمد عبد الله بن بُلُقّين بن باديس[546] أمير وطننا غرناطة. ووقفني على تاريخ صدر عنه أيام اعتقاله، يشرح الحادثة على ملكه في أسلوب بليغ ختمه بمقطوعات من شعره تشهد بفضله[547].

وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبي القاسم بن عبّاد، أمير حمص[548] وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربي رحمه الله، وهو بالمقبرة القبليّة عن يسار الخارج من البلد، قد تَوَقّل[549] نشراً غير سام وإلى

---

(544) الأيم: الرجل الذي فقد زوجته أو المرأة التي فقدت زوجها، وجمعها أيائم وأيامي وأيمون وأيمات.

(545) التبار يعني الهلاك.

(546) الملك المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي. ملك غرناطة وأحد ملوك الطوائف بالأندلس في القرن الخامس الهجري. ولم يقتله المرابطون حينما ملكوا الأندلس كما فعلوا بمعظم ملوك الطوائف، واكتفوا بنفيه إلى المغرب، ولعل ذلك راجع إلى أصله البربري. انظر (ابن الخطيب: الإحاطة لوحة 213 ـ 214)

(547) عثر المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال على هذا التاريخ القيم بجامع القرويين بفاس. وقد نشر بعضه تحت عنوان (مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة) وذلك في مجلة الأندلس بمدريد عامي 1935 ـ 1936.

Levi Provencal: Les Memoires de Abd Allah, dernier roi Ziride de Grenade Al Andalus Vol.) III 1935, Vol IV 1936 - 1939)

ولقد عاد الأستاذ المذكور فأخرج النص كاملاً في كتاب مستقل من مجموعة ذخائر العرب عام 1955 قبل وفاته بقليل.

(548) المقصود بحمص هنا مدينة إشبيلية Sevilla، وقد جرت عادة المسلمين في الأندلس أن يشبّهوا بعض مدنها بأسماء المدن المشرقية، فسمُّوا غرناطة دمشق، ومالقه الأدرن، وتدمير (مرسية) مصر وهكذا.

(549) توقل: صعد وارتفع.

جانبه قبر الحرة حظيته وسكن نفسه اعتماد إشراكاً لا سمها في حروف لقبه، المنسوبة إلى رُمَيْك مولاها، المتولّعة بشأنه معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار إلى أجداث من ولدهما. فترحّمنا عليه وأنشدته(550)

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات — رأيت ذلك من أوْلى المهماتِ
لم لا أزورُك يا أندى الملوك يداً — ويا سراج الليالي المدْلَهِمَّاتِ
وأنت مولى(551) تَخَطَّى الدهر مصرعه — إلى حياتي أجادت(552) فيه أبياتي
أنافَ قبرك في هَضْبٍ يميزه — فتنتحيه خَفِيَّات التحيات
كَرُمْتَ حياً ومَيْتاً واشتهرت علا — فأنت سلطان أحياء وأموات
ما رُئي مثلك في ماض ومعتقد(553) — في أن لا يرى الدهر في حال ولا آت

وزرت أجداثاً لأولياء وصالحين ختمتها بقبر الولي المتبرك بن أبي عبد الله محمد الهَزْمِيرِي(554).

وكان الانصراف عنها من الغد، وماشينا أدواح الزيتون والأشجار، تساوقها جَرِيَّات الأنهار، تتخللها أطلال الحلل والديار نَيِّفاً على شطر البريد لا تنال صفح ثراه الشمس ولا ترتاده الحرباء، تتجاوب أصوات الحمام المطوّق فوق غصونه. وقد اقتطعت ذلك الجناب الخصيب أيدي الوحشة، وأخيفت من حلل غابة السابلة، وسكن ربوعه الآهلة البوم، فيالها من مدينة

---

(550) أورد المقّري هذه القصيدة في كتابيه أزهار الرياض (ج1، ص 297) ونفح الطيب (ج5، ص 237، ج9، ص 198 ـ 199)، وفي مقدمة هذه القصيدة نقل عن ابن الخطيب فقرة تختلف عن التي هنا في المتن. يقول: . . . وقفت على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات في حركة حاجة أملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبعمائة، وهو بمقبرة أغمات من نشز من الأرض وقد حفت به سدره. وإلى جنبه قبر اعتماد حظية مولاه رميك، وعليها أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها فأنشدت. . .

(551) ورد في المقّري: وأنت من لو تخطى.

(552) ورد في المقّري: لجادت.

(553) ورد في المقّري: ومعتقدي.

(554) راجع ترجمة الهزميري وأخباره في Levi Provencal; Le Musnad d'Ibn Marzuk Hesperis 1925 t. V farc. I p.46 et notes 3, 4 راجع كذلك (Levi Provencal;) Historiens de Chorfa, p. 223 et note 3 Paris 1922

غَزُر ماؤها وصحّ هواؤها، وأينعت أرحاؤها، وضفى عليها من المحاسن رداؤها.

وانتهبنا السهل انتهاباً، فدخلنا المدينة في مُتَمَكَّنِ الضحى، وألفينا محلَّة ولد السلطان مولانا قد استعجل الأمر استقدامها، فخيَّمتُ على فرسخين، فشرعنا في الأياب، وانتحينا طريق الساحل لنستدرك بمدينة آسفي(555) زيارة من بها من أولياء الله الصالحين وعباده المقرَّبين.

وكــل أخ مــفــارقــه أخــوه لــعــمــر أبــيك إلا الــفــرقــدان(556)

قلت نعم والفرقدان، سبحان من استأثر بالبقاء لا إله إلا هو.

ولقيت بهذه المدينة جملة من أولي الدين والدنيا، فمن أهل الدنيا الشيخ الجليل كبير القطر، ومفرغ الرأي ومسيطر خاصة الإمارة، متصرّف وجوه الوجوه أبو ثابت عامر بن محمد، وأخوه(557) هضبة الوقار، ونير الأفق، وزهرة روض ذلك الحَزَن(558)، ويأقوتة ذلك الجبل، وقد مرَّ من التعريف بهما ما يغني عن الإعادة. ومنهم نائب الملك وحافظ الرّسم وجار القصر الشيخ الفقيه علي بن العباس بن موسى بن أبي حَمُّو(559)، المعتام لكفالة أولياء العهد، المستظهر بأمانته وصدقه على حفظ الأقطار المستباح الحِمَى في سبيل الوفاء، أجمل الشيوخ وَجْنَةً، وأسناهم شيبة، وأحسنهم صورة، إلى الخُلُق السهل واللسان البليل الإطراء والبر، والذرع الفسيح، والمخاطبة المفضلة

---

(555) راجع ما سبق أن قلناه في تعريف هذه المدينة في (صفحة77 حاشية 1).

(556) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي يهتدى به، وبجانبه آخر أقل منه فهما فرقدان.

(557) عبد العزيز السابق الذكر.

(558) الحزن: ما غلظ من الأرض وقلّما يكون إلا مرتفعاً، وجمعها حزن وحزون.

(559) لعله من أسرة بني حمو أو بني عبد الواد أو بني يغمراسن، ملوك تلمسان والمغرب الأوسط (الجزائر)، راجع تاريخهم في كتاب (أبو زكريا يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد) نشره وترجمه إلى الفرنسية الفرد بل Alfred Bel، الجزائر1903. انظر كذلك (J. Barges; Histore de Beni Zeiyan, Rois de Tlemecen - نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ـ للإمام سيدي أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي Ouvrage traduite de l,arabe, Paris 1852) ; J. l,Histoire des Beni Zeiyan Rois de Tlemecen, ouvrage du Barges: Complement de الشيخ محمد عبد الجليل التنسي.(Paris 1886)

بفرائد التسويد، تكرَّرت على المدى زيارته، وانصرفت شطر الوجهة عنايته، واسترخصت في استجلاب القصور والمعاهد هِشَّته، وخفت إليها على الكبر والرِّقْبَة حركته.

ثم جمعت بين الغُرَّةِ العتيقة والمهنَّدة المحلاة والصامت الدِّثِرِ هديته، عن خصاصة متقرره، وحال رقيقه لقصور دخله عن خرجه، وما جرَّه كف يده، ووازع عفته، وجناه الوفاء من نكبته. أصلح اللّه حاله، وزاده من جميل نظر المُلك ما يقيم أوده.

ومنهم والي الوطن، ومؤمن السبل، وجُمَّاعة مال الجباية، الشيخ الرئيس الفقيه أبو عبد اللّه بن حسُّون بن أبي العَلي وقد مرَّ بعض ذكره[560]. وهو فريد العصر بل الدهر في الخلال المُبِرَّة والخصال الحرة، من مُذَكِّرٍ بالبرامكة، مُغَبِّرٍ في وجوه سُبَّاقِهم انتهازاً لفرص المكارم، وسالكاً في هوى المآثر، ما شئت من مُغْلٍ لبضائع الحمد، منتقب بوَرد الخَجِلَة، مرسل أعنة الاعتذار في أعقاب ملوكي العطية، يهب الكتائب غانمات، والمَهَى مستردفات، والجياد عِراباً، يقوم على الأصلين والنطق، وهما الفنَّان المهذَّبان للعقل، المستدعيان لكثير من المواد، يُعترف له بالتقدم في ذلك مشاركٌ في غيره، حسن الصورة، مهيب جَزْلٌ وقور حاسر عن الاطلاع والكفاية. لم يبلغ عندي في البر مداه، ولا بلغ جناحُ شكر ندى كَنَداه. ولقد أقسم بالغموس بعد أن بان رِزْحُه من وظائفه الباهظة[561]، وقعود زمنه عن أمله، وقصور وجده عن مرمى هَمِّه أن لو ألفى سَعَتَه التي تعوّدها، لنقدني ثمن ما غُصبْتُه بالأندلس عن يد[562]، إبلاغاً في المكارمة ونزغاً إلى هدف الحرية، واسترقاقاً

---

(560) لم يرد ذكر هذا الاسم في الصفحات السابقة من هذا الجزء، فلعل إشارة ابن الخطيب هنا تعني الجزء الأول المفقود من نفاضة الجراب. ويؤيد هذا الكلام أن المقَّري أورد قصيدة موجهة من ابن الخطيب إلى هذا الوالي ابن حسّون، ولم ترد هذه القصيدة في النسخة التي لدينا راجع (المقَّري: أزهار الرياض ج1، ص 289).

(561) رسمت في الأصل باهضة.

(562) من المعروف أن ضياع ابن الخطيب بالأندلس وداره الرخامية بمدينة غرناطة قد صودرت واستولى عليها السلطان المغتصب إسماعيل بن يوسف بن نصر. انظر (نفاضة الجراب لوحة 35) وهذه الإشارة تدل ضمناً على أن هذا الكتاب قد ألَّفه ابن الخطيب بالمغرب كما سبق أن بينا.

لِرَقَبة السؤدد، حفظ اللّه نعمته، وحاط حظوته، وردَّ عنه النوائب صاغرة، والحوادث ناكصة. وكثيراً ما خاطبته بعد وداعه من محال كرامته بالطريق من عمالته الفسيحة الخطَّة، وقد الزَمَ من نبلاء لخدامه من تَمم الوظائف وكمّل المآرب بمثل قولي:

يا خاتمَ الفضل أو يا حاتم الزمن ... ومشتري الحمد بالغالي من الثمن
ومرسل المثل الجاري بكل عُلا ... فوق البسيطة من شام إلى يمن
يا من إذا ما حكاه الجِلَّة افتضحوا ... إذ التَورُّمُ ممتاز من السمنِ
يا من تلقيتُ منه الخَلْقَ في رجل ... وقدتُ نافرة الأيام في رسن
للّه ماذا رأت عيني وقد لمحت ... ذاك الكمال وماذا قُلِّدت أذني
دع ذكر قيصر أو كسرى وما جمحت ... به الحكاية عن سيف بن ذي يزن
ما الفخر إلا الملك أنت تخدمه ... فَحُلَّ[563] منه محلَّ الروح في البدن
إن لم يَفُزْ منه بالغايات مثلك أو ... تعلو الكواكب في آفاقه فمن؟

تبأى العلا منك يوم الفخر بابن أب جمّ السيادة عفّ السر والعلن

ماضي العزيمة ميمونٌ نقيبته ... جارٍ من البر والتقوى على سَنَنِ
إلى مضاء كنصل السيف يغضده ... رأي يفرّق بين الماء واللبن
أفادني زمني لقياك معتذراً ... عمّا جناه فلا أدعو على زمني
من بعد لقياك لا آسى على وطر ... مهما تعذَّر أو أبكى على وطن
عقدتُ صفقة وُدّي فيك رابحة ... إن حالت الحال لا تَخشى من الغَبْنِ
فالبس نسيجة ما قدمت مُعْلمة ... من صنعة اليمن تنسى صنعة اليمن
من زار رَبْعَك لم تبرح جوارحه ... تروى أحاديث ما أوليت من مِنَنِ
فالعين عن قُرّةٍ والكف عن صلة ... والقلب عن جابر والأذْنُ عن حسن

ومنهم صاحب الأشغال[564] ملك الحضرة الشيخ الفقيه الموصوف بالسلامة والعفّة، الكاسع إلى صف الانقباض، المتحيّز إلى فئة العافية، المُغْفِي

---

(563) صحيحها تحل منه.

(564) صاحب الأشغال تعني وزير المالية ومن الطريف أن هذه التسمية تطلق إلى الآن على وزير المالية في إسبانيا اسم Ministre de Hacienda أي وزير الأشغال.

اليد عن غمسها في كيل[565] الجباية، أبو الحسين بن الرئيس الصدر، مُؤَمَّل الدول الأولى المخصوص باليد الطولى، أبي محمد عبد الله بن أبي مَدْيَن[566].

جالسته فرأيت ذكائه متوارثاً في حجر تغافل، وسذاجة تَشِفُّ عن ظرف، وخاطبني صحبة بَرَنْكَانه[567] بما نصّه:

أيـا سـيّـداً حـاز سَـبْـقَ الـعـلا بـفـضـل الـنـهـى والـسـجـايـا الحِـسـان
ويـا نـخـبـة الـوقـت والمقـتـدى بـه فـي فـنـون عـلـوم الـلـسـان
ويـا أوحـدَ الـعـصـر فـي نـثـره وفـي نـظـم شـعـر كـنـظـم الجُـمـان
بَـنـانٌ تـريـك بـخـط اليراع بـمَـهْـرِقِـهـا سـحـرَ عـلـم الـبـيـان
لـقـد حُـزت فـي الـعـلـم أعـلامـه بـحـفـظ الـنـصـوص وفـهـم المعـان
وحزت ذُرى كل شأو رفيع فلا تسألنْ عن فُلٍ أو فلان
وَفُقْتَ ابن أوْس[568] بـنـظـم بـديـع كـمـا فـقـت نـثـراً بـديـع الـزمـان
أنـار بـك الـقـطـر لمّا قَـدِمـتَ وظـرف الـزمـان وظـرف المكـان
وأنّـسـتَ مـنـا نـفـوسـاً لـهـا بـقـربـك مـا تـشـتـهـي مـن أمـان

---

(565) رسمت كيالو.

(566) ولد بقصر كتامه (القصر الكبير) ونشأ بمكناسة وتعلّم بها وتولىّ الحجابة ورئاسة الكتاب في عهد بني مرين. انظر ترجمته في كتاب روضة النسرين لإسماعيل بن الأحمر: (Ismail Ibn Al Ahmar: Rawdat An- Nisrin, p.71 et note 3, edition et traduction par Gh. Bouali & Georges Marcais, Paris 1917) كذلك وردت تراجم له ولأسرته في كتاب نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان للمؤلف نفسه إسماعيل بن الأحمر (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 1863 أدب لوحة 70 ـ 71) هذا وقد ورد اسمه في كتاب المسند للخطيب ابن مرزوق كما يأتي:
(الفقيه السري الماجد الفاضل الشهير الأوحد أبي محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب العثماني) راجــع (Levi Provencal; Un Noveau Texte D'Histoire Merenide..., Hesperis 1925 Tome V p. 30) هذا ويروي إسماعيل بن الأحمر أن أبا مدين شعيب والد عبد الله، ليس هو أبا مدين شعيب ابن الحسين الأنصاري الإشبيلي وليّ الله تعالى الذي دفن بتلمسان وإنما اتفق الاسمان. انظر (نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان لوحة 71 و)

(567) البرنكان: كلمة ليست عربية معناها الكساء الأسود بالفارسية والجمع برانك. وقد تكلمت به العرب. انظر (المعرب للجواليقي ص 56 ـ 69، تحقيق أحمد محمد شاكر)

(568) حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبو تمام الشاعر المعروف (190 ـ 226هـ).

تَـقَـبَّـلْ هـديـة مـن لم يـزل يُحِبُّـك بـالـسـمـع قبـل الـعِـيـان
فـلـمَّـا رأى شَـخـصَـكُـمُ زاده ولـوعـاً بـكـم حـسـنُ تـلـك المعـان
سـلامٌ زكـيٌّ كـعـرفٍ زكـي يُخـصِّـكُـمُ مـا بـدا الـنَـيِّـران

ومن أهل العلم والدين الشيخ الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الهرغي[569] الزقندري، وزَقَنْدَر معدن الفضة ببعض تلك الجهات ولذلك ما قلت أداعبه:

سألتُك عبدَ الله إيضاحَ مشكل وأنت لكشف المعضلات بمرصَد
زَقَـنْـدرُ قـالـوا عنـه معـدن فـضـة فـمـا بـالُـه أبـداك نُـدرةَ عَـسْـجَـدِ

فاضل متفنن حَسَن الهيئة، راجح الوزان كثير الوقار بعيد عن الدَّخْلة، متساوي الظاهر والطوية، مُطَّرِح للهوادة، ما شئت من رجل غزير الحفظ، جيد المعرفة، مضطلع بفنون، سَديد النظر، جَمُّ المشاركة في حديث ورواية وتاريخ وخَبَر وكلام وفقه ونظم ونشر، إلى فضل المجالسة وحسن العشرة والغفلة عن نصيب النفس والاحتطاب في حبل الرفق، وإقطاع، غبيط السذاجة وفضل الفكاهة، والجهر بالتلاوة في سبيل الورد المترتب ناشئَةَ الليل ومبادئ الأسحار. رحل وحجَّ ولقي كثيراً من الفضلاء، وأخذ عن عدد كثير من أهل المغرب دراية ورواية. فمن المراكشيين: أبو العباس الغفائري، وأبو الحجاج الدَّغوي، وأبو القاسم بن مُعَنْصِر[570]، وأبو القاسم بن القشاش، وأبو عبد الله بن مسعود[571]. ومن أهل أغمَات: أبو يحيى الجزولي من حفَّاظ المذهب. ومن الفاسيين: أبو محمد عبد العزيز

---

(569) كتب على الهامش بخط صغير: هرغة من قبائل السوس

(570) هناك ترجمات عديدة لعلماء مختلفين تحت اسم (ابن معنصر) ولكني لم أعثر من بينها على ترجمة أبي القاسم الوارد اسمه هنا في المتن. راجع مثلاً (ابن القاضي: جذوة الاقتباس حيث ترد في صفحة140 ترجمة أبي الحسين بن معنصر؛ وفي ص 281 ترجمة عيسى بن معنصر؛ وفي ص 352 ترجمة أبي العباس بن معنصر.

(571) لعله كاتب السلطان أبي الحسن المريني وإن كان المؤرخون قد اختلفوا في صيغة اسمه ففي كتاب المسند لابن مرزوق (نفس المرجع ص 59) ورد (أبو الحسن علي بن محمد بن مسعود). وفي روضة النسرين لابن الأحمر ص 87 ورد علي بن محمد بن مسعود.

القروي[572]، والقاضي أبو عبد اللّه بن عبد الرزاق[573]. ومن أهل تازا[574]: أبو محمد الرَّجّالي. ومن التلمسانيين: الشيخ الفقيه النظَّار أبو موسى بن الإمام[575] والقاضي أبو العباس المديوني، والشيخ المحقق نسيج وحده في العقليات أبو عبد اللّه الآبلي[576]. ومن التونسيين: أبو عبد اللّه بن دمعون، وابن هارون[577] وابن عبد السلام[578]، والراوية الرحَّال أبو عبد اللّه بن جابر[579] ومن أهل الإسكندرية: أبو العباس بن فتوح، وجمال

---

(572) راجع ترجمته ونوادره مع السلطان أبي الحسن المريني في (ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص 269) وقد تُوفي بدينة فاس سنة 750هـ.

(573) القاضي الخطيب أبو عبد اللّه محمد بن علي بن عبد الرزاق؛ أشار إليه ابن القاضي في كتابه جذوة الاقتباس ص 148، ص339

(574) تازا :Taza مدينة بالمغرب الأقصى، تقع في شرق مدينة فاس بنحو 127 ك.م. وتمتاز هذه المدينة بموقع استراتيجي ممتاز جعلها منذ أقدم العصور مركزاً حربياً له خطورته. راجع (تاج العروس ج4، ص 12).

(575) أبو موسى بن الإمام، أحد علماء المنطق والعلوم العقلية بتلمسان، درس عليه شيوخ ابن خلدون مثل محمد الآبلي وغيره. راجع (ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص 35 ـ 36)

(576) أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الآبلي (681 ـ 757هـ) أحد أساتذة ابن خلدون وابن الخطيب. أصله أندلسي من مدينة آبله Avila في الشمال الغربي لمدينة مدريد ثم انتقلت عائلته إلى تلمسان بالمغرب الأوسط. وهناك عكف على تحصيل العلم وتدريسه مخالفاً في ذلك اتجاه أبيه وأعمامه الذين احترفوا الجندية. رحل إلى المشرق وحج، ولقي كثيراً من العلاء ثم عاد ثانية إلى تلمسان ثم اندمج في طبقة العلماء بمجلس السلطان أبي الحسن المريني بفاس وظل هناك إلى أن مات. راجع ترجمته في (ابن خلدون: التعريف ص33 ـ 38؛ ابن القاضي جذوة الاقتباس ص 144، 191؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج3، ص 288 طبعة حيدر أباد بالهند).

(577) أبو محمد بن هارون الطائي أحد علماء تونس الذين تتلمذ عليهم ابن خلدون. انظر ترجمته في (ابن خلدون التعريف ص 19، مرآة الجنان ج4، ص 238).

(578) أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري التونسي القاضي (676 ـ 749هـ) انظر ترجمته في (الحسن النباهي: المرقبة العليا ص 161؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص 242؛ أحمد بابا: نيل الابتهاج ص242).

(579) أبو عبد اللّه محمد بن جابر بن قاسم بن أحمد... القيسي (673 ـ 749هـ) الوادي آشي الأصل التونسي الاستيطان. رحل إلى المشرق مرتين ولذلك سمَّاه تلميذه ابن خلدون، صاحب الرحلتين (ابن خلدون: التعريف ص 18 وحاشية 3، ابن الخطيب: الإحاطة لوحة 141 ـ 142 (اسكوريال)، المقّري: نفح الطيب ج7، ص 125 ـ 127)

الدين بن سلامه القضاعي، والعدل أبو الحسن بن الفرات، والمشايخ الأربعة محمد بن عبد الكريم بن عطاء اللّه[580]، وإسماعيل الضرير، وأبو الحسن الإقبالي، وجمال الدين بن عبد الرزاق الربعي وناصر الدين بن المُنَيِّر[581]. ومن أهل مصر: قاضي المالكية تقي الدين الإحساني، وأبو الحسن المارديني، وعز الدين بن جماعة[582]، وجمال الدين الدلاصي، وأبو حامد السَّبوكي.

ومن أهل دمشق: شهاب الدين بن فضل اللّه[583] كاتب الإنشاء،

---

(580) تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد عبد الكريم بن عطاء اللّه السكندري المالكي الصوفي الشاذلي، صحب الشيخ أبا العباس المرسي، وله مصنَّفات كثيرة في التصوف، تُوفي بالقاهرة سنة 709هـ، وقبره لا يزال موجوداً بجبانة سيدي علي أبي الوفاء الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليثي. وقد شرح حكمه الفقيه الأندلسي أبو عبد اللّه بن عباد الرندي المُتوفى سنة 792هـ. راجع (ابن حجر العسقلاني؛ الدرر الكامنة ج1، ص 273 ـ 274؛ أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج8، ص280، المقّري: نفح الطيب ج7، ص 266؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص 70).

(581) أحمد بن محمد بن منصور. . . المنعوت ناصر الدين المعروف بابن المنيِّر الجروي الجذامي الإسكندري. والمنير (بضم الميم وفتح النون وياء مشددة مكسورة) كان علامة الإسكندرية وفاضلها برع في الفقه والتفسير وله مؤلفات قيمة في هذا المضار. تُوفي أوائل عام 683هـ وقبره لا يزال يُزار بالإسكندرية. راجع ترجمته في (ابن فرحون: الديباج المذهب ص 71 ـ 73؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج1، ص 142؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج7، ص 361؛ فوات الوفيات ج1، ص 72؛ شذرات الذهب ج5، ص 38).

(582) عز الدين عبد العزيز بن جماعة (694 ـ 767هـ) قاضي قضاة مصر أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون. راجع ترجمته في (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج2، ص 379 وما بعدها).

(583) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل اللّه العمري. يتصل نسبه بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب ولذلك عرف بالعمري. ولد بدمشق عام 700هـ ودرس بمصر والحجاز وتُوفي بمسقط رأسه سنة 749هـ. وله مؤلفات كثيرة نذكر منها: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. وهو عبارة عن دائرة معارف تاريخية جغرافية أدبية تقع في عشرين جزءاً. وله كتاب التعريف بالمصطلح الشريف وهو مجموعة رسائل ملكية نقل القلقشندي منها كثيراً؛ وله كتاب (ممالك عباد الصليب) وصف فيه دول الفرنج ونظامها في عصره وقد طبعه ميشيل أماري في روما سنة 1883. أما كتاب مسالك الأبصار، فقد نشر الجزء الأول منه المرحوم أحمد زكي باشا (دار الكتب المصرية 1924) كذلك نشر العالم التونسي حسن حسني عبد الوهاب الجزء الخاص بوصف إفريقية والأندلس (الجزء الثاني عشر) وذلك في مجلة البدر بجامعة الزيتونة بتونس. انظر ما كتبه Demombynes عن العمري في (III-IV La Syrie a l,epoque de Mamlouks P.).

وشمس الدين بن نباته[584]، وأبو الخير الحريري، وشمس الدين السلاوي آخر أصحاب ابن عبد الكريم، وتقي الدين بن عبد الكافي، والعلامة الأديب أبو الفضل بن صرايا. ومن الصالحية: عز الدين المقدسي، والمسند عبد الرحيم التنوخي. ومن أهل مكّة: شمس الدين النوفري، وإمام الموسم خليل بن محمد. ومن أهل المدينة: عفيف الدين المطري من ذرية سعد بن عُبادة.

ولي قضاء مَرَّاكُش[585] في منتصف رمضان عام ستين بعد ولايته أغمات وسبتة. ومولده بمراكش في سابع عشر ربيع الأول عام خمسة وسبعمائة.

وابتدأ لهذا العهد تخريج الأحاديث التي أشار إليها الترمذي.

وأنشدني من نظمه ولها حكاية تدل على ظرفه وحسن عهده:

ولما تجاوزنا زَلُّولا وشَنَّة   وطاشت حلوم لم تكن قبل طائشة
تيقَّنت أن لا منزلاً بعد سبتة   يَسُرُّ وأن لا إلف من بعد عائشة

توجّه مؤانساً لي متحفياً إلى جبل هنتاته، فأمتع ما شاء حفظه اللّه وأحسن مجازاته.

ومنهم الشيخ العدل القاضي برباط آسفي عبد الرحمن بن علي بن أبي العيش القيسي المعروف بطالب عافية، من الصدور الجلة وأعلام الطلبة بتلك البلدة فضلاً وعدالة وتفنناً ومشاركة، يخوض في كل فن، ويلقي دَلْوَه إلى كل حوض، أصيل الحفظ جيد البحث، بعيد عن السآمة، لا يمرُّ له وقت

---

(584) الشاعر ابن نباته المصري، جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن يحيى (676 ـ 768هـ). انظر (الدرر الكامنة ج4، ص 216 ـ 218).

(585) مراكش: بالفتح ثم التشديد وضم الكاف. مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى. أسسها أبو بكر بن عمر اللمتوني أمير المرابطين عام (462هـ، 1070م). واستمرت هذه المدينة عاصمة للدولة أيام المرابطين والموحدين ثم قلّت مكانتها السياسية في عهد بني مرين عندما صارت مدينة فاس عاصمة للدولة. انظر (مراصد الاطلاع ج3، ص 1251) انظر كذلك (J. Leon; Op. cit p.67- 58)

ضياعاً إلا عن مذاكرة في فن أو إجراء طُرفة، غيرُ مبالٍ بتهويم نوم، وهجوم هاجرة، أو مخالطة كدّ، لي حُسن العشرة ودماثة الخُلُق، وإيثار التخلّي والعزلة والحَوْم على السلوك والتجريد. شارك القاضي أبا محمد في كثير ممن ذُكرَ أخذه عنه من أعلام بلده.

ومنهم الأستاذ المتفنن النظّار أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن الفخار[586] أستاذ المدرسة العظمى من أهل العلم والفضل والمشاركة والتفنن، يقرى بها علم اللسان والأصلين والفروع، فيُمْتِعُ ويُحسِبُ على طَرَشٍ كدَّر رحمه اللّه الانتفاع به ونغَّص الأنس بمجلسه نفعه اللّه[587]،[588].

وانتابني من الظرفاء والأدباء الشيخ الفقيه المكَتِّب أبو عبد اللّه محمد بن القاسم بن عمر بن عبد اللّه الصيرفي، من أهل النبل والظرف على خلق زعموا غير سَبْط[589]. كتب عن الأمراء بمراكش، وأبي العباس بن حسين الغفائري، والخطيب المحدِّث أبي عبد الله بن رُشَيْد[590]. والقاضي أبي الحجاج الطرطوشي، والمقرئ أبي الحسن بن برني، وأبي العبّاس الفرقسي وأبي العبّاس بن برني، وأبي العبَّاس بن القرّاق، وأنشدني من شعره:

مَـنْ لَمْ يُـفِـدْكَ بـنـفـعـه أو جـاهـه ... فـلأنـمـا اصْـتَـصْـنَـعْـتَـه مَخْـدُومـا
فَـلْـتَـخْـدِمِ الـلّـه الـذي مـن أمَّـهُ ... بـضـمـير صدق يـلْـفَ مـنـه رحـيـمـا

---

(586) أبو عبد اللّه محمد بن علي بن الفخار الالبيري شيخ النحاة بالأندلس، درس عليه كثير من علماء ذلك العصر أمثال ابن الخطيب، وأبي إسحاق الشاطبي صاحب شرح الألفية، والشاعر الغرناطي المعروف ابن زمرك وغيرهم. راجع (المقّري: نفح الطيب ج7، ص 275 وما بعدها).

(587) كذا في الأصل ولعل صحة العبارة نفع اللّه به.

(588) كتب على الهامش وبخط مختلف غير واضح العبارة التالية (هذا الأطرش أعلم واحد وأرسخ في العلوم وأنفذ في المدارك والظهور. . .كان يفتل زجندريك بين إصبعيه ويخططه بفضية للعامة. . .واللّه أعلم. ابن الفخار من أئمة اللسان والأصول).

(589) غير سبط أي غير سهل

(590) أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي. محدّث ورحالة شهير (659 ـ 721هـ). راجع ترجمته في (ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص 180؛ ابن الخطيب: الإحاطة (اسكوريال) لوحة 132 ـ 135؛ التعريف بابن خلدون ص 39 حاشية4)

ومن نثر قوله: وأما الكتابة فلفظ نِخْلَةٍ حذفت تاؤه[591]، ومعقل خُذْلَةٍ شرع من غير محلّه إيتاؤه، وهي خطة استغنى الناس بذَيَّانها[592] عن سَحْبَانها[593] وعن مُلاك أزمَّة آدابها بجهلة طُلابها، فمن راشها معهم من ذوي المروءات والهمم من سائر الأمم، فقد ارتكب الصعاب وثَوَا مقعداً من المذلة والهُون أنَّى شاء من سائر الأبواب، فهو ينشد سائليه عن حاله بلسان عذر كليل، وقلب عليل، معتذراً في الضرائر بما قد قيل:

ألا قاتل الله الضرار فإنها[594] تُعَلِّم خَير الناس شرَّ الطبائع
وتُحمِل ذا الطبع الشريف تكرُّماً على ذِلَّةٍ في عيشه وتصانع

وكان السفر من مراكش يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة وقصدنا باب الرخا من أبوابها غَلَساً لنصابح تربة الشيخ، قصد التزود ببركتها، فتعذر فتح الباب وطال به الوقوف وأعْيَى علاجه، فانصرفنا عنه وفي أنفس بعض المشيّعين حزازة من ذلك، فأنشدت منهم الشيخ القاضي أبا محمد الزقندري بديهة:

يا محلاً لُخُلَّتي وانتحاءي لم يُبِحْ لي الخروج بابُ الرخاءِ
دلَّ أن الرخاء مغتبطٌ بي فبحقٍ تَبَجُّحي وانتخاء

فحُفظ واستُطْرف، وتحوّل المحزون إلى ضدّه والله الموفق للأقوال والأعمال بفضله.

وحثّنا السير على تَفِيَّة[595] ارتحال الجيش وتوقع الفساد في السُبُل، صحبة لِمَةٍ من أشياخ وراء سكان الصقع، واستقبلنا حي بني الحارث من عرب العَمود، جَذْوة شَرارِ الشرار أولي الحِرابة والخرابة. فنزلنا بمحلّة من

---

(591) لعل يريد بذلك لفظ الكآبة

(592) الذين: العيب

(593) سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، يضرب به المثل في البيان. أدرك الإسلام ومات عام 54هـ. ترجمته في شرح ابن نباته على رسالة ابن زيدون ص 75.

(594) في الأصل: إنها ولعل الصواب فإنها ليستقيم وزن البيت.

(595) تفية وتفيئة الشيء: زمانه.

حِلَل رِعاءِ البَهْم وقد أوقع في طريقنا يومئذ بمحروبين حار أحدهما ونجا ثانيه برأس طِمَرَّةٍ ولجام.

ورحلنا من الغد في قفر تندر ببعض مهامه به أبيات نابية للمُسَمَّيْن. وبتنا بحلَّة من حلل بني جابر أولي إبل وشَاء. ورحلنا من الغد فتجاوزنا غَوْلا[596] وتخطينا مَظَنَّة اعتراض، ومَسْبَعَةَ فُسَّاق في حَدّ بين بلاد بني الحارث وبني وراء، يولي كل منهم خُطَّة المَلام جاره عند أعداء الرُفَق المصابة، وإصراخ السلطان لندائهم.

ودخلنا بلاد بني ماقر، فكان المبيت بسورها تحت خصبٍ وأمَنَه ومنها صرفنا من صَحَب من أشياخ تلك الأرض عن شكر وإطراء، وإن كنّا في مظنَّة الروْع، نرى منهم اخزرارَ عيون ومخايلَ فتنة.

ومن الغد سلكنا وطن بني ماقر وهو كثير العمران، متعدّد الديار والأشجار سَقْيُه من نطاف عذبه تَخْتزِنُ بها بركات الأمطار فيقع بها أمْنُهم والاجتزاء إلى زمن المطر. وبها كثير من الصالحين وأولي الخير وأرباب التلاوة، وربَّما ألفِي بها ضدُّهم، ولله درُّ القائل:

الناس كالأرض ومنها هُمُ | من خشن فيها ومن لَيّنِ
مَرْوٌ[597] تَشَكَّى الرِّجْلُ منه الأذى | وإثْمِدُ يُجْعَل في الأعين

ووردْنَا مدينة آسفي وقد تمكَّن النهار، فلقينا موكب أرباب الخطط بارين مُعدين. ولمَّا شارفنا، ركب إلينا صردوكها أحمد بن يوسف حفيد الوليّ أبي محمد صالح، القائم في ظلِّ صيته، وأثير الناس من أجله، رجل أدَمُ اللون، قد تَعَجَّل الوَخْطُ منه، ذقن كثّ ذو تيقور[598]، جالس السلطان،

---

(596) الغول: بعد المفازة والمشقة.

(597) كتب على الهامش: المرو صغار الأحجار.

(598) كذا في الأصل، ولعلها تيفور أو طيفور وهو لفظ كان يدل في غرناطة الإسلامية على ضرب من الموائد الصغيرة وهذه الكلمة العربية بقيت في الإسبانية بهذا الشكل Ataifor وكان هذا اللفظ يدل في العصور كذلك على الصحن الكبير العميق الذي يقدم فيه الطعام لا سيما اللحم. انظر (لويس سيكودي لوثينا: وثائق عربية غرناطية لم تنشر، صحيفة المعهد المصري في مدريد (1956) ص 177 حاشية1).

وقاد ركب الحجاز، وجرَّ ببلده دنيا عريضة، واقتعد غارب غنى جمّ، يفد على باب السلطان في سبيل دالَّةٍ بقديمه، ويقفل إلى وطنه مجدد الصكوك مستجاد الخِلعة. خاطبته بين يدي قدومي بقولي:

يـا حـفـيـدَ الـولـيِّ يـا وارث الـفـخـر　　الــذي نــال فــي مــقــام وحــالِ

لــك يــا أحـمـد بــن يــوسـف جُـبـنـا　　كـل قـفـر يُـعـيِـي أكُـفَّ الـرجـال[599]

أبقاك الله مثابة انتفاع ونوراً بأعلى يَفَاع[600]، ومتضعاً على علوّ ارتفاع، ترى الوِتْرَ في إشفاع، وتقابل الوهم بطرادٍ من الحقيقة ودفاع. إن حثَّت على لقاء الأعلام شهرتهم فلك الشهرة، وأنت العلم والشهاب الذي تُجلى به الظُّلَم. ورباط جَدِّكَ بالمغرب الركن المستلم، فإلى أين يذهب عن جنابك الذاهب، وقد وضحت المذاهب، والله المانع والواهب. وإني من لدن اجتليت غرّتك التي تلوح عليها سيّما الولاية إرثاً واكتساباً وانتماء إلى جناب الله وانتساباً جزاء من ربك عطاء حساباً؛ أؤمل التوسل والتقرب وأخطبُ منك الأنس الذي أنسى به التغرب إلى أن تَهَيّأ بفضل الله وتيسّر، وتبينّ مجمل الشوق وتَفَسَّر، وشتّان ما بين من أثرى وأعسر، فأنا الآن والحمد لله قد حططت بمثوى الولاية رحلي، وعثرت بأزهار أسرار الأبرار نَحْلي، وأخذت من الدهر ذَحْلي، وحللت من رباط الشيخ أبي محمد بالحرم الأمين، وظفرت من ودّ حافده بالذخر الثمين فيا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين. عَرّفتك أبقاك الله بقصدي وحركة رَصْدي لتعلم أن هذه الوجهة لقاؤك أقوى دواعيها، وأنجح مساعيها، وبركة الشيخ نفع الله به تلاحظها وتراعيها، فما اسْتَبْعَد المَرام من قصد الكرام، وما فقد الإيناس من أَمَّل الناس، وتَنَخَّل الأفراد، وتخطّى الأجناس، وترك للنص القياس، وتَمَلّك المنن لَمّا أحرز الرياس، وسيدي بعد وما يظهر له من تأنيس غُرْبَة وإزاحة كُرْبَة، ورعْي وسيلة وقُرْبَة، وإتحاف باجتلاء حِمى مَرُورٍ وتُرْبَة، والله

(599) نقل المقّري هذين البيتين في كتابيه (نفح الطيب ج9، ص 190، أزهار الرياض ج1، ص 298)

(600) اليفاع كل ما ارتفع من الأرض.

عزَّ وجلَّ يبقيه مقصوداً على بعد المكان، مُرَجَّحَاً في الفضل طَرَف الإمكان مطمئن القلب بذكر الله رطب اللسان، مُدْرَجاً في الوصول لِسِنَام الإسلام والإيمان والإحسان.

واضطَبَنَ[601] من ابن عمّه الخطيب بالبلدة، شاحباً صامتاً مهمهماً بذكر، منتبذاً عند الأكل (15و) إشعاراً بالإمساك، أومأ[602] مع ذلك، زعموا، إلى دنيا عريضة كابن عمّه وشُحّ مطاع، فرحب الكل وأطرأ اللقاء. وجئنا إلى رباط الشيخ أبي محمد وهو من المشاهد الحافلة والمآلف الجامعة. فضاؤه رَحْبٌ مرصوف بحجر الكذان يدور به، سقيف نظيف ذو أبواب تفضي إلى زوايا ومدافن، وبطوله عن يمين الوالج مسجد الصلاة وتربة الشيخ في بيت عُمِدَ سَمْكه لانفساح عرضه بقايم من الخشب، وقبر الشيخ قبليه عن يمين الداخل إليه، قد اتُّخذ له حوض من الخشب من الرفيع أكسبته الأيام دُهْمه، فتخاله منحوتاً من الأَلْوَة قد امَّلَسَت من الاستلام حافته، وسُوي من نظيف الرمل سَبَخُه[603]، وبإزائه قبور شبيهة به في الشكل لولده وحفدته، تتخللها الحُصر النظيفة، فقضي الغرض من القراءة والدعاء، وحضر الفقهاء والطلبة والصوفية وقد استعرضهم أبو العبّاس طائفتين ورتَّبهم للسلام علينا غابطاً إياهم مُطْرياً مؤنساً، فدعوا وأجملوا، وعرض علينا طعام الشيخ أبي محمد رحمه الله، وقِرى ضيفه الجاري عليه من بيت المال لنظر حافده المذكور مُحكَّماً في قُلّه وكُثْره، فجلب خوان بهي اشتمل قوره على كل غضارة أثيرة لا تتخلف عن طعام ولا شراب.

وانصرفنا إلى المحل المعيَّن للنزول. وهذا البلد فسيح طيِّب الهواء كريم التربة خصيب الجنابن وأهله أولو خَيْريَّة وجنوح إلى الصلاح، وهو لَبِنَةُ التمام للمسوَّرات بالمغرب، ليس وراءها مدينة جامعة، ولا مَحلَّةٌ مُسَوَّرة،

---

(601) يقال فلان في ضبن فلان أي في ناحيته وكنفه.

(602) كذا في الأصل.

(603) رسمها سحه، ولعلها سبخه أي ترابه. أو سبجه من السبج وهو الخرز الرفيع.

ودونه أمم تتصل بالسوس الأقصى[604] إلى تخوم الحبشة من وراء الصحراء.

ومن ساعة إلمامنا انزوى عنّا الشيخ أبو العبّاس صردوك، لِلَهْوِه، واشتغل زعموا بعقد نكاح على بكر يلاعبها وتلاعبه، لم يَقْسم الله للضيف من مأدبتها بحظ، وشحَّ بإيناسه وتردده، فَحَدسنا أن ذلك إبقاء على نفسه لما تُكْشِف المجالسة من حال يمدُّ لها أبو حنيفة رجلَه. وهممت أثناء طريقي أن أخاطبه بسعوط افتتحته بأبيات مطلعها:

إذا لم تهـذِّبـك الأبـوةُ والحـج فـأنت علـى فَـوْتِ الجَنـى ثـمرٌ فَجُ

ثم تصدقتُ على حِلْم الشيخ بجهله، وَحَّرمت صيد آبِدِه في حرم مَحِلّه، أصلحنا الله وإياه.

وصلّينا بمسجدها الجامع وهو مبنى عتيق، ومجمع فسيح متعدّد الزيارات والصحون والتعاريج، سبق منه ما بين يَدَيْ المحراب بعضٌ على أيدي قوم من الصالحين، رفعوا به عَمَداً تناهز الأربعين، بادية ضخمة خشنة على سبيل من الجفاء والسذاجة يباشرها شقف لاطئ من غير نقش ولا إحكام عَلَتْها خُشُبٌ بالية، وقُضُبٌ ناخرة، بما يدل على قِدَم العهد، ويُنْبِئ على اجتناب فضول العمل. فلم تمتد إلى تغييرها يد، ودارت بها الزيادة النبيهة والبلاطات من جهاته. وبصحن هذا المسجد جِبَابٌ للماء ينتابها الناس لسقيهم ووضوئهم فَيَحْسِبُهُم[605]. ويقابل القبلة من جوفيّ الصحن زاوية بها فقراء يدعون ذكراً لله، فَيُعاطَوْن مقام التوكل، فلا يُغبُّ عنهم التفقد.

وبهذه البلدة، المدرسة والمارستان، وعليها مسحة من قَبول الله.

---

(604) السوس إقليم واسع خصب، يقع في جنوب مدينة مراكش وراء جبال الأطلس، ويحدّه من الغرب المحيط الأطلنطي كما يتخلله من الشرق واد عظيم يسمى وادي سوس. وينقسم هذا الإقليم إلى قسمين: السوس الأقصى وهو الجزء الممتد من جبال أطلس حتى رمال الصحراء جنوباً. والسوس الأدنى ويقع في شمال السوس الأقصى ولم يتفق الجغرافيون على تحديد مكانه.

انظر (J. Leon Africano: OP.Cit. P 60 Nota I) انظر كذلك (ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص222 حاشية 3).

(605) أي يكفيهم

وهواؤها أطيب أهوية البلدان، يستدعي الدثار في القيظ لبرده ولطيف مسراه وتردد بها إليّ صاحب السوق ومقيم رسم المارستان، الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد محمد بن منير الهاشمي الجزيري، من أهل الظَّرف والخيريَّة والتمسك بأذيال أهداب الطَّلب. وحَسَنُ الخطّ جميل العشرة، خفيفٌ في سبيل المشاركة. نشأ بالخضراء(606)، وحضر حصارها، وحج وخدم الصاحب بدمشق فأحظاه. أنشدني من شعره يخاطب السلطان عند قدومه من الحج قوله:

قدموا عليك عَقِيبَ حَطِّ حُمُولِ زوارُ خيرِ منبيءٍ ورسول
شعثاً على حبِّ التحية ترتمي بِهِمُ لبابك في ذُرى وسهول
ليكون خاتمةَ الكمال ومِسْكَهُ تقبيلُ كفِّكَ في بساط قبول

من قصيدة جارية على هذا الأسلوب. مولده بالخضراء عام خمسة وسبعمائة.

وكان الرحيل يوم السبت الخامس والعشرين من الشهر المذكور إلى منزل ينسب لأبي خَذُّو فيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب، طِرْفٌ في الجود زعموا جرَّ بذلك المرزأة إلى عتاده. فألطف وأجزل ورتَّب الحرسة وآنس في الليل وطلبني بتذكرة تَثْبُتُ عندي معرفته في الآتي، فكتبت له(607):

نزلنا على يعقوب نجل أبي خَذّو فعرفنا الفضل الذي ماله حدُّ
وقابلنا بالبشر واحتفل القِرَى فلم يبقَ لحم لم نَنَلْهُ ولا زُبْدُ
يحق علينا أن نقوم بحقّه ويلقاه منَّا البِرُّ والشكر والحمد

قيل لبشار بن برد، بينما أنت تقول:

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً هتكنا حجاب الشمس أو قَطَرتْ دماً

---

(606) المقصود هنا الجزيرة الخضراء وهي بلدة صغيرة بجنوب إسبانيا وتعرف اليوم باسم Algeciras.
(607) نقل المقّري هذه الأبيات في كتابه نفح الطيب ج9، ص190 مع تحريف في كلمة خذو كتبها حذوا، بينما أوردها كما في المتن في كتابه أزهار الرياض ج1، ص 298. هذا ونلاحظ أن ابن الخطيب كتب هذا الاسم فيما بعد هكذا (حدو). انظر (صفحة 114 من هذا الكتاب).

ثم تقول:

رَبابة ربةِ البيت تصبُّ الخَلَّ في الزيت
لها سبعُ دجاجات وديك حسنُ الصوت

فقال، قلت ذلك أخاطب امرأة من البادية في خيمة قرتني بدجاجة وبيض كانت لديها أحسن من: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.

ثم سافرنا منه إلى سور موسى من مجامع دُكَّالَه[608]، وهو خَلَقٌ ذو شرفات وأبراج، بادي الانثلام والتشعيث غير حرز الغلق لجهل هذه الأمة المُضجِرَة بالتحصين، وهو بعض ما يلجأ إليه أهل هذا الوطن المتكاثف العمارة، الجمّ الماشية، المُنبثّ الحِلَل، الغاصّ على انفساح مداه بالراغية والثاغية والصاهلة والناهقة، البالغ عدد أزواجه لإثارة الأرض ومعالجة الحرث، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه، يُتَحَرَّم به عند الغارة الشعواء المُصْمَئِلَّة[609] يطرقهم بها عدوّهم من بني الحارث وأحلافهم من سكّان السهل والجبل فيسدُّ عندها. وعلى ذلك فهم لحم على وَضَم[610] ولقمة بين لَحْيَيْن[611]، وبخارجه سوق جامعة يحشر إليها الناس ضحى، ويتقاطرون من كل مَرْمى يمثُلون في صعيد واحد، قد خيّمت تجارهم وضللوا، ولا ينفضُّ الجمع إلا مع انقضاء بياض يوم.

وقد كان رُفِع إلى السلطان المُغْرِي بالبناء وتخليد الآثار أبي عنان[612]

---

(608) دكالة اسم قبيلة بربرية وولاية من ولايات المغرب الأقصى، يحدها من الشمال والغرب المحيط الإطلنطي، ومن الشرق نهر أم الربيع ومن الجنوب ولاية مراكش. وقد تكلم ليون الإفريقي (الوزان) عن أهلها فوصفهم بالجهل وسوء السلوك، كما أشار إلى حصونها ومدنها القليلة المسورة مثل آسفي.

راجع (Descripcion de Africa p. 78 - 82) راجع كذلك ما كتبه ليفي بروفنسال عن قبيلة دكاله في كتابه (Levi Provencal: Documents Inedits D Histoire Almohade Paris 1982)

(609) المصمئلة: الداهية.

(610) الوضم خشبة القصّاب التي يقطع عليها اللحم، تركهم لحماً على وضم أي أوقع بهم فذلّهم.

(611) اللحى، عظم الحنك الذي عليه الأسنان، والمقصود هنا، ولقمة بين فكين.

(612) هو فارس المكنى بأبي عنان، وكان يلقب بالمتوكل على الله، ولد عام 729هـ بفاس من جارية مسيحية سمّيت شمس الضحى. وثار على أبيه أبي الحسن، بتلمسان عام 749هـ واستولى على

رحمه الله، خَبَرُ ما عليه الناس من إخافة عدوهم، واهتضام عَرْصَتِهِم[613] واستهداف عَقْوَتِهِم[614]، فأمر بارتياد محل لتأسيس مدينة، فاختير على غَلواتٍ منهم، محلٌ أرضه صخر منطبق على تراب يتأتّى فيه اتخاذ الخندق غير مثلوم الشفا، بعيد المَهْوَى، يبني السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدّة للاختزان عن أضرار السماء، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء[615]. فشرع في البناء واستُبعد الفضاء، ومَثُلَت الأبواب العديدة، والأبراج المشيدة. وعاق عن إتمامها هجوم حِمامِه وانصرام أيّامه، فرغب أهله في التنبيه على تكميل نقيصته واجتياز حسنته.

وتلقّانا مشرف المَجْبِي بها الشيخ الفقير الخيّر أبو عبد الله اللَّجائي[616]، قريع الأمانة والفضل، العف اليد، الحَصُور عن مساس الجباية، المتّصل الاستعمال باستصحاب الحال الرقيقة، وسقوط التهمة من أهل الطلب والسذاجة وحسن العهد وكرم العِشْرة، الجواد على كونه مَنِيناً[617] ما، عَدِمَ العتاد في حال الكِبْرَة. تلقّانا في جملة من أتباع الخدمة، ثم تلاهم مركب القاضي والعدول، وقاضيها الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزَّمُّوري[618]، رجل مختصر البنية والثواب قد طرقه الوَخْطُ على حداثة، يحفظ غُثاءً من منقول كتب التفسير وغيرها، ذاكر لمسائل متعدِّدة، مسترسل اللسان في أسلوب يفضحه الإعراب عادة لا جهلاً بقانون

المغرب الأقصى. وكان مغرماً بالعلوم والبناء وتُوفي في عام 759هـ وقيل مات قتيلاً. راجع ترجمته وثورته على أبيه وأسبابها في (ابن خلدون: العبر ج7، ص 278 ـ 287؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص 93 ـ 95؛ أبن الأحمر: روضة النسرين ص23 ـ 24)

(613) العرصة: ساحة الدار وجمعها عراص وأعراص وعرصات.

(614) العقوه: الساحة والمحلة وجمعها عقاء.

(615) هذه العبارة تدل على سعة دراية أهل المغرب بهندسة البناء في ذلك العصر.

(616) لعله من أسرة عبد الرحمن اللجائي (المُتوفى 771هـ) الذي أدخل مختصر ابن الحاجب المصري في الفقه المالكي إلى المغرب. انظر (ابن القاضي: درة الحجال، ج2، ص356 رقم986).

(617) المنين: الضعيف وجمعها منن.

(618) راجع ترجمته في (المقّري: نفح الطيب ج7، ص 261، أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 277، ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص148، انظر كذلك (ابن الأحمر: روضة النسرين ص 7 من المقدمة.

النحو. شموسٌ[619] عند المذاكرة في المسائل العلمية، أطرفَ بحديث رحلته، ولمل نزلنا خَنَس، فلم نسمع له ذكراً إلى أن شيَّعنا من الغد، فسَعَّطْتُهُ بخردل العَتْب ديدنى في مقصِّري هذا الصِّنف القَمِنْ[620] بفعل الأغنياء في البر المستحق لولا رؤية الفضل لنفسه بمزية الفضل، فَزِلَّة العالم معروفة بعدم الإقالة، فاستعتب واعترف، وسألته الإجازة فيما يحمله، واكتتاب شيء من منظومه الكثير، وقد سمَّى موضوعات ذكرها من تأليفه فوعد بذلك مُطَيِّراً به إلى محل، المبيت ليلتئذ. وتلاحق بي رسوله بنزرٍ يتضمن ذكر أشباح أكثرهم غير مسمًّى، وجلب شيئاً من حاله حتى عن القابلة التي التقطته ورؤيتها إياه على هيئة عن المُكَلَّف[621] المخاطَب[622] بوظائف الشريعة من سجود ورفع يد إلى السماء، إلى أمثال هذا. فخاطبته وأعدت الرسول إليه بقوله:

أليس قليلٌ نظرةً إن نظرتُها إليك وكُلاً ليس منك قليل[623]

وصَلَتْ أيها الفاضل رُقْعَتُك التي تضمَّنت الفوائد، وصِلَتُك التي استصحبت العائد، وشاهد فضلك الذي بين تصريفه الأصلي والزايد، متفننة في ضروب لا تجنح شمسها لغروب، هزَّت ألحانها مني عطْفَيْ طَروب، واستقرَّ قِراها بين يدي أكول لمثلها وشروب. فللّه ما تضمنت من فوائد رحلة حجازية لبست من حسن الحِجَى زِيَّه، وذكر أعلام وأركان استلام إلا أنها كانت كَلَيْلَةِ الوصل ما عابها إلا القِصَر، فلَوَدِدْتَ أن لو أمدها بسواده مني القلبُ أو البصر. بَخَسَ وزنها الاختصار لا بل الاقتصار، وافتقرت إلى شرحٍ يقع به على مُتَعَاصي معانيها الانتصار، ووعد المجلس القاضوي باكتتاب شيء من منظومه بعد اعترافه بأنه كثير ومهاد وثير فما كان إلا

(619) الشموس: الذي يكون عسراً في عداوته، شديد الخلاف على من عانده.

(620) القمن: الخليق الجدير.

(621) المكلف: البالغ العاقل المسؤول.

(622) المخاطب من ا لله عز وجل لتأدية فروض الدين.

(623) هذا البيت للشاعر جميل بثينة.

الوعد، والإخلافُ من بعد:

يـا لُـوَاةَ الـدَّيْـن عـن مَـيْـسَـرَةٍ　　والـضـنـينات ومـا كـنَّ لـئـامـا

والظن بسيدي أنه دعا عند شربه من بئر الحرم، بأن تُرفع عنه مؤنةُ الكرم، فأجيبَت الدعوة كما ورد، واستقام العمل واطّرد، فكان اللقاء على مسافة قصيرة، وملاحظة البر بمُقْلةٍ غير بصيرة، والزيارة مُزْوَرَّة، وأظنه لاحظ بيت شاعر المعرة:

لو اختصرتم من الإحسان زُرتُكمُ والعذب يُهجر للإفراط في الخَصَرِ

والقِرى قد كُفِي القاضي والحمد لله مؤنته الثقيلة، ولم يُحوِج إلى تشويش العقل واستخدام العقيلة، وهذا القِسْم غير معدود ولا تقع المشاحَّةُ إلا في مَوْدود. وهَمَّ بتحفة شعره ثم قال بالبداء وناداه الإنجاز فصمَّ عن النداء فاطّرد بابُ الشُحِّ حِسّاً ومعنى، وموحدا ومثنى حتى كأن دُكّالة، شرّابةٌ لسَرْو القضاة أكّاله، وبيدها لتحجير أيديهم وكاله، وهذه الحركة كانت لمحبة حركة الفتح، ووجهة المد والمنح، فلو لم يقع فيها بُخْلُه تَميمه، لَلَقَعَتْها[624] العين وعَسُر الهَيْن، والقاضي أعزه الله كمال، وعيب الكمال لا يُنكر، والغالب الفضل، وغير الغالب لا يذكر، وهو على التافه يشكر. داعبته حفظه الله مداعبة من يعتقد خلاف مقاله، ويَرْجُج القناطر المقنطرة بمثقاله، ولا يقول في حال سَرْوه[625] بانتقاله، ومع اليوم غد، ولكل شئ أمَد، ويُرجّى أن يمتع الله منه بوقت يقع فيه استدراك، ويرتفع باختصاص النزول لديه اشتراك إن شاء الله.

وكان المبيت بحصن أسايس[626] من حصون دُكّالة شأنه شأن ما قبله بطَلل، دار عادية ملوكية الوضع، تنسب لأحد أشياخ الوطن ممن غَمَسَ يده من الجباية في الدم والفَرْث تدل على انسحاب دنيا كانت سحابة صيف،

---

(624) لقعة العين أي حسدها.

(625) السرو: الفضل والسخاء في المروءة.

(626) أورد الوزان (Descipcion de Africa p.153) اسم أسايس Aseis ضمن الحصون الجنوبية لمقاطعة فاس. وأن كان هذا لا يتفق مع خط سير الرحلة.

واللّه يتجاوز عمّا جرت من نكير، فهو الذي يؤاخذ بما كسبت الأيدي ويعفو عن كثير.

ورحلنا من الغد في سهل اقتحمنا به حدود الصناهجة[627] وبتنا بموضع يعرف باسكاون بإزاء رَجُلٍ مُنْتَمٍ للصوفية أعجم اللسان، قام بالنزول على خصاصة واضطرار، فأنَبْنَا له واَحتسبنا كَدْحه.

وعدنا من الغد إلى أزَمُّور[628]، فرأينا صدق المثل في قولهم العود أحمد، فتلقينا بها أصناف الفضلاء مصحرين، ولوظائف البر متمّمين وقاهم اللّه معَرَّات السنين، وكرَّم وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه في يوم العرض والدين.

وبرز إلينا الحسن بن يحيى بن حسُّون، فتى الفتيان بالمغرب، وغاية السَّرو، وآية المروءة، والمثل البعيد في الإيثار على الخصاصة، ومخجل الضيف، وريحانة التلطف، فأربى الخُبْرُ[629] على الخَبَر والحمد للّه.

وكان السفر عن تشييع تتعلق بالأهداب أظفاره، وفضل عمَّ الخافقين اعتذاره وأوجب ذلك ما خاطبتهم به:

إحسانكم يا بني يحيى بن حسّون ... أزرَى على كل منشور وموزون
قد جددت زينةَ الدنيا برامكةٌ ... منكم مكارِمُها لم ترضَ بالدون
أبناء يحيى وقتهم كلّما وُلدوا ... عناية اللّه من موسى وهارون
بالأحسن الندب زاد اللّه بيتكم ... حُسناً فأهلاً بطلْق الوجه ميمون

(627) الصناهجة قبائل كثيرة من البربر في المغرب، وتعرف باسم صنهاجة بكسر الصاد وإن كان من المعرف في المغرب فتحها. انظر (تاج العروس ج2، ص 67) انظر كذلك (Ency.of Islam,art Sanhaga).

(628) أزمور: مدينة على ساحل المحيط بالمغرب الاقصى على الحافة اليسرى لمصب نهر أم الربيع. راجع (القلقشندي: صبح الأعشى ج5، ص172، ابن خلدون: التعريف ص 44 حاشية 4؛ الوزان: نفس المصدر ص 83).

(629) الخبر: العلم بالشيء، يقال (صدق الخبر الخبر) أي أن الاختبار بالمشاهدة اثبت الخبر المسموع.

ما زال يَكْلَفُ بالعَليا ويُمْحَضُها هوى يعود على الأموال بالهون
ما زلتُ أسمع عنكم كل مكرمة والآن كم بين معلوم ومظنون
أثَرَتْ بكم كفُّ أزمّور دياركم فأي دُرّ بصون المجد مكنون
أبقاكم اللّه في سعدٍ عقائله تبدي لكم غرر الأبكار والعون[630]
وردّني لبلادي شاكراً لكم بأمر ربي بين الكاف والنون[631]

إلى مدينة آنفا[632]، واستدرك استدعاءنا منهم إلى كلّ احتفاء واحتفال، أفاضل ذهبوا من البرّ كلَّ مذهب كالقاضي بها الشيخ الفقيه الحاج البادي القشف والسذاجة، أبي بكر عثمان بن صالح المسْراتي المراكشي النشأة. قرأ بمراكش على أبي الحسن المُرسي وأبي عبد اللّه العَبْدَري، وبحَاحَه[633]، على أبي زكريا يحيى بن سعيد، وأبي زيد بن عبد اللّه وأخيه أبي بكر. وبأغمات[634]: على أبي العباس المعروف بأيَّزْم. وحج سنة أربع وثلاثين وسبعمائة، ووَلِيَ القضاء بقصر كتامة[635]، وحصن القاهرة[636] وأزمور وآنفا. وأقرأ بمدرستها كتاب أبي عمرو بن الحاجب[637]. مولده في حدود

(630) العون: المرأة النصف.
(631) أي كن فيكون.
(632) آنفا Anfa وهي المعروفة اليوم باسم الدار البيضاء Casablanca، وهي مدينة كبيرة على ساحل المحيط بالمغرب الأقصى، وتقع على مسافة ستين ميلاً شرق أزمور، وهي مشهورة بمنتجاتها الزراعية ولا سيما أشجار الفاكهة. وكانت هذه المدينة في الماضي تنافس ثغر قادس البرتغالي وقد نتج عن هذا التنافس التجاري أن دمرتها الأساطيل البرتغالية عام 1465 ثم أعيد بناؤها سنة 1915.انظر (J .Leon Africano; Descripcion de Africa p.107 - 108)
(633) حاحه Hea، مدينة وولاية بمراكش يحدها من الشمال والغرب المحيط الإطلنطي من الجنوب جبال أطلس. انظر (J. Leon Africano; Op. Cit. p.4y nota)
(634) انظر ما سبق صفحة (93) حاشية (3).
(635) قصر كتامة هو اليوم القصر الكبير ويسمى أيضاً قصر عبد الكريم، وهي بلدة معروفة بالمنطقة الشمالية بالمغرب الأقصى، وتبعد عن ساحل المحيط بنحو 36 ك.م. راجع بعض التفاصيل عن تاريخ هذه المدينة في Allouche La Revolte des Banu)Askilula contre le sultan Muhammad II .Hesperis, tone XXV, 1938, fasc. I, p.2 Note 2)
(636) حصن القاهرة: مدينة اختطها 754هـ، 1352م السلطان المريني أبو عنان فارس على سفح جبل الكسيوى بأرض السوس في أقصى المغرب لتكون قاعدة لجيوشه المكلفة بإخماد ثورة أخيه الأمير أبي الفضل في هذه المنطقة، راجع (السلاوي: الاستقصا ج3 ص 190).
(637) عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب المصري (570 ـ 646هـ) وله مختصر في الفقه

عشرة وسبعمائة. والعدل السَّري أبي العباس أحمد بن شرف بن علي السَّلي من أهل تامسنا[638]، نبيه المسكن، فَعْم الخوان، مُنْجِب غلان. والعدل الفاضل أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن موسى البرغَواطي خير منقبض متحلّ بسكينه. والشيخ الخطيب الخَيِّر أبو الحسن علي بن أبي حَدّوا[639] الأصيل البيت النابه الأبوَّة المحمول عليه في سبيل بغي زعموا. والنجباء السراة أولاد الفقيه القاضي الرائق الخط، الجَمَّاعة للدفاتر، الموسوم بالرجاحة أبي علي عمر بن محمد الزناتي، كافأ اللّه ما بذلوا من رغبة، وخَطَوْا من إلمام.

ثم كان الارتحال إلى التربة المَوْلَوِيَّة المحترمة بشالة، فألقيت بها البرك وحططت الرَّحْل وفصَّلتُ الخُطَّة.

تمت

المالكي يسمى المختصر الفقهي، والفرعي، والجامع بين الأمهات. أدخله إلى المغرب عبد الرحمن بن سليمان اللجائي (المتوفى سنة 771هـ) وعني بشرحه كثير من المغاربة كالقاضي ابن عبد السلام التونسي شيخ ابن خلدون، وعيسى بن مسعود بن منصور المنكلاتي. وشرحه من المصريين الشيخ خليل المالكي وسمى شرحه (التوضيح). وكل هذه الشروح موجودة في دار الكتب المصرية. انظر (ابن خلدون: التعريف ص 17 حاشية 1، ابن القاضي: درة الحجال ج2، ص 356؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج1، ص 215)

(638) تامسنا مدينة وولاية في غرب فاس بالمغرب الأقصى يخترقها نهر أم الربيع، وكذلك نهر أبو الرقراق (بو الرجراج) الذي يصبّ في المحيط بين مدينتي سلا والرباط. انظر (J. Leon Africano; Op. Cit. p. II y Nota).

(639) راجع ما قيل، حول هذا الاسم في صفحة (109) حاشية (1).

مراجع التحقيق

(1) المصادر العربية

- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد . . . القضاعي البلنسي) (ت 658هـ ـ 1260م)

(أ) كتاب التكملة لكتاب الصلة (الجزءان الخامس والسادس من مجموعة المكتبة الأندلسية العربية) نشر كوديرا) Coderaمدريد 1887)

(ب) المعجم (الجزء الرابع من مجموعة المكتبة الأندلسية) (مدريد 1886)

- ابن أبي زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم) (ت 726هـ ـ 1325م)

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. (جزءان). نشره وترجمه إلى اللاتينية كارلوس طرنبرغ C. Tornberg)ابساليا 1843) وهناك طبعة حديثة في جزء واحد أصدرتها دار المنصور للطباعة (الرباط 1973م).

- ابن الأحمر (الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف النصري) (ت 810 هـ ـ 1407م)

(أ) نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1863 ـ أدب).

(ب) روضة النسرين في ملوك بني مرين نشره الأستاذان G. Marcais, Gh. Bouali (باريس 1917).

- ابن بسّام (أبو الحسن على بن بسام الشنتريني) (ت 542هـ ـ 1147م)

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الأول في جزءين والقسم الرابع الجزء الأول (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939 ـ 1945) القسم الثالث مخطوط بالأكاديمية التاريخية بمدريد رقم 12

- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) (ت 578هـ ـ 1183م)

كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس (نشره كوديرا في الجزئين الأول والثاني من مجموعة المكتبة الأندلسية مدريد 1883)

- ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد عبد الله الطنجي) (ت 779هـ ـ 1377م)

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، 2 جـ (القاهرة 1938) صدرت طبعة حديثة في خمسة أجزاء نشر وتحقيق عبد الهادي التازي (الرباط 1417هـ، 1997م).

- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي) (ت 852هـ ـ 1488م)

الدرر الكاسنة في أعيان المائة الثامنة، 4 أجزاء (الهند 1350هـ)

- ابن حوقل (أبو القاسم محمد) عاش في القرن الرابع الهجري

كتاب صورة الأرض، 2 جـ (ليدن 1939)

- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) (ت 776هـ ـ 1374م)

(أ) الإحاطة في أخبار غرناطة

نسخة خطية بالاسكوريال رقم 1673 ونسختان خطيتان بالأكاديمية الملكية التاريخية بمدريد تحت رقمي 34، 142. وتوجد نسخة مطبوعة في جزءين (القاهرة 1319) كما توجد نسخة خطية أخرى برواق المغاربة بالأزهر. هذا وقد نشر الأستاذ عبد الله عنان عدة أجزاء من كتاب الإحاطة في دار المعارف بالقاهرة.

(ب) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي في طبعتين: (دار الكاتب العربي بالقاهرة) (دار النشر المغربية بالدار البيضاء).

(ج) ريحانة الكتاب ونجمه المنتاب (مخطوط بالاسكوريال رقم 1825) قد

نشر جزءاً كبيراً منه العالم الإسباني جاسبار ريميرو تحت عنوان: Gaspar Remiro : Correspondincia diplomatica entre Granada y Fez en el siglo XIV (Granada 1916)

(د) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. نشره ليفي بروفنسال في طبعتين (رباط 1934)، (بيروت 1956).

(و) كناسة الدكان بعد انتقال السكان نشر محمد كمال شبانة (القاهرة 1966م).

(هـ) اللمحة البدرية في الدولة النصريه (القاهرة 1347هـ).

(ي) رقم الحلل في نظم الدول (تونس 1317).

- ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن محمد) (ت 780 هـ - 1379م)

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (نشره وترجمه إلى الفرنسية الفرد بل (Alfred Belالجزائر 1903).

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) (ت 808هـ - 1405م)

(أ) المقدمة (نشر مصطفى محمد) المكتبة التجارية بالقاهرة. وهناك طبعة عبد الواحد وافي في أربعة أجزاء (بيروت 1950).

(ب) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (7 أجزاء بما في ذلك المقدمة) (القاهرة 1284).

(جـ) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً. نشر محمد بن تاويت الطنجي (القاهرة 1951).

- الإدريسي:

صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. عن (نزهة المشتاق) نشر دوزي ودي خويه (ليدن 1866).

- ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) (ت 708هـ - 1308م)

صلة الصله. نشره ليفي بروفنسال (رباط 1938).

- ابن عذاري المراكشي عاش في القرن السابع الهجري

البيان المغرب في أخبار المغرب والجزءان الأول والثاني نشرهما دوزي (ليدن 1848 ـ 1851) والجزء الثالث نشره ليفي بروفنسال (باريس 1930) هذا وتوجد طبعة لبنانية من جزئين (بيروت 1950) كما توجد ترجمة فرنسية للكتاب من عمل Fagnan وأخرى إسبانية لفرناندث جونثالث Fernandez y Gonzalez كما صدر جزء رابع خاص بتاريخ الموحدين نشره أويني ميراندا ومحمد بن تاويت وإبراهيم الكتاني (تطوان 1960م)

- ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم ابن علي اليعمري) (ت 799هـ ـ 1396م)

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (القاهرة 1329)

- ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي) (ت 403هـ ـ 1013م)

تاريخ علماء الأندلس. نشره كوديرا في الجزأين السابع والثامن من مجموعة المكتبة الأندلسية (مدريد 1891).

- ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أحمد) عاش في القرن السابع عشر الميلادي

(أ) جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس (فاس 1309)

(ب) درة الحجال في غرة أسماء الرجال 2 ج (نشر علوش ، رباط 1934)

- ابن مرزوق (الخطيب أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني) (ت 781هـ ـ 1379م)

المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، نشره ليفي بروفنسال في مجلة Hesperis V 1925 كما صدرت طبعة كاملة للكتاب تحقيق ماريا خيوس بجيرا (الجزائر 1981م)

- ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن أحمد)

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن أبي شنب (الجزائر 1908).

- ابن هذيل (علي بن عبد الرحمن)، عاش في القرن الثامن الهجري

(أ) حلية الفرسان وشعار الشجعان. نشر عبد الغني حسن (القاهرة 1951)

(ب) تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس. نشره وترجمه إلى الفرنسية بـــعـــنـــوان Louis Mercier L'Ornement des Ames et la devise des habitants d'el Andalus (Paris 1936) 2 tomes.

- ابن عبد الملك (محمد بن القاسم الأنصاري السبتي) (عاش في القرن التاسع الهجري) وصف مدينة سبتة، نشره ليفي بروفنسال في مجلة Hesperis t. XII 1931

- التمبكتي (أبو العباس أحمد بابا) (ت 1036هـ - 1627م)

كتب على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة 1329هـ)

- جمال محرز الرسوم الجدارية الإسلامية في البرطل بالحمراء (مدريد 1951)

- الجواليقي (أبو منصور بن أحمد الخضر)

المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم تحقيق أحمد محمد شاكر (دار الكتب المصرية بالقاهرة 1361)

- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي) (ت 1075هـ 1656م)

كشف الظنون في أسامي الكتاب والفنون (استنبول 1360هـ)

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول نشر علوش (رباط 1936)

- الحميري (ابن عبد المنعم) عاش في القرن الثامن الهجري

(أ) الروض المعطار في خبر الأقطار. نشره ليفي بروفنسال (ليدن 1938)

(ب) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول نشر محمد بن أبي شنب (الجزائر 1920)

- زكي محمد حسن

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (القاهرة 1945)

- زيادة (محمد مصطفى)

رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة. (لجنة التأليف والنشر 1939)

- السلاوي (شهاب الدين محمد بن خالد الناصري) (ت 1319هـ - 1901م)

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (4 أجزاء في مجلدين) (القاهرة 1894)
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد)(ت 911 هـ - 1505م)
(أ) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين (القاهرة 1351هـ)
(ب) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة 1327هـ)
- صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت 739هـ - 1338م)
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (مختصر معجم البلدان لياقوت) تحقيق على محمد البجاوي (القاهرة 1954)
- العبادي (عبد الحميد)
(أ) صور من التاريخ الإسلامي.
جزءان (1948 - 1953)
(ب) حديث الفتية المغررين من أهل لشبونة.
مجلة الثقافة عدد 136 (1941)
- العبادي (أحمد مختار)
(أ) الصقالية في إسبانيا، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية. (مدريد 1953)
(ب) لسان الدين بن الخطيب ونزعاته الاقتصادية (مجلة لسان الدين الجزء التاسع والعاشر سبتمبر - أكتوبر 1954 تطوان)
(ج) مقامة العيد لأبي محمد عبد الله الأزدي الغرناطي (صحيفة المعهد المصري 1954)
- عبد الله (الأمير عبد الله بن زيري الصنهاجي)
آخر ملوك غرناطة أيام ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري (469 - 483هـ) مذكرات الأمير عبد الله المسمّاة بكتاب التبيان. نشر ليفي برفنسال في مجموعة ذخائر العرب (القاهرة 1955)
- عبد العزيز الأهواني

ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة (مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الثالث الجزء الثاني 1957)
- عبد العزيز عبد المجيد
ابن الأبار، حياته وكتبه (معهد مولاي الحسن، تطوان 1951)
- عبد الواحد المراكشي (محيي الدين أبو محمد) عاش في القرن السابع الهجري
المعجب في تلخيص أخبار المغرب. (القاهرة 1332هـ) وتوجد طبعة أخرى لدوزي (ليدن 1845) وترجمه إلى الفرنسية فاجنان (Fagnan : Histoire des Almohades, alger 1893)
- العمري (أبو العباس بن فضل الله شهاب الدين محمد) (ت 749هـ - 1350م)
(أ) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. نشر الجزء الخاص بالمغرب والأندلس، حسن حسني عبد الوهاب في مجلة البدر بجامعة الزيتون بتونس.
(ب) التعريف بالمصطلح الشريف، (القاهرة 1312)
(ج) ممالك عباد الصليب. نشر أمارى (روما 1883)
- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) (ت 821هـ - 1418م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا 14 ج (القاهرة 1212 - 1219)
- المقَّري (أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني) (ت 1041هـ - 1633م)
(أ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب نشر الشيخ محيي الدين عبد الحميد 10 أجزاء (القاهرة 1949)
(ب) أزهار الرياض، 3 أجزاء نشر مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة 1939 - 1942)
- النباهي (أبو الحسن بن عبد الله) تُوفي في أواخر القرن الثامن الهجري
(أ) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. نشر ليفي بروفنسال (القاهرة 1948)

(ب) نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكوريال رقم 1653)
- نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمؤلف مجهول نشره الفريد بستاني وترجمه إلى اللغة الإسبانية الأب كاراوس كيروس (العرائش 1940)
- ياقوت: (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي) (ت 626هـ - 1229م)
معجم البلدان (12 جزء في 4 مجلدات) (القاهرة 1323 - 1906)

(2) المصادر الأوروبية

Alarcon M. y Garcia de Linares R. :
Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Carona de aragon.
(Madrid - Granada, 1940)

Antuna ; P. Melchor Martinez :
El poligrafo granadino Ibn al Jatib en la Real Biblioteca del Escorial.
(Imprenta del Real Monasterio, 1926)

Asin ; Miguel Asin y Palacios :
Contribucion a la Toponimia Arabe de Espana.
(Madrid - Granada, 1944)

Ballesteros, A. :
Historia de Espana, Tomo III.
(Barcelona - Buenos Aires 1948)

Barges, I'Abbe I. J. L. :
- Histoire de Beni Zeiyan R?is de Tlemecen. , Ouvrage traduite de l'arabe.

(Paris 1852)

(نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان للإمام سيدي أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي)

- Complement de I'Histoire des Beni Zeiyan R?is de Telemecen, ouvrage du Cheikh Muhammad Ibn abd al Galil al Tenessy. (Paris 1887)

Brockelmann, Carl :
Geschichte der Arabischen Litterature, 2 Vols. (Weimer - Berlin, 1898 - 1902)

Brunschvig, Robert :
La Berberie Oriental sous les Hafsides: des origines a la fin du XV siecle, 2 tomes.
(Paris 1940- 1947)

Carlos de Luna, Iose:
Historia de Gibraltar.
(Madrid 1944)
Cossio, Jose Maria:
Los Toros: Tratado técnico e historico, 3 tomos. (Madrid 1945- 1947)
Cuartero Larrea, Miguel:
El Salado.
Revista "Ejercito" 1941, No. 13
De Cenival, Pierre:
Les Emirs des Hintata "Rois de Marrakeeh". Hespéris, 1937, tome XXIV.
De las Cagigas, Isidoro:
- Andalucia musulmana.
(Madrid 1950)
- Un Viajero Egipcio del siglo XIV en el Reino de Granada.
(Madrid 1950)
Demombynes, Gaudefroy:
Ibn Fadl Allah al Umari: Masalik al Absar fi Mamalik al Amsar. (Paris 1927)
De Ros Masia; Angel:
La Corona de Aragon y los Estados del norte de Africa.
(Barcelona, 1951)
Diccionario de Historia de Espana:
2 tomos.
(Madrid 1952)
Dozy, R.:
- Scriptorum arabum loci de Abbadidis, (Leyde 1846- 63).
- Supplement aux diccionnaires arabes, 2 tomes.
(Leiden - Paris 1927)
Eneyelopaedia of Islam.
Fernandez y Gonzalez; Francisco:
Estado social y politico de los mudejares de Castilla. (Madrid 1886)
Garcia Gomez; Emilio:
- Elogio del Islam espanol. Traduccion castellana de Risalat al Shaqundi.
(Madrid - Granada, 1934)
- El parangon entre Malage y Sale.
(al Andalus, II, 1934)

- El supuesto sepulcro de Mu tamid de Sevilla en Agmat.
(Al Andalus, Vol. XVII, 1953)
- Cinco poetas musulmanes.
(C?llecci?n Austral n. 513)
- Poemas ar?bigoadnaluces. (Collecci?n Austral, n. 162)
Gayangos, Pascual de Gayangos:
The history of the Mohammedan dynasties in Spain. Extracted by Ahmad al Maqqari.
2 Vols.
(London 1840- 1843)
Guillen Robles, D. F.:
- Historia de Malaga y su Provincia.
(Malaga 1873)
Gaspar Remiro. M.:
- Historia de Murcia Musulmana.
(Zaragoza 1905)
- Correspondencia diplomatica entre Granada y Fez (siglo XIV). Extratos de la Raihanat al Kuttab de Ibn al jatib. (Granada 1916)
Gimenez Soler, Andres,:
Expedici?n de Jaime II a la ciudad de Almeria, o el sitio de Almeria (1309).
(B. R. A. B. L. B. 1904, no. 14)
Levi Proveneal. E.:
- La Peninsule Ibérique du Moyen-Age d'apres le Kitab Ar-Rawd al Mi,tar;
D'Ibn Abd al Munim al Himyari.
(Leiden 1938)
- Las ciudades y las instituciones urbanas del Occidente musulman en la Edad Media. (Tetuan 1950)
- Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350). Melanges afferts a William Marcais.
(Paris 1950)
- Un Za?al hispanique sur l'expedition aragonaise de 1309 contre Almeria.
(Al Andalus Vol. VI, 1941 facs. 2)
- Une descripti?n de Ceuta musulmane au XV siecle.
(Hesperis 1931, tome XII)
Leon Africano, Juan (Al Hasan Ibn Muhammad al Wazzan al-Fasi):

- Descripei?n de Africa y de las c?sas natables que en ella se encuentran.

(Instituto General Franco-Tetuan 1952)

Lopez de Ayala, Pedro,:

Cronicas de los Reyes de Castilla, 2 tomos.

(Madrid 1779)

Lafuente Alcantara, Emilio:

Inscripciones arabes de Granada: precedida de una resena historica y de la genealogia detallada de los reyes alhmares. (Madrid 1860)

Lafuente Alcantra, Miguel:

Historia de Granada,

4 tomos,

(Granada 1843 - 1846)

Longas, Pedro:

Vida religiosa de los Moriscos.

(Madrid 1915)

Muller, Marcus Joseph:

Beitr?ge Zur Geschichte der Westlichen araber.

(Munchen 1866)

Menendez Pidal, Ramon:

- Poesia juglaresca y juglares. (Colleccion Austral, No. 300)

Mercier, Ernest:

Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés Jusqu'a la conquete francaise (1830)

2 tomos. (Paris 1888)

Mariana P.:

Historia general de Espana. (Madrid 1948)

Nykel A. R.:

Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old Provencal Troubadours. (Baltimore 1946)

Ocana, Manuel Jimenez:

Tablas de conversion de datas islamicas a cristianas y viceversa.

(Madrid - Granada 1946)

Pedraza, Francisco:

Antiguedad y Excelencias de Granada. (Madrid 1608)

Perez de Hita, Ginés:

Guerras Civiles de Granada; publicada por Paula Blanchard-Demouge, 2

tomos. (Madrid 1913- 1915)
Palencia, Angel Gonzalez:
- Historia de la Espana musulmana.
(Coleccion Labor III- 1945)
- Historia de la Literature arabigo-espanala. (Coleccion Labor III - 1945)
- Moros y Cristainos en Espana medieval. (Madrid 1945)
Pons Boigues, Francisco:
Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-cspanoles (Madrid 1898)
Prieto y Vives, Antonio:
- Los Reyes de Taifas. (Madrid 1926)
- Farmacion del Reino de Granada. (Madrid 1927)
Prescott, William H. ,:
- History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic.
(London 1895)
Sanchez Albornoz, Claudio:
La Espana musulmana segùn los autores islamitas y cristianos medievales, 2 tomos. (Buenos Aires 1946)
Seco De Lucena, Louis :
- La Alhambra. (Granada 1919)
- Sobre el viaje de Ibn Battuta al Renio de Granada.

(Al Andalus, Vol. XVI 1951)
Simonet, Francisco Javier:
- Descripci?n del Reino de Granada bajo la dominaci?n de los Nascritas. (Madrid 1860)
- Historia de los Mozarabes de Espana. (Madrid 1897- 1903)
- Glosario de Voces ibéricas y latinas usadas entre los mozarabes.
(Madrid 1888)
Torres Balbas, Leopoldo:
Arte Almohade, Arte Nazari,, Arte Mudejar. (Ars Hispaniae, tomo IV)
Zurita, Geronimo:
- Los anales de la Corona de Aragon. (Zaragoza, 1688)

كشّاف حضاري
وفهارس أخرى

فهرس الأعلام والقبائل والجماعات

(ا)

ابن الأبار
أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي
أحمد بن يوسف
ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف النصري)
الأدارسة
إدريس الأول
إدريس الثاني
أبو اسحق الشاطبي
إسماعيل الضرير
إسماعيل بن يوسف بن نصر (السلطان)
بنو أشقيلولة
اعتماد الرميكيه
أيزم (علي أبو العباس)

(ب)

بشار بن برد
ابن بشكوال
بطرس القاسي
ابن بطّوطه
بطوية (قبيلة)
أبو بكر بن عبد الله
أبو بكر عثمان بن صالح المسراتي

(ت)

تقي الدين الإحساني
تقي الدين بن عبد الكافي
أبو تمام (حبيب بن أوس بن الحارث الطائي)
ابن تومرت (أبو عبد الله محمد، مهدى الموحدين)

(ج)

بنو جابر
جمال الدين الدلاصي
جمال الدين بن سلامة القضاعي
جمال الدين بن عبد الرازق الربعى

(ح)

ابن الحاجب (أبو عمرو)
بنو الحارث
أبو حامد السبوكي
أبو الحجاج الدغوي
أبو الحجاج الطرطوشي

أبو الحجاج يوسف
ابن الحداد الوادي آشي
أبو الحسن الإقبالي
أبو الحسن بن برني
أبو الحسن العبادي
الحسن بن عثمان التجاني
أبو الحسن علي بن أبي حدوا
أبو الحسن علي ... بن يعقوب بن عبد الحق المريني (السلطان)
أبو الحسن علي بن لسان الدين بن الخطيب
أبو الحسن علي بن محمد بن مسعود
أبو الحسن بن الفرات
أبو الحسن المارديني
الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الافريقي)
ابن حسون (أبو عبد الله)
ابن حسون (الحسن بن يحيى)
أبو الحسين بن معنصر
الحكم المستنصر الأموي (الخليفة)
بنو حمّو (بنو عبد الواد)
بنو حمود (الحموديون)
أبو حنيفة
ابن حيان

(خ)

ابن أبي خالد
أبو خدو
ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب)
ابن خلدون (عبد الرحمن)
ابن خلدون (يحيى)
خليل بن محمد
ابن خميس
أبو الخير الحريري

(د)

ابن درّاج القسطلي

(ر ، ز)

رميك
ابن الزبير (أحمد)
الزبرقان بن بدر
الزقندري (أبو محمد عبد الله الهرغى)
ابن زمرك
بنو زيان (بنو عبد الواد)
أبو زيد بن عبد الله

(س)

الساحلي
أبو سالم المريني (السلطان)
سحبان الوائلي
سعد بن عباده
أبو سعيد بن نصر (السلطان)
سيف بن ذى يزن

(ش)

ابن شرف البرجى
شهاب الدين بن فضل الله العمري
شمس الدين السلاوي
شمس الدين بن نباته
شمس الدين النوفري
الشلوبين (أبو علي الشلوبين)

(ص ، ض)

الصناهجة
أبو الضياء منير بن أحمد .. الجزيري

(ط)

طالب عافية (عبد الرحمن بن أبي العيش)
الطنجالى (أبو عبد الله)
أبو الطيب المتنبي

(ع)

عامر بن علي الهناتي (أبو ثابت)
ابن عباد الرندي
أبو العباس أحمد بن أبي بكر البرغواطي
أبو العباس أحمد بن شرف السلى
أبو العباس بن حسين الغفائري
أبو العباس بن برني
أبو العباس بن فتوح
أبو العباس الفرقسي
أبو العباس المديوني
عبد الرحمن بن أبي العيش القيسي
عبد الرحمن بن زيدان
عبد الرحمن اللجائي
عبد الرحمن الناصر الأموي (الخليفة)
عبد الرحيم التنوخى
عبد العزيز بن محمد الهنتاتي
أبو عبد الله الآبلي
عبد الله الأموي
أبو عبد الله بن الأحمر (السلطان)
عبد الله بن بلقين .. بن زيرى الصنهاجي (الملك)
أبو عبد الله بن جابر
أبو عبد الله بن دمعون
أبو عبد الله بن مسعود
عبد الله بن سهل
أبو عبد الله بن عبد الرزاق
أبو عبد الله اللجائي
أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفخار
أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي
أبو عبد الله محمد بن سعيد الصنهاجي الزموري
أبو عبد الله محمد بن عبد السلام (القاضي)
أبو عبد الله محمد بن القاسم الصيرف
ابن أبي عبد الله محمد الهزميرى
عبد المؤمن الموحدي
بنو عبد الواد
ابن عذارى المراكشي
عز الدين بن جماعة (القاضي)
عز الدين المقدسي
بنو العزفي
ابن عسكر
ابن عطاء الله السكندري
عفيف الدين المطري
أبو زكريا يحيى بن سعيد
علي بن العباس بن موسى بن أبي حمو
أبو علي الشلوبين
أبو علي عمر بن محمد الزناتي
علي بن محمد بن مسعود
علي أبو الوفاء
عمر بن حفصون
عمرو بن العاص
العمري (شهاب الدين بن فضل الله العمري)
أبو عنان فارس
عيسى بن معنصر
عيسى بن مسعود المنكلاتي

(ف ، ق)

ابن الفرضي
أبو الفضل بن صرايا

أبو القاسم بن القشاش
أبو القاسم بن معنصر

(ل)

لسان الدين بن الخطيب
ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان الفاسي)

(م)

بنو ماقر
محمد بن أحمد غازي العثماني المكناسي
أبو محمد الرجالي
محمد الرقوطي
ابن محمد صالح
أبو محمد عبد الله بن أبي مدين
أبو محمد عبد الله الهرغى الزقندري
أبو محمد عبد الخالق بن سعيد بن محمد
أبو محمد عبد العزيز القروي
محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري
محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري السبتي
محمد بن لب الكناني
محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي الأنصاري (الأحمر)
محمد (الخامس) بن نصر (الغني بالله)
ابن مرزوق (الخطيب)
المعتصم بن صمادح
المعتمد بن عباد
ابن معنصر
مهدي الموحدين (أبو عبد الله محمد بن تومرت)
أبو موسى الأشعري
أبو موسى بن الإمام
موسى بن علي الهنتاني
المنصور بن أبي عامر

(ن)

ناصر الدين بن المنير الإسكندري
ابن نباته (شمس الدين)
بنو نصر (بنو الأحمر)
النعمان بن المنذر
أبو نواس

(هـ)

ابن هارون
هرغة (قبيلة)
الهرغى الزقندري (أبو محمد عبد الله بن محمد)
الهزميري (ابن أبي عبد الله محمد)
هشام المؤيد
ابن هلال

(و)

بنو وراء
الوزان الفاسي (الحسن بن محمد)
أبو الوليد إسماعيل بن يوسف النصري (الأمير)
أبو الوليد إسماعيل بن أبي سعيد النصري (السلطان)

(ي)

أبو يحيى الجزولي
بنو يغمراسن (بنو حمو أو بنو عبد الواد)
يعقوب بن أبي خدو
أبو يوسف يعقوب المريني (السلطان)

فهرس البلدان والجبال والأنهار

(أ)

آبلة	Avila
اخميم	
أرجذونة أو شذونة	Archidona
أزمور	Azammur
أسايس	Aseis
اسطبونة	Estepona
آسفي	Safi
اسكاون	
الإسكندرية	
اشبانية	
اشبيلية	Sevilla
أشكر	Huescar
أشكوذر	
أصيلا	Arcila
أطلس	
أغمات	Agmet
أغمات عيلان	
أغمات وريكه	
افريقية	
آقر سلوين	
أم الربيع (نهر)	
الأندلس	
آنفا	Casablaca
انتقيرة	Antequera
اندرش	Andarax
أورية	Oria
إليرة	Illora

(ب)

بادس	Villa Jordana
الببول	Baul
بجانة	Pechina
برجة	Berja
برذيل (بوردو)	
برشانة	Purchena
بسطة	Baza
البصرة	
البلد الجديد (فاس)	
بليش	Velez
بنيونش	Baliunech
بياسة	Baeza

بيرة Vera

(ت)

تازة (تازا) Taza
تافيلات (سجلماسة)
تامسنا
تكرور
تلمسان
تونس
تيط Tit

(ج)

جبل طارق Gibraltar
جبل الفتح
الجزائر
الجزيرة الخضراء Algcciras
جنة السيد

(ح)

حاحة Hea
الحبشة
حصن القاهرة
حمص (اشبيلية)
الحمة Alhama
حوز الوداع

(خ)

الخورنق

(د)

دارين
دكالة
دلاية Dalias
دمشق

(ذ)

ذكوان Coin

(ر)

رباط Rabat
رندة Ronda

(ز)

زفرة العربي Suspiro del Moro

(س)

سبتة Ceuta
سبو (نهر) Sebu
سجلماسة
السدير
سلا Sale
سلادو (نهر) rio Salado
السند (جبال) Sened
سهيل Fuengirola
سور موسى
السوس

(ش)

شالة Chella
شبالش Jubiles
شلوبانية
أو شلوبينية Salobrena
شلير (جبل) Sierra Nevada
شنيل (نهر) Genil
شوار (جبل) انظر شلير
شيرون Seron

ﷺ

صالحة	Zalia
صنعاء	
الصين	

(ط)

طبرنش	Tabernas
طريف	Tarifa
طنجة	Tanger

(ع)

العالية	
عبلة	Abla

(غ)

غرناطة	Granada
غساسة	
غمارة	
غور	Gor

(ف)

فاس	Fez
الفسطاط	
فنتالة	Fontanella
فنيانة	Finana

(ق)

قادس	Cadiz
قامرة	Camara
قرطبة	Cordoba
قرطمة	Cartama
قصر عبد الكريم	
القصر الكبير	
قصر كتامة	
قمارش	Comares
قنالش	Canales
قنتورية	Cantoria
قيشر	
القيروان	

(ل)

لورسانة	Abrucena
لورقة	Lorca
لوشة	Loja

(م)

مازكان	Mazagan
مالقة	Malaga
مترايل	Motril
مجاقر	Mujacar
مدريد	Mndrid
المدينة البيضاء (فاس)	
المدينة المنورة	
مراكش	Marruecos
مربلة	Marbella
مرشانة	Marchena
المرية	Almeria
مصر	
المغرب	
مكة	
مكناسة	Mequincz
منتفريد	Montefrio
المنكب	Almunecar
ملوية (نهر)	Muluia

(هـ)

هنتاتة (جبل وقبيلة)	

(و)

وادي آش — Guadix

وادي الحمة — Rio Alhama

وادي فردس — Rio Fardes

وادي المنصورة — Rio de Almanzora ûÒ Guadalmanzor

(ي)

اليمن

فهرس المصطلحات والألفاظ التي لها دلالات خاصة

أطم
أقوار
البر
البرطال
برنكان
تيقور
جامور
الحذقة
الحوت
زجندريك
زقندر
الساباط
شابل
الشنعه
صردوك
الصفائح
طيفور
العصير
الغلل
فنادق
قاله
القامرة
قلهرة
قيطون
الكباب
لاطون
اللطين
اللقالق
المجاشر
المذانب
المقصر
الموق

المحتويات

- استهلال 7
- المقدمة 11
- مقدمة الطبعة الأولى 13
- مسارات الرحلات 29
- الرسالة الأولى: خَطْرة الطَّيف في رحلة الشتاء والصيف 31
- الرسالة الثانية: مفاخرات مالقة وسلا 57
- الرسالة الثالثة: كتاب معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار 67
- الرسالة الرابعة: رحلة لسان الدِّين بن الخطيب في بلاد المغرب 113
- مراجع التحقيق 151
- كشاف حضاري وفهارس أخرى 163

هذه الرحلة

يقدم هذا الكتاب شخصية الوزير الأندلسي لسان الدين بن الخطيب بوصفه رحالة عظيماً، وذلك على ضوء ما قدمه لنا من أوصاف دقيقة ومشاهدات صادقة للبلاد الأندلسية والمغربية التي زارها بنفسه.

والواقع أن الظروف العلمية والسياسية التي تقلب فيها ابن الخطيب أتاحت له الفرصة للطواف بأنحاء مملكة غرناطة وبلاد المغرب الأقصى. فحين تولى الوزارة رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الأول في رحلته التفتيشية بمقاطعات غرناطة الشرقية عام 748 هـ، كذلك زار ابن الخطيب بلاد المغرب الأقصى كسفير لسلطان غرناطة في عامي 749 و 755 هـ، ثم التجأ إليها مرة ثانية عندما نفي مع سلطانه المخلوع محمد بن يوسف بن نصر، الغني بالله، عام 760 هـ. واستمرت مدة نفيه ما يقرب من الثلاث سنوات عاد بعدها مع سلطانه إلى مقر حكمه مرة أخرى.

سجل ابن الخطيب في رحلاته كل ما رأته عيناه وسمعته أذناه، فأعطانا بذلك مادة خصبة يرجع إليها الفضل الأول في كل ما نعرفه عن حضارة الغرب الإسلامي في تلك الفترة.



ISBN: 9953-441-43-X






المؤسسة العربية للدراسات والنشر